المعمارات المصرية
في فجر التاريخ

رزقانه

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01816 2648

الحضارات المصرية
في
فجر التاريخ

تأليف

الدكتور ابراهيم أحمد رزقانة
مدرس الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

الناشر
مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ بكة الشابوري بالحلمية الجديدة

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

DT
83
R597
1948
c.2

الحضارات المصرية
في
فجر التاريخ

تأليف

الدكتور ابراهيم أحمد رزقانة
مدرس الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

الناشر
مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصحيفة
المقدمة	٣ — ٧
الفصل الأول	
(الأحوال المناخية فى فترة ظهور الانسان)	٨ - ٢٦
الأدلة على التغيرات المناخية	٨
العصور الجليدية	١١
مراحل تراجع الجليد	١٥
التغيرات فى خط الساحل	١٨
علاقة الأدوار الجليدية بمدرجات النيل	٢١
« « بالشطوط البحرية	٢٢
الأحوال المناخية فى أوروبا فى الفترات الجليدية	٢٢
« « فى شمال افريقية فى الفترات الجليدية	٢٣
ميلاد نهر النيل	٢٣
الأحوال المناخية فى السودان فى الفترات الجليدية	٢٤
« « فى الأقاليم الاستوائية فى الفترات الجليدية	٢٤
العصر الجليدى فى آسيا	٢٥
الفصل الثانى	
(حضارات العصر الحجرى القديم فى أوروبا)	٢٧ - ٥٤
أقسام العصر الحجرى	٢٧
ربط حضارات العصر الحجرى بالفترات الجليدية والفترات الدفيئة	٢٨

الحضارة الشيلية ٣٢
الحضارة الأشولية ٣٦
الحضارة الموستيرية ٤٠
الحضارة الأوريفياسية ٤٣
الحضارة السولترية ٤٨
الحضارة المجدلينية ٤٩

الفصل الثالث

(حضارات العصر الحجرى المتوسط والحديث فى أوروبا) ٥٥-٧٤

الحضارة الأزيلية ٥٥
الحضارة التردنوازية ٥٧
الحضارة الكمبينية ٥٨
المرتبة الحضارية الخاصة بوسط أوروبا ٥٩
المرتبة الحضارية الخاصة بشمال أوروبا ٦٠
حضارة كوندا ٦٠
حضارة ما جلموز ٦١
العصر الحجرى الحديث ٦١
مصدر حضارة أوروبا فى العصر الحجرى الحديث ٦٥
أنواع المساكن فى العصر الحجرى الحديث ٦٧
مناطق حضارة العصر الحجرى الحديث فى أوروبا ٦٨
أجناس العصر الحجرى الحديث فى أوروبا ٦٩
الصناعة فى العصر الحجرى الحديث فى أوروبا ٧٠
الحضارة الأنيوليثية ٧١
بداية استعمال المعادن ٧٢

الفصل الرابع

سطح مصر من العصور الجيولوجية إلى العصور البشرية ٧٥-١٠٠

العصر الكربونى ٧٧
العصران البرمى والترياسى ٧٧
العصر الجوراسى ٧٨
العصر الكريتاسى ٧٨
عصر الأيوسين ٧٩
عصر الأوليجوسين ٧٩
عصر الميوسين ٨١
عصر البليوسين ٨٢
عصر البليستوسين والعصر الحديث ٨٤
ارتباط المدرجات النهرية بالتغيرات المناخية ومستوى البحر . . ٩٣

الفصل الخامس

(حضارات العصر الحجرى القديم فى مصر) ١٠١-١٢٥

الحضارتان الشيلية والأشولية ١٠١
الحضارة الموستيرية ١١٢
حضارات العصر الحجرى القديم الأعلا فى مصر ١١٥
الحضارة القفصية ١١٨
الحضارة السبيلية ١٢٣

الفصل السادس

(حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر) ١٢٦-١٥٩

قصة الكشف عن حضارات هذا العصر فى مصر ١٢٦

حضارة تاسا ١٢٤
حضارة البدارى ١٣٩
حضارة الفيوم ١٤٧
حضارة العمرى (أو حضارة حلوان الأولى) ١٥١

الفصل السابع

(حضارات الوجه القبلى فى عصر ماقبل الأسرات) ١٦٠ - ٢١٤
حضارة العمرة ١٦٢
« جرزة ١٨٢
« سماينة ١٩٨

الفصل الثامن

(حضارات الوجه البحرى فى عصر ماقبل الأسرات) ٢١٥ - ٢٤٠
حضارة حلوان الثانية ٢١٨
حضارة المعادى ٢٢٢

الفصل التاسع

(اتحاد شطرى البلاد وقيام الحكم الملكى) ٢٤١ - ٢٦٢
أثر الناحية الطبيعية فى توحيد البلاد ٢٤٢
أثر الناحية الجنسية فى توحيد البلاد ٢٤٧
أثر الناحية الدينية « « ٢٤٨
خطوات توحيد البلاد ٢٥١

المصادر . . . . . ٢٦٢ - ٢٦٧

فهرس الأشكال

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
١	اليابس والماء خلال عصر الأيوسيين	١٢
٢	اليابس والماء خلال النهاية العظمى للجليد	١٣
٣	الظروف المناخية فى قارة أوروبا فى فترة باردة	١٤
٤	« « « « « « دفيئة	١٥
٥	امتداد جليد ڤرم فى القارة الأوروبية	١٦
٦	ترتيب الطبقات فى وادى السوم بشمال فرنسا	٢٩
٧	« « « « الأين بشرق فرنسا	٢٩
٨	« « « توباخ بألمانيا	٣٠
٩	« « « وادى السوم بشمال فرنسا	٣١
١٠	فاس شيلية	٣٣
١١	توزيع الحضارة الشيلية	٣٥
١٢	مثال من الآلات الأشولية	٣٧
١٣	« « « الموستيرية	٤٠
١٤	توزيع الحضارتين الموستيرية والعاطرية	٤٢
١٥	« « القفصية والأورينياسية	٤٤
١٦	أسلحة من فترة أودى	٤٤
١٧	أسلحة أورينياسية	٤٥
١٨	أسلحة من أواخر الحضارة الأورينياسية	٤٦
١٩	أسلحة ذاب كعوب من أواخر الحضارة الأورينياسية	٤٧

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
٢٠	أسلحة سولترية	٤٧
٢١	توزيع الحضارتين السولترية والمجدلينية	٤٩
٢٢	أسلحة مجدلينية	٥٠
٢٣	مثال لحربة مجدلينية ذات صف واحد والأخرى ذات صفين	٥١
٣٤	عصا الرياسة	٥٢
٢٥	الحراب الأزيلية والحص المنقوش	٥٦
٢٦	الآلات القزمية التردنوازية	٥٧
٢٧	الآلات العظمية بحضارة ماجلموز	٦٠
٢٨	خريطة تبين تكوينات سطح مصر فى أهم الأزمنة والعصور الجيولوجية	٧٦
٢٩	خط بيانى يوضح مستوى البحر القديم بالنسبة لمستواه الحالى	٨٣
٣٠	مراحل نمو الدلتا وتراجع الساحل	٨٨
٣١	قطاع فى وادى النيل يوضح تعاقب المدرجات	٩٥
٣٢	حوض البحر الابيض المتوسط الغربى فى فترة قرم الجلبدية	٩٩
٣٣	فأس شيلية من مصر العليا	١٠٣
٣٤	فأسان مصريان من العصر الحجرى القديم الأسفل	١٠٤
٣٥	تتابع الطبقات والحضارات فى رواسب سهل العباسية	١٠٥
٣٦	فأس شالوسية من العباسية	١٠٦
٣٧	فأس شيلية « «	١٠٧
٣٨	فأس اشولية « «	١٠٨
٣٩	رأس حربة موستيرية « «	١٠٩
٤٠	أمثلة من الأسلحة الموستيرية	١١٤

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
٤١	أسلحة صوانية من الحضارة القفصية	١١٩
٤٢	أمثلة من الأسلحة السبيلية	١٢٥
٤٣	خريطة تبين أهم المواقع الأثرية	١٣٣
٤٣	آنية من دير تاسا	١٣٥
٤٤	سنارة لصيد السمك من دير تاسا	١٣٦
٤٥	آلة صوانية على شكل ورق الصفصاف من البدارى	١٤٠
٤٦	أوانى سوداء القمة من البدارى	١٤١
٤٧	« « مزينة برسوم بيضاء من حضارة البدارى	١٤٢
٤٨	آنية غير جيدة الاحتراق من البدارى	١٤٢
٤٩	« « « « «	١٤٣
٥٠	تمثال من البدارى	١٤٤
٥١	سبت من الفيوم	١٤٧
٥٢	سهم قلنسوى الشكل ومنشار من الفيوم	١٤٨
٥٣	« « « من مرمدة	١٥٧
٥٤	آلة عظمية وفأس حجرية من مرمدة	١٥٧
٥٥	أوانى حجرية من مرمدة	١٥٨
٥٦	فأس من الصوان من حضارة العمرة	١٦٥
٥٧	أسلحة صوانية مختلفة من حضارة العمرة	١٦٦
٥٨	أوانى ذات قمة سوداء « « «	١٦٧
٥٩	أوانى سوداء ذات نقوش بيضاء	١٦٨
٦٠	أوانى من البازلت والمرمر من العمرة	١٧١
٦١	اناء اسطوانى من المرمر المصرى من حضارة العمرة	١٧١
٦٢	دبوس من النحاس من حضارة العمرة	١٧٣

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
٦٣	تمثال من العاج من العمرة	١٧٣
٦٤	مقبرة من العمرة	١٧٤
٦٥	مجموعة أثرية وجدت فى إحدى مقابر ديوسبوليس بارفا	١٧٧
٦٦	» » » » » » » »	١٨٨
٦٧ ا	» » » » » » » »	١٨٠
٦٧ ب	» » » » » » » »	١٨٠
٦٨	سلاح من الصوان ذو قاعدة مقعرة وآخر ذو قاعدة مدببة	١٨٣
٦٩	سكين من الصوان من حضارة جرزة	١٨٣
٧٠	» » »	١٨٤
٧١	أوانى فخارية مزينة برسوم وهى تقليد للأوانى الحجرية فى شكلها ورسومها	١٨٥
٧٢	أوانى ذات مقابض مموجة من حضارة جرزة	١٨٦
٧٣	آنيتان من الحجر وتقليدهما من الفخار من حضارة جرزة	١٨٧
٧٤	آنيه فخارية عليها رسم قارب	١٩٢
٧٥	ازميل من النحاس من حضارة سماينة	١٩٩
٧٦	حربة » » » »	٢٠٠
٧٧	فأس من الصوان » » »	٢٠٠
٧٨	أزميل » » » »	٢٠١
٧٩	سلاح » » » »	٢٠١
٨٠	المقبرة فى حضارة سماينة	٢٠٣
٨١	المصطبة » » »	٢٠٥
٨٣	سفينة أجنبية مرسومة على إحدى أوانى حضارة سماينة	٢٠٦

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
٨٣	بعض الأوانى الفخارية من حضارة حلوان الثانية	٢١٨
٨٤	صناعة السلال بحضارة « «	٢١٩
٨٥	هيكل أمير أو رئيس قبيلة وبيده الصولجان من حضارة حلوان الثانية	٢٢١
٨٦	الأوانى الفخارية السائدة فى حضارة المعادى	٢٢٣
٨٧	بعض الأوانى الغريبة بحضارة المعادى	٢٢٤
٨٨	آنيتان من أوانى الخزن بحضارة المعادى	٢٢٥
٨٩	أوانى من البازلت والمرمر من حضارة المعادى	٢٢٧
٩٠	سكاكين من الصوان « « «	٢٢٨
٩١	مكشطان من حضارة المعادى	٢٢٩
٩٢	منشاران من المعادى	٢٢٩
٩٣	مثقاب من العظم من حضارة المعادى	٢٣٠
٩٤	مشط مصنوع من قرن حيوان بحضارة المعادى	٢٣١
٩٥	رأس فأس من النحاس من حضارة المعادى	٢٣١
٩٦	كلمة بيت فى اللغة المصرية (پر)	٢٣٣
٩٧	أحد المواقد بالمعادى	٢٣٤
٩٨	شارة القسم الخامس العشر فوق علامة القسم الأدارى	٢٤٦
٩٩	كلمة مدينة فى اللغة المصرية	٢٤٦
١٠٠	الغزال معبود القسم السادس عشر	٢٤٩
١٠١	الثور الأسود معبود القسم العاشر	٢٤٩
١٠٢	الطائر أبيس معبود القسم الخامس عشر	٢٤٩
١٠٣	كلمة أله فى اللغة المصرية	٢٥٠
١٠٤	الأله ست	٢٥٠

رقم الشكل	موضوع الشكل	الصحيفة
١٠٥	علامة أمنت (الغرب)	٢٥٢
١٠٦	علامة يابت (الشرق)	٢٥٣
١٠٧	الأله أوزيريس إله الزراعة	٢٥٣
١٠٨	مقبرة الأله أوزيريس	٢٥٤
١٠٩	الأله أنزتى متربعا فوق مديريته	٢٥٥
١١٠	الصقر المنتصر على ست	٢٥٦

استدراك : ١ — يوضع شكلا ١ و ٢ كل منهما محل الآخر .

٢ — يعدل وضع شكل ٥٧ بحيث تصبح قاعدته فى أسفل .

مقدمة

درج الباحثون فتره من الوقت على تسمية الفترة السابقة للأسرات الفرعونية بعصر « ماقبل التاريخ » إذ أن معلوماتهم عن هذا العصر مستمدة من استقراء آثار الإنسان وحدها بينما معلوماتهم عن العصر التاريخى مستمدة من استقراء آثار الإنسان بالإضافة إلى قراءة وثائقه المدونة فى أوراق البردى وعلى جدران المعابد والمقابر . ثم تبين للباحثين أن تاريخ الإنسان وحدة لا تتجزأ وأن الكتابة لا تعدو كونها مظهراً جد على تاريخه وأن الأقرب للصواب تسمية الفترة السابقة للأسرات الفرعونية بفجر التاريخ فأن الآلات والأوانى الحجرية كثيراً ما تكون أصدق حديثاً عن تاريخ الإنسان من الوثائق المدونة التى قد تكون مغرضة ومضللة فى كثير من الأحيان . وقد عزز هذا الرأى كثرة الحفائر التى أجريت وكثرة آثار فجر التاريخ التى كشفت مما سد الكثير من الثغرات فى معلوماتنا عن إنسان هذا العصر . فعرفنا الكثير عن مميزاته الجنسية والثقافية وعلاقاته بمواطنيه من ناحية وبجيرانه من ناحية أخرى مما لم يتركنا فى حاجة إلى أية وثائق مكتوبة عن هذه النواحى كلها . كما عرفنا شكل مساكنه ومقابره وأساليب حياته ونوع غذائه ولمحة عن معتقداته الدينية مما جعل تعبير « ما قبل التاريخ » أقل انطباقا على الواقع وأصبح تعبير « فجر التاريخ » أصدق تعبير عن هذا العصر .

وأقدم آثار الإنسان فى مصر عبارة عن آلات من حجر الصوان غليظة الشكل وجدت على السطح فى الصحارى المصرية بين رواسب الزمن الرابع (عصر البليستوسين) ولم يدرس العصر الحجرى القديم فى مصر بنفس العناية التى درس بها فى أوروبا ؛ إذ اقتصر البحث على الجهات المطلة على وادى النيل ، فأما الصحارى الشاسعة المترامية الأطراف على جانبى هذا الوادى حيث توجد آثار هذا الإنسان القديم فلم يرتدها الباحثون بسبب وعورة الطريق وقلة موارد المياه . أضف إلى هذا أن حافة

السهل الفيضى غنية بالآثار التاريخية كالمعابد والمقابر والنقوش التى بهرت أبصار الأثريين وشغلتهم عن آثار العصر الحجرى التى تقل جمالا ورونقاً عن آثار العصر التاريخى وإن كانت تفوقها فى قيمتها العلمية .

ويمكن اعتبار الجبال المصرية سجلا نقرأ فيه الحوادث الجيولوجية التى تعاقبت على هذه البلاد ، إذ تدل طبقاتها على أنها ظلت تحت الماء حتى عصر الايوسين تتلقى الكثير من الرواسب البحرية ، ثم ما كادت هذه الطبقات تظهر فوق صفحة الماء حتى غطتها الغابات والبحيرات والنهيرات مثلها فى ذلك مثل الطبقات المعاصرة فى فلسطين وسوريا وجزء كبير من أفريقيا الوسطى .

ثم تعرض اليابس فى عصر الميوسين للاضطرابات الأرضية وما صحبها من هبوط أجزاء وارتفاع أخرى مما غير من معالم السطح ، وتوغل البحر الشمالى حتى أسوان وتكون منخفض البحر الأحمر .

وقد نشأ منذ هذا الوقت نظام مائى جديد ، فاختفت الثلاجات من وسط أفريقيا وانصرفت مياه البحيرات نحو الشمال وبذلك تكون نهر النيل ، وأصبح يجرى فى الصحراء الغربية فى المجرى المسمى بحر بلا ماء الواقع إلى الغرب من مجراه الحالى . ثم تغير مجرى النهر وأصبح نهر مصر المقدس يسير فى مجراه الحالى.

وفى الوقت الذى كان نهر النيل ينحت فيه مجراه أو بعده بقليل وجد الإنسان لأول مرة ، وهو إنسان العصر الحجرى القديم الذى لا نعرفه إلا من آلات الصوان الغليظة التى خلفها .

وبعد فترة حفر النهر لواديه جاءت فترة ملء هذا الوادى بالطمى وهى عمليه بطيئة ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا . وقد ظهر لنا الإنسان فى هذه الفترة من جديد ، وعرف فى هذه المرة بمقابره وانقاض قراه ومخلفات غذائه التى دلت على أنه أرقى حضارة فكان يصنع الآلات الصوانية بمهارة لا يفوقه فيها أى إنسان فى أوربا فى العصر الحجرى الحديث ، وكان يصنع الآنية الحجرية والفخارية ويزينها

برسوم ونقوش وكان يشكل على هيئة الحيوانات لوحات من الشست والاردواز ، ويصنع عقوداً من الأصداف وحبات الأحجار المختلفة .

ثم يظهر إنسان يعرف صناعة المعادن ويعرف الكتابة ويجيد الرسم والنقش والنحت وغير ذلك من الفنون كما يتقن البناء . وبظهور هذه الحضارة ينتهى فجر التاريخ وينبثق صبحه بتأسيس الحكم الملكى الفرعونى .

وهنا تتضارب الآراء فى أصل هذه الحضارة الجديدة فمن قائل أنها وفدت إلى مصر من الخارج مع غزاة قدموا من الشرق فقهروا الشعب المصرى وأقاموا هذه الحضارة الجديدة بأهراماتها الضخمة التى تناطح السحاب بقممها العالية ومعابدها الهائلة التى تفنى العصر وهى على الدهر باقية ، ونقوشها الجميلة التى تبهر الأبصار ، وأدبها الرفيع الذى يأخذ بالألباب . ومن قائل أن هذه الحضارة فى مصر نبتت بدورها فى هذه البلاد ، وتأصلت جذورها فى تربتها منذ القدم ، وإنه من الجائز أن يكون قد وفد إلى البلاد بعد بدء تاريخها المدون حفنة من الغزاة استطاعت أن تصل إلى عرش البلاد فى الأسرة الرابعة ، وأن تحمل إليها ألوانا جديدة من الحضارة لم تبدل من الحضارة القديمة وإنما طعمتها وصبغتها بصبغة جديدة .

ويستند أصحاب الرأى الأول إلى أمرين ، الأمر الأول ظهور حضارة عظيمة الرقى بشكل فجائى فى وادى النيل الأدنى ، والأمر الثانى ظهور أصحاب الرءوس العريضة فى مقابر الأسرة الرابعة .

غير أن هذا الرأى أصبح لا يستند إلى أساس ، فقد دلت الحفائر الحديثة فى الدلتا والصعيد على أن الحضارة الفرعونية لم تنشأ فجأة فى مصر بل سبقتها أدوار من الحضارة عديدة متدرجة بدأت بالعصر الحجرى القديم ثم تطورت إلى العصر الحجرى الحديث ، ثم إلى عصر ما قبل الأسرات ثم إلى عصر الأسرات . وليس هناك أى مظهر من مظاهر الحضارة الفرعونية — سواء أكان بناء أو نقشا أو نحتا — لا نستطيع أن نرجع جذوره إلى عصر ما قبل الأسرات ، ثم نتتبع سيقانه وفروعه فى العصر الفرعونى

مما لا يدع مجالا للشك فى أن شجرة الحضارة أصيلة فى هذه البلاد . وهذا لا يمنع من أن تكون بعض مظاهر الحضارة نقلت إلى مصر من الجهات المجاورة ولاسيما غرب آسيا ، كما أن بعض مظاهر الحضارة المصرية الصميمة نقلت إلى هذه الجهات، أى أن مصر أعطت كما أخذت ، بل لعلها أعطت أكثر مما أخذت . وأما القول بوجود هياكل بشرية فى مقابر الأسرة الرابعة تختلف فى مميزاتها الجنسية — ولاسيما فى شكل الجماجم — عن الشعب المصرى فليس دليلا على أن جنسا جديدا هاجر إلى مصر فى الدولة القديمة — كما يريد بعض الباحثين أن يقول — وأوجد الحضارة المزدهرة التى تتمثل فى أهرامات الجيزة بشكلها الضخم . وإنما كل ما يمكن القول به أن عنصرا عريض الرأس استطاع أن يصل إلى حكم البلاد فى هذه الأسرة ، وربما كان هذا العنصر قديما فى البلاد وربما وفد إليها قبيل قيام هذه الأسرة من جهة مجاورة فى غرب آسيا . وليس من الضرورى أن نربط بين بناء الأهرامات وبين هذا العنصر العريض الرأسى ؛ فإن البناء بالحجر مر فى عدة أدوار قبل قيام الأسرة الرابعة وبدأ بسيطا فى الأسرة الأولى ، ثم ازداد ضخامة فى الأسرة الثانية ، ثم ظهر بمظهر رائع فى هرم زوسر المدرج بسقارة فى الأسرة الثالثة ثم ظهر بمظهر أروع فى أهرامات الأسرة الرابعة . ومثل هذا يمكن أن يقال عن كل مظهر من مظاهر الحضارة التى تنسب لأصحاب الرءوس العريضة . ويمكن أن يضاف إلى هذا أيضاً أنه لا يشترط لانتقال الحضارة والثقافة انتقال الأجناس ، بل إن العلاقات التجارية وعلاقات الجوار كافيتان لانتقال الحضارة من مكان لآخر دون أن ينتقل معها الإنسان ، ولا شك أن ظهور الحضارة فى مصر — فى ذلك الوقت المبكر — بمظهر رائع لم يوجد مثله فى الأقطار المجاورة يرجح القول بأن الحضارة المصرية أصيلة ، وأن المظاهر المماثلة فى الأقطار الأخرى منقولة عنها ، وستثبت فصول هذا الكتاب صحة هذا الرأى .

ولقد كان العالم فى فجر التاريخ وحدة حضارية متماسكة إلى حد كبير ، وكانت حضارته متشابهة لا فرق فى ذلك بين القارات المختلفة ، فالحضارة الشيلية مثلا

متشابهة فى خصائصها فى غرب آسيا وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا . ثم كلما ارتقى الانسان فى مدارج الحضارة كلما ظهر التخصص والتنوع بحسب الاختلاف فى التوزيع الجغرافى ، فبينما ظلت أوروبا فى العصور الحجرية زمنا طويلا نجد شعوب غرب آسيا وشمال أفريقيا تتخلص من هذه العصور فى فترة مبكرة ، وتنتقل إلى عصر المعادن والعصر التاريخى ، فتعرف صناعة المعادن والكتابة وإنشاء المدن، ويقوم بها النظام الملكى .

ولقد درس العصر الحجرى فى أوروبا بعناية شديدة ، واطلقت على مراحل حضاراته أسماء خاصة نسبة للأماكن التى كشفت بها أهم نماذج هذه الحضارات أو اقدمها . وقد اصبحت هذه الأسماء عالمية بمعنى أنها تطلق على الحضارات المتشابهة فى أجزاء العالم المختلفة ، ولهذا كان لابد لنا من أن نتعرض باختصار للحضارات الأوروبية لكى نستطيع دراسة الحضارات المصرية المتشابهة ، وسنفرد فصلين لدراسة الحضارات الأوروبية فى العصور الحجرية .

ولما كانت حضارات العصر الحجرى وثيقة الصلة بالظروف المناخية المعاصرة لها وعلى الأخص العصور الجليدية التى سادت فى عصر البليستوسين فكان لا بد أيضا من أن نفرد فصلا لوصف المناخ خلال هذه العصور الجليدية فى أوروبا وشمال أفريقيا ، وكان لابد لهذا الفصل من أن يسبق الفصول الخاصة بالحضارات . ثم ننتقل بعد ذلك لدراسة مصر نفسها ، فنكتب فصلا عن سطح مصر ومناخها فى العصور المختلفة ، وبذلك نعد المسرح الذى تتتابع عليه الحضارات ، ثم نتبع هذا الفصل بعدة فصول تتناول الحضارات المصرية منذ فجر التاريخ حتى انبثاق صبحه .

الأسكندرية فى أغسطس سنة ١٩٤٨ ابراهيم أحمد رزقانه

الفصل الأول

الاحوال المناخية فى فترة ظهور الانسان

عندما سادت النظرية السديمية واعترف بها كمصدر لنشأة المجموعة الشمسية كان طبيعيا أن يعتقد العلماء أن المناخ آخذ فى البرودة التدريجية. وحقيقة توجد أدلة كثيرة على أن الأحوال المناخية فى الماضى كانت أكثر دفئاً وعلى أنها سائرة على العموم نحو البرودة التدريجية. ولكن توجد فى نفس الوقت بعض الصخور القديمة فى العروض المعتدلة الحالية تحتوى على بقايا آثار جليدية، مما جعل العلماء يفكرون فى أن عصوراً باردة مرت على الكرة الأرضية منذ القدم وتخللت عصورها الدفيئة.

ولقد دلت الحفريات على وجود كائنات حية على وجه الأرض منذ العصر الكمبرى وما قبله، غير أن طبيعة هذه الحفريات لا تساعد على التمييز بين الانواع المناخية المختلفة فى هذه الأزمنة الجيولوجية السحيقة لأن أكثرها من نوع مائى لا يظهر فيه التغير والتشكل تبعاً لتغير الأحوال المناخية. ولكن عندما تخصصت الانواع فى الزمن الأوسط امكن التمييز بين الأنواع القطبية والأنواع المدارية من هذه الحفريات. ثم لما ازداد تطور الكائنات الحية فى الازمنة التالية وتنوعت النباتات والحيوانات البرية امكن الاعتماد على الحفريات فى استنباط المعلومات عن الظروف المناخية التى عاشت فيها تلك الكائنات، مثال ذلك الماموث Mammoth والنمر ذو الأسنان الحادة Sabre-toothed tiger والصفصاف القطبى Arctic willow وغير ذلك من الحيوانات والنباتات العديدة.

وكذلك أمكن الاستدلال على حدوث التغيرات المناخية من طبيعة التكوينات الصخرية فكتل الصخور الطفلية تدل على المناخ الجليدى، كما أن رواسب الملح

والجبس تدل على الأحوال المناخية الجافة ، وتتخذ الصخور المرجانية دليلا على البحار الدفيئة ، كما تدل التكوينات الفحمية المتخلفة عن الأشجار الخالية من حلقات النمو السنوية على المناخ الدائم الحرارة والمطر طول العام ومانسميه الآن اقليم الغابات المدارية . وفى نفس الوقت استدل من وجود حلقات فى نباتات معاصرة لهذه التكوينات الفحمية فى جهات أخرى من العالم على حدوث تغيرات فصلية فى المناخ

وكذلك توجد أدلة على حدوث تغيرات مناخية فى العصور التاريخية نفسها ، ونقصد بالعصور التاريخية الفترة الزمنية التى بدأت بظهور الوثائق المكتوبة وطول هذه الفترة حوالى سبعة آلاف سنة حتى الوقت الحاضر .

والنظرية السائدة فى الوقت الحاضر أن المناخ يتذبذب منذ القدم بحيث يعلو أو يهبط بالنسبة لمستوى معين ، فنتج عن ذلك حدوث موجات متناوبة من الحر أو البرد ومن المطر أو الجفاف.

وقد لخص الأستاذ اوستن ميلر الأدلة التى يستند اليها العلماء فى القول بوجود الذبذبات المناخية فيما يلى :

١ — المعلومات الخاصة بالأمطار وغيرها من الظواهر المناخية الأخرى التى سجلها الكتاب القدماء مثل سجل الظواهر الجوية الذى دونه بالاسكندرية بطليموس الجغرافى فى القرن الثانى الميلادى .

٢ — المعلومات الخاصة بالفيضانات وفترات الجفاف .

٣ — المعلومات الخاصة بمواعيد بذر الحبوب وضمها ومثال ذلك أنه توجد فى بعض جهات أوروبا سجلات مدون فيها مواعيد جنى الكروم منذ سنة ١٤٠٠ .

٤ — البيانات الخاصة بمواعيد تجمد الموانى والأنهار ، ومثال ذلك أنه توجد بالدانمرك سجلات مدون فيها مواعيد تجمد المياه عند سواحلها فى فصل الشتاء منذ سنة ١٣٥٠ .

٥ — القصص الدينية مثل قصة الفيضان.

٦ — اختلاف المسافات بين الحلقات السنوية لنمو الأشجار المعمرة، وقد عمر بعض هذه الأشجار أكثر من ٣٠٠٠ سنة.

٧ — التوزيع القديم للنباتات الحساسة أى التى تتأثر بسرعة بالأحوال المناخية مثل النخيل والكروم.

٨ — وجود الغابات الميتة — المتحجرة وغير المتحجرة — فى جهات لا تكفى أمطارها فى الوقت الحالى لنمو الغابات وكذلك وجود كتل الأخشاب المتفحمة فى جهات شديدة الجفاف فى الوقت الحاضر.

٩ — وجود آثار مراكز عمران قديمة فى جهات لا تساعد ظروفها المناخية الحالية على العمران ومثال ذلك انقاض مدينة تدمر فى الصحراء السورية فإنه بناء على هذه الأنقاض يقدر عدد سكانها قديماً باكثر من مائة ألف نسمة. فى حين أن أمطارها الحالية لا تسمح إلا بسكنى ألف نسمة فقط.

١٠ — وجود آثار تدل على قيام الزراعة فى مناطق لا يسمح المناخ الحالى بزراعتها، ومن هذه الآثار معاصر الخمر واجران درس الغلال

١١ — امتداد بعض الطرق حول بحيرات جافة حالية وكذلك قيام كبارى على مجارى مائية ليس بها ماء فى الوقت الحاضر

١٢ — وجود أدلة على اختلاف مستوى بعض البحيرات والبحار المقفلة مثل بحيرة فكتوريا وبحر قزوين.

١٣ — وجود الشواطىء البحرية والبحيرات الجافة.

١٤ — تقدم الانهار الجليدية وتقهقرها.

١٥ — وجود مقابر فى جزيرة جرينلند وقد استخرجت التوابيت من الأرض الدائمة التجمد فى الوقت الحالى، وقد لوحظ أن الجذور النباتية تخترق هذه التوابيت

مما يدل على أن صيف هذه الجزيرة عند دفن هؤلاء الموتى كان ادفأ منه فى الوقت الحالى ، وكان يسمح بقيام حالة نباتية .

١٦ — الهجرات الكبيرة المشهورة فى التاريخ ، وقد أمكن الربط بين تلك الهجرات وبين الفترات التى سادفيها الجفاف فى المواطن الأصلية للشعوب المهاجرة

وليس من غرضنا فى هذا المقام أن ندرس أسباب التغيرات المناخية ، وإنما يهمنا القول أن ظهور الإنسان الأول كان معاصراً لتغيرات هامة فى المناخ نتج عنها ظهور الفترات الجليدية فى عصر البليستوسين الچيولوچى ، وقد مرت الكرة الأرضية فى عدة فترات جليدية قبل الجليد البليستوسينى ، وقدجاءت هذه الفترات الجليدية عقب الحركات الكبيرة التى كونت السلاسل الجبلية على النحو الآتى :

١ — فترة جليدية فى العصر الچيولوچى البروتيروزوى الأسفل منذ ٧٥٠ مليون سنة ، تلت الحركة الألتوائية البروتيروزوية القديمة .

٢ — فترة جليدية فى العصر الكمبرى الأسفل منذ ٥٠٠ مليون سنة تلت الحركة الإلتوائية البروتيروزوية الحديثة .

٣ — فترة جليدية فى العصرين الچيولوچيين الفحمى والبرمى منذ ٢٦٠ مليون سنة تلت الحركة الإلتوائية الهرسينية .

٤ — فترة جليدية فى عصر البليستوسين منذ فترة تتراوح بين ٧٠٠ ألف و ٢٠ ألف سنة . تبعت الحركة الإلتوائية الألبية .

وقد يبدو غريبا لأول وهلة أن تتأخر الفترة الجليدية مدة طويلة بعد أن تنتهى الحركة الإلتوائية ويتم تكوين الجبال ، فمثلا قدتمت الحركة الالبية فى الميوسين ومع ذلك ظل المناخ الدفىء سائداً فى البليوسين ولم تظهر الفترة الجليدية الا فى البليوستوسين وتفسير ذلك أن النهاية العظمى للتضاريس لا تتفق مع النهاية العظمى للحركة الإلتوائية ، وذلك لأن حركة التوازن تستمر فترة طويلة بعد انتهاء الحركة الالتوائية وينتج عنها استمرار حركة الارتفاع فى اجزاء

القشرة الأرضية وقد ثبت أن القشرة الأرضية فى كثير من اجزاء العالم - إن لم يكن كلها - فى حالة توازن isostatic equilibrium بمعنى أن سطحها يقع على ارتفاع يتناسب مع ثقل الحمل الذى تحمله على هيئة جبال وهضاب وسهول . ومن الجلى أن تراكم الغطاء الجليدى يفسد هذا التوازن لأنه يضيف حملا الى بعض اجزاء العالم ، وهذا يتطلب هبوط الأجزاء المغطاة بهذا الحمل الجليدى بدرجة تتناسب مع ثقله . ومن جهة أخرى نجد أن زوال الغطاء الجليدى بالذوبان فى الفترة الدفيئة يفسد التوازن ، وهذا يتطلب ارتفاع الأرض من جديد الى مستواها الأصلى . وهذه التغيرات فى مستوى الأرض فى الحالين تتناسب مع ثقل الجليد المتراكم أو المذاب . وقد ثبت حدوث هذا التوازن فى جهات كثيرة من العالم من وجود الشطوط المرتفعة فى الجهات التى غطاها الجليد

شكل ١ — اليابس والماء خلال عصر الأيوسين

ومعنى هذا أنه فى أوائل الزمن الجيولوجى الثالث كانت تسود ظروف مناخية معتدلة ، ويوضح شكل (١) توزيع اليابس والماء على سطح الأرض فى عصر الأيوسين أول عصور هـــذا الزمن ، وفيه نرى أربعة مسالك بحرية تصل مياه الجهات الباردة بمياه الجهات الحارة ، ثم تحدث بعد ذلك حركة الالتواءات الألبية التى تبلغ ذروتها فى عصر الميوسين ثالث عصور هذا الزمن ، ثم بعد ذلك تقضى القشرة الأرضية فترة طويلة تتوازن فيها نتيجة للاضطراب فى توزيع المرتفعات والمنخفضات الناجم عن الحركة الألبية ، ويتضمن هذا التوازن حدوث حركات رأسية ، وبذلك لم تصل التضاريس أقصى ارتفاعها إلا فى أوائل

البليستوسين ، وبعد ذلك أخذت الفترة الجليدية فى الظهور (أنظر شكل ٢) .

ولم تكن فترة الجليد البليستوسين فى الحقيقة فترة واحدة بل كانت عبارة عن أربع فترات جليدية تفصل بين كل منها فترة دفيئه تتحسن الأحوال المناخية فيها تحسناً كبيراً بحيث تفوق فى اعتدالها مناخنا الحالى .

شكل ٢ — اليابس والماء خلال النهاية العظمى للجليد
(أهم الغطاءات الجليدية مظللة)

وقد استدل على تعاقب فترات الجليد والدفء فى البليستوسين بما يأتى :

١ — وجود تكوينات متعاقبة من رواسب جليدية وأخرى غير جليدية .

٢ — وجود بقايا نباتية وحيوانية متعاقبة من التى تألف البرودة والتى تألف الدفء .

٣ — وجود ركامات تدل على حدوث ذبذبات فى جبهة الجليد أى أنه كان يتقدم حيناً ويتقهقر حيناً آخر .

٤ — تعاقب ظاهرات التضاريس الناجمة عن التعرية الجليديه وتلك الناجمة عن التعرية النهرية ولا تحدث الأخيرة إلا فى فترة دفيئة .

وفى أوائل القرن الحالى أخرج E. Buckner , Dr. Albrecht Penck نتائج دراستهما للعصر الجليدى فى جبال الألب فى كتاب يسمى DieAlpen im Eiszeitalter فى ثلاث مجلدات صدرت فى ليبزج بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٩ . فمن فحص الركامات الثلجية القديمة وعلى الأخص الركامات النهائية اقتنع هذان الباحثان بأن إقليم الألب مر فى أربعة أدوار جليدية متفاوتة السمك والامتداد ، كما تمكنا من إثبات وجود فترات دفيئة تفصل بين الأدوار الجليدية بل ، إنهما تمكنا من إثبات العلاقة بين هذه الأدوار الجليدية الأربعة وبين مدرجات الحصباء المتعاقبة فى نهر الرين

وغيره من الأنهار . أما الأدوار الجليدية فهى كما يأتى مسماة نسبة إلى أسماء بعض وديان جبال الألب التى وجدت فيها ركاماتها :

جنز Gunz	سنة ؟	ق . م
مندل Mindel	٤٣٠٫٠٠٠ — ٢٧٠٫٠٠٠	ق . م
رس Riss	١٣٠٫٠٠٠ — ١٠٠٫٠٠٠	ق . م
ڤرم wurm	٤٠٫٠٠٠ — ١٨٫٠٠٠	ق . م

ولكى نفهم الأسباب التى ادت الى حدوث هذه الفترات الدفيئة ينبغى أن ندرك تعاقب الحوادث التى ينتظر حدوثها فى مساحة من الأرض غمرها غطاء جليدى ، ثم تبعا لذلك التغيرات التى ينتظر حدوثها فى الجهات المحيطة بالأرض المغطاة بالجليد .

شكل ٣ يبين الظروف المناخية فى قارة أوروبا فى فترة باردة

فالغطاء الجليدى إذا نما وكبر نتيجة لتراكم التساقط الثلجى هبط تبعاً لذلك مستوى البحر بالنسبة لمستوى الأرض ، ويقدر هذا الهبوط بمقدار ٤٠٠ قدم فى الفتره الجليدية . ثم يأخذ مستوى الأرض فى الهبوط بالنسبة للبحر تحت ثقل هذا

الغطاء الثلجي ، ويقدر هذا الهبوط بمقدار ثلث سمك الغطاء الجليدى . ونتيجة لهذا الهبوط يأخذ الجليد فى الذوبان وتتمكن التيارات الهوائية من التوغل داخل اليابس حاملة معها تأثيرات دفيئة من البحار المجاورة ، وبذلك تحدث فترة دفئية ، (شكلا ٣، ٤) ثم نتيجة لذوبان الجليد تأخذ الأرض فى الارتفاع مرة أخرى حتى تعلو فوق خط الثلج فيتراكم الجليد مرة أخرى وتحدث فترة جليدية ثانية وهكذا .

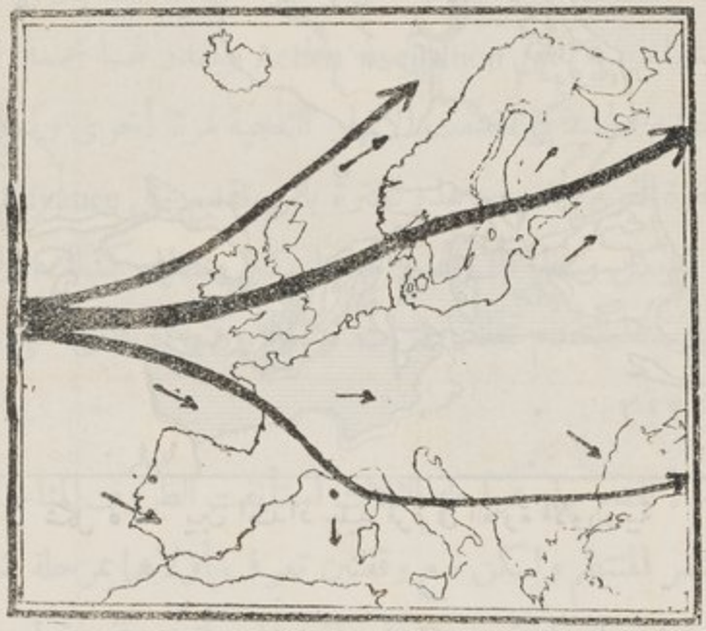

شكل ٤ الظروف المناخية فى قارة أوروبا فى فترة دفيئة

مراحل تراجع الجليد :

عرفنا أن العصر الثلجى العظيم ساد أوروبا فى عصر البليستوسين الجيولوجى وقد اقترن به ظهور أولى الأدلة المؤكدة على وجود الحياة البشرية . ورغم أن المساحات التى غطاها جليد ڤرم لم تكن أكبر من المساحات التى غطيت فى بعض العصور الجليدية السابقة له إلا أن جليد ڤرم كان من القسوة بحيث استحال معه الاستيطان البشرى فى معظم أوروبا فقد كانت الشقة الضيقة المحصورة بين جليد العروض الشمالية وبين جليد جبال الألب قاسية البرودة كقسوتها فى أبرد جهات

سيبريا فى الوقت الحاضر . (أنظر شكل ٥) وحتى هذا الوقت لم توجد أجناس بشرية شبيهة بالأجناس الحالية كما دل على ذلك مخلفات هياكل إنسان هذا العصر .

شكل ٥ — يبين امتداد جليد قرم فى القارة الأوروبية

وبعد تراجع جليد قرم أو بالأحرى وقت تراجعه ظهر الإنسان الحديث Homo Sapiens لأول مرة فى أوروبا .

وحينما كان جليد قرم فى ذروته وصلت الحقول الثلجية فى وسط أوروبا إلى ألفى قدم تقريبا تحت مستواها الحالى بينما امتدت الأنهار الثلجية إلى مادون ذلك . وكان يمتد غطاء ثلجى عظيم من اسكندناوة فيغطى كل أقليم البلطيق وفنلندة وجزءاً من شمال ألمانيا .

وبعد أن وصل جليد قرم ذروته تراجع فترة من الوقت وتسمى هذه الفترة تراجع لوفن Laufen retreat ولكنها كانت فترة قصيرة أعقبها تقدم الجليد مرة أخرى بحيث وصل إلى مستواه السابق تقريبا ويسمى هذا التقدم الذروة الثانية لجليد

ڤرم . وأخيرا أخذ الجليد فى التراجع نهائيا وكان ذلك فى فترة تتراوح بين سنة ١٧٫٠٠٠ ، سنة ١٣٫٠٠٠ ق .م حسب التقديرات المختلفة .

وكانت فترة التراجع الأولى شديدة البطء كما أنها لم تكن منتظمة بمعنى أن الجليد كان يتراجع مسافة كبيرة ويعقب ذلك تحسن فى المناخ ثم لا يلبث أن يتقدم مرة أخرى لمسافة صغيرة ثم يعود فيستأنف حركة التراجع وهكذا. على أن حركة التراجع كانت الحركة العامة أو الرئيسية ولكن تخللتها حركات تقدم وقتية وتسمى هذه الفترة فى مجموعها ذبذبة آخن Achen oscillation ويقدر لها خمسة آلاف سنة . ثم بعد ذلك تقدم الجليد كما تقدمت الأنهار الثلجية مرة أخرى ولكن لم تصل إلى مستواها فى فترة الڤرم وتعرف هذه الفترة باسم تقدم بهل Biihl advance وكما أن تراجع آخن لم يكن منتظما فأن تقدم بهل لم يكن منتظما كذلك ، بل أمكن تمييز ثلاث مراحل لهذا التقدم تخللتها فترات تراجع وقتية ويطلق على هذه المراحل أسماء بهل ١ ، ٢ ، ٣

وبعد انتهاء تقدم بهل بمراحله الثلاث استأنفت الظروف المناخية خطواتها نحو التحسن المستمر المنتظم ولكن مع وقفتين تعرف أولاهما بمرحلة شنتز Yschnity وتعرف الثانية بمرحلة داون Daun ففى هاتين المرحلتين وقف تراجع الجليد بعض الوقت ثم استأنف تراجعه . وهذه الأسماء الأربعة آخن وبهل وشنتز وداون عبارة عن أسماء وديان فى جبال الألب جمعت منها الأدلة على هذه المراحل ويسهل تذكرها لأنها تبدأ بالحروف الأربعة الأولى من الأبجدية اليونانية

وكذلك درست مراحل تراجع الجليد فى شبه جزيرة اسكندناوة ووجد أنها تتفق مع مراحل تراجعه فى جبال الألب على النحو المبين فى الجدول .

التاريخ	جبال الألب	اسكندناوة
٢٠٠٠ م		العصر التاريخى
٢٠٠٠ ق.م	داون	ما بعد الجليد
٤٠٠٠ «	شنتز	«
٦٠٠٠ «		
	بهل ٣	وقفة راجندا
٨٠٠٠ «	بهل ٢	جليد فندلندة وسكندناوة
١٠٠٠٠ «	بهل ١	
١٢٠٠٠ «	ذبذبة آخن	فترة تقهقر جليد السويد
	ڤرم ٢	فترة جليد السويد
١٤٠٠٠ «		
١٦٠٠٠ «		
١٨٠٠٠ «	تراجع لاوفن	التراجع الدنمركى
٢٠٠٠٠ «		
٢٢٠٠٠ «		
٢٤٠٠٠ «	ڤرم ١	الجليد الدنمركى

جدول يبين مراحل تراجع الجليد فى جبال الألب وشبه جزيرة اسكندناوة[١] الترتيب التاريخى من أسفل إلى أعلا .

التغيرات فى خط الساحل :

توجد شطوط بحرية مرتفعة فى جهات كثيرة على الساحل الأوروبى من اسكتلندا

Peake & Fleure , Hunters & Artists F g .5 p .II ·

شمالا حتى ساحل شمال أفريقية جنوباً، وتدل هذه الشطوط على أن البحر كان يوما ما أكثر ارتفاعا منه فى الوقت الحاضر. وقد تبين من الأدلة المختلفة أن هذه الشطوط ترجع لعصر البليستوسين. وقد وجد فى العراق مدرجات نهرية وخطوط مختلفة للساحل يمكن ربطها بالشطوط المرتفعة الأوروبية.

وقد قال الجيولوجيان الفرنسيان ديپريه ولاموث Depêret & Lamothe أن هذه الشطوط المرتفعة - التى أمكن تتبعها من البحر الأبيض المتوسط حتى اسكتلندا - عددها أربعة وأنها ترتبط بأربعة مدرجات نهرية موجودة فى أنهار كثيرة. ومعنى هذا أن البحر ارتفع فوق مستواه الحالى أربع مرات خلال عصر البليستوسين.

وكذلك تبين من البحث أنه توجد شطوط غاطسة إلى عمق مائة قامة (٦٠٠ قدم) تحت مستوى البحر الحالى وقد كانت هذه الشطوط الغاطسة عبارة عن خط الساحل القديم، ومعنى هذا أن مستوى البحر تذبذب بين ارتفاع وانخفاض. ويرى Osborn أن الأرض كانت تنخفض فى الفترة الجليدية وترتفع فى الفترة الدفيئة ولكن الرأى المفضل عند كثير من العلماء هو عكس ذلك أى أن الأرض كانت مرتفعة خلال الفترة الجليدية ومنخفضة خلال الفترة الدفيئة.

وبناء على الأبحاث الجيولوجية وعلى دراسة المخلفات البشرية فى كل من شمال أفريقية وجنوب أوروبا لابد من أن نفرض أنه كان هناك معبر برى يصل تونس بمالطة وصقلية من ناحية ثم بجنوب شبه جزيرة إيطاليا من ناحية أخرى إذ وجدت أسنان بشرية فى جزيرة مالطة يرجح أنها من نوع انسان نياندرتال. وبالطبع لانستطيع أن نعترض أن هذا الإنسان البدائى عرف ركوب البحر بأى شكل من أشكاله، ولابد من التسليم بوجود معبر برى يصل أوروبا بأفريقيا من هذه الناحية. ومثل هذا يقال على مضيق جبل طارق - رغم أنه أكثر عمقاً - فإن الأدلة البشرية تدل على انتقال الإنسان وحضاراته عبر هذا المضيق فى وقت مبكر لم يكن الإنسان قد عرف فيه ركوب البحر فلا بد من التسليم أنه كان هو الآخر معبراً برياً يصل بين شمال أفريقيا وبين شبه جزيرة أيبريا.

ومثل هذا يقال عن الصلة بين شمال فرنسا والجزر البريطانية فقد كان الاتصال بينهما بريا فى فترة ظهور الإنسان البدائى بدليل أنه كان ينتقل بحرية حاملا معه حضارته بين هذين الجزءين فى الوقت الذى لا يعقل أنه كان يعرف فيه أى نوع من أنواع القوارب .

ولا بد أن البحر الأبيض المتوسط كان فى فترة جليد الفرم عبارة عن بحرين مقفلين لهما سواحل على مستوى ٦٠٠ قدم تحت مستوى البحر الحالى . وكان يوجد فى البحر الغربى منهما بروز كبير يمتد من أيطاليا بالقرب من ليجهورن ويشمل قورسيقا وسردينيا، وكانت هناك عدة جزر كبيرة تشمل ما جورقا ومينورقا ، وأما البحر الشرقى فكانت حدوده تختلف كثيرا عن حدود الحوض الشرقى من البحر الأبيض الحالى ، فكان معظم الأدريانيك يابسا كما كان ايجة أصغر وكانت معظم جزره متصلة بالشاطىء من كلا جانبيها أى كانت عبارة عن بروز طويل من الشاطىء .ومن الجائز أنه حدثت حركات محلية خاصة فى هذا الجزء ومن الجائز أيضا أنه كانت هناك بحار صغرى أو بحيرات متفرعة من هذا البحر الشرقى وكان النيل ينحدر بعنف شديد ويصب فى أحد خلجان هذا البحر .

ويمكن أن نفترض أنه فى أثناء ذبذبة آخن ارتفع مستوى البحر بعض الشىء فطغى على اليابس وربما غطى برزخ جبل طارق فحوله إلى مضيق ولكن لم يلبث اليابس أن ارتفع من جديد فى فترة تقدم بهل ورغم أن هذا الارتفاع لم يصل إلى مستواه القديم إلا أنه كان كافياً ليتمكن الإنسان من العبور من أفريقيا إلى أسپانيا ولوخوضا ، ثم غطس اليابس بعد ذلك فترة من الوقت تحت مستوى خط الساحل الحالى .

وأما فى أقليم البلطيق فلا نستطيع أن نعرف حالته فى فترة فرم لأنه كان مغطى بالجليد فى هذه الفترة ولكن المعتقد أن المحيط المتجمد الشمالى لم يكن يمتد - كما هو الآن - حتى البحر الأبيض الروسى فحسب بل كان يستمر فى امتداده نحو الجنوب الغربى فيشمل جزءاً من روسيا ثم جزءاً من بروسيا الشرقية حتى مدينة كونجز برج

ولما تقهقرت حافة الغطاء الجليدى نحو الشمال خلال البلطيق فى فترة التراجع المعروفة باسم Gothiglacial ـ المعاصرة لذبذبة آخن ـ هبطت الأرض فى شرق اسكندناوة وبقيت الدنمرك والنرويج فى وضعهما الحالى تقريبا . ولقد أدى هذا الهبوط إلى امتداد المحيط المتجمد الشمالى من البحر الأبيض الروسى حتى الكاتجات وبذلك كان يغطى جنوب فنلندة وولايات البلطيق وجزءاً كبيرا من جنوب السويد . وكلما استمر الجليد فى تراجعه كلما زاد إغراق المحيط للأجزاء الشمالية ويسمى هذا الامتداد البحرى بحر يولديا Yoldia Sea ويظهر أن هذا البحر وصل أقصى مساحته فى أواخر فترة ال Gothiglacial retreat ثم تضاءل خلال الفترة الجليدية الفند لاندية الاسكندناوية Fennoscandian المعاصرة لتقدم بهل فارتفع قاع بحر البلطيق وبذلك تكون حاجز من اليابس يفصل بين المحيط المتجمد الشمالى الأصلى وبين امتداده فى شمال أوروبا . فأصبح الجزء الأكبر من بحر يولديا عبارة عن بحيرة داخلية راجوندا تسمى بحيرة انكيلوس Ancylus Lake واستمر الأمر كذلك حتى وقفة المعاصرة لبهل ٣

وبعد ذلك هبط جنوب اسكندناوة فاتصلت بحيرة انكيلوس بالمحيط الشمالى من جديد وكانت المياه دافئة لأن الفترة التى تلت مرحلة شنتز كانت دفيئة فازدهرت فيها الليتورينا أو الليتوريا ولذلك سمى بحر البلطيق باسمها ويطلق على هذه الفتر اسم بحر ليتورينا Littorina Sea . والمعتقد أن هذا الامتداد الضئيل لبحر البلطيق استمر عده آلاف من السنين ثم اخذت الأرض حوله فى الارتفاع حتى أصبحت فى مستواها الحالى حوالى سنة ٢٠٠ ق . م

علاقة الأدوار الجليدية بمدرجات نهر النيل

بينما كان پنك وبروكنر منغمسين فى بحثهما عن الأدوار الجليدية بجبال الألب نشر بلانكنهورن بحثا حاول فيه أن يثبت وجود أربعة أدوار مطيرة فى وادى النيل ترتبط بالأدوار الجليدية الأربعة فى جبال الألب التى قال بها پنك وبروكنر وسنعرف تفصيلها عند الكلام على سطح مصر ومناخها .

(١) هى الفترة التى أطلقنا عليها بالجدل فى صحيفة ١٨ اسم فترة جليد السويد

علاقة الأدوار الجليدية بالشطوط البحرية :

لاحظ الجنرال Lamothe أربعة مدرجات أو شطوط مرتفعة على ساحل الجزائر على ارتفاع ١٥ و٣٠ و٥٥ و٩٣ متراً فوق المستوى الحالى للبحر، وقد ربط بين هذه الشطوط وبين المدرجات النهرية التى لاحظها Commont فى وادى السوم بفرنسا . وفى نفس الوقت لاحظ Depéret وجود شطوط مرتفعة فى صقلية وتونس وفى جهات أخرى من البحر الأبيض المتوسط . وبناء على هذا رأى أنه ينبغى تقسيم عصر البليستوسين إلى أربع مراحل هى ما يأتى مسماة نسبة إلى أهم الشطوط البحرية :

١ — المرحلة الصقلية Sicilian

٢ — المرحلة الميلازية Millazian

٣ — المرحلة التيرانية Tyrrhenian

٤ — المرحلة الموناستيرية Monasterian

وقد ربط أيضاً بين هذه المراحل وبين الأدوار الجليدية الاربعة التى قال بها پنك وبروكنز .

الاحوال المناخية فى الفترات الجليدية :

وبالطبع كان توزيع المناطق المناخية اثناء الفتره الجليدية يختلف عنه أثناء الفترة الغير جليدية . ولما لم تكن النهايات العظمى للجليد على درجة واحدة فى فتراته المختلفة أو فى الجهات المختلفة التى وقعت تحت وطأته ، فلهذا اختلفت الظروف المناخية فى الجهات التى تأثرت بالجليد وفى الجهات الواقعة خارج تلك الجهات . وكانت المناطق المناخية تتزحزح نحو الجنوب فى الفترات الجليدية وتعود نحو الشمال فى الفترات الدفيئة . وفيما يلى بيان مختصر عن تلك المناطق :

أوروبا : كان المناخ فى أوروبا عند الحافات الجنوبية للغطاء الجليدى من نوع التندرا أى ذو شتاء طويل قارس البرد متجمد المياه ، ثم صيف قصير يدفأ فيه الجو قليلا

وتذوب فيه المياه . ولاتزال بعض النباتات التى كانت تنمو فى ذلك النوع المناخى موجودة حتى الآن فى الجهات المرتفعة فى إسكتلندا واسكندناوه وجبال الألب . ولم تكن منطقة التندرا تمتد بحيث تشغل السهل الأوروبى كله بل كان هناك نوع من مناخ الاستبس يسود الجهات الشرقية من تلك السهول ويكون منطقة قارية شديدة التطرف تسود فيها الرياح الشرقيه التى كانت تهب عند الحافة الجنوبية لضد الأعصار . وقد وجد أن حفريات الحيوانات والنباتات التى كانت تعيش فى إقليم الإستبس هذا تمتد غرباً حتى فرنسا مما يدل على أن التأثير البحرى لم يكن يمتد كثيراً نحو داخل القارة الأوروبية .

شمال افريقيا : فى الوقت الذى كان يغطى فيه الجليد العروض العليا الأوروبية كانت تسود فى شمال افريقيا فترات مطيرة وذلك أن البحر الأبيض كان يتحول فى الفترات الجليدية إلى منطقة تجتاحها الاعاصير بكثرة فتسقط أمطارها الغزيرة على شواطئه صيفاً وشتاء . وكانت هذه الأمطار الوفيرة تمتد جنوباً حتى تشمل الصحراء الكبرى أيضاً فتسيل اوديتها بالمياه . وأما فى الوقت الذى تسود فيه الفترة الدفيئة العروض العليا الأوروبية كانت المناطق المناخية تتزحزح نحو الشمال ويصبح شمال افريقيا شبيها بحالته الحالية فإذا ربطنا بين أوروبا وشمال افريقيه يمكن القول أنه فى الدور الجليدى تتزحزح المناطق المناخية نحو الجنوب فيصبح أقليم التندرا فى وسط أوروبا ، ويصبح اقليم غرب أوروبا المناخى فوق حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويصبح أقليم البحر الأبيض المناخى فوق الصحراء الكبرى وأما فى أثناء الدور الدفىء فتعود الأقاليم إلى مواضعها الأصلية فيصبح أقليم التندرا فى شمال أوروبا وأقليم غرب أوروبا فى غرب أوروبا وأقليم البحر الأبيض فى حوض البحر الأبيض . وأما أقليم الصحراء فيكون صحراء حقيقية .

ميلاد نهر النيل :

فى الوقت الحالى نجد الرياح السطحية السائدة فى مصر معظم أيام السنة هى

الرياح الشمالية ، وفى نفس الوقت توجد الرياح الغربية فى الطبقات العليا من الجو وأما فى الأدوار المطيرة فقد كانت هذه الرياح الغربية هى السطحية معظم أيام السنة ولذلك كانت تجلب أمطاراً غزيرة يسقط معظمها فى المناطق الجبلية الممتدة بحذاء البحر الأحمر شرق نهر النيل ، فكانت تسيل بذلك أودية عديدة تجرى نحو نهر النيل حاملة معها كميات كبيرة من الرمال والحصى . ولقد كان تكون الأخدود الأفريقى سببا فى حصر مياه الأمطار الإستوائية وعدم إنسيابها شرقا نحو المحيط الهندى فى الشرق ، فانصرف جزء منها نحو المحيط الأطلسى فى الغرب وانصرف الجزء الباقى نحو البحر الأبيض فى الشمال تبعا للانحدار العام للهضبة الأفريقية . ولكن لم يكن فى استطاعة النيل الأبيض أن يصل إلى البحر الأبيض بل كان يتلاشى فى الصحراء ومن المحتمل أن مياهه لم تستطع اجتياز الصحراء والوصول إلى البحر الأبيض المتوسط إلا فى الفترة التالية للعصور الجليدية (أى منذ ١٤ ألف سنة تقريبا) حينما بدأت الرياح الموسمية تهب على الحبشة والجهات المجاورة لها . ومعنى هذا أن نهر النيل لم يتمكن من اجتياز المنطقة الصحراوية إلا بفضل مياه الفيضان التى يمده بها النيل الأزرق من الأمطار الموسمية التى تسقط على الحبشة . والمعروف أن هبوب الرياح الموسمية يتوقف على دفء القارة الأسيوية واشتداد الحرارة فى قلبها وهذه ظاهرة لم يكن لها وجود أثناء العصور الجليدية . وتبعا لذلك كانت الحبشة جافة وكانت تهب عليها الرياح التجارية الجافة .

السودان : استمرت زحزحة المناطق المناخية نحو الجنوب فحلت الصحراء محل إقليم السفانا الحالى أى أن السودان كان أقليما صحراويا فى الأدوار الجليدية وأقليم سفانا فى الفترات الدفيئة ، وكانت بحيرة شاد تتذبذب تبعا لهذه الحالة فتنكمش فى الأدوار الجليدية وتتسع فى الفترات الدفيئة . ولما كانت هذه البحيرة تزداد اتساعا فى الوقت الحالى وتزداد عذوبتها فمعنى هذا أنها تسير نحو فترة أكثر مطرا .

الأقاليم الاستوائية : لقد كان تركز نطاقات الضغط سببا فى ازدياد قوة الدورة الهوائية واشتداد هبوب الرياح التجارية مما أدى إلى شدة انخفاض الضغط بالأقاليم

الاستوائية وكثرة الأعاصير بها وغزارة الأمطار فيها . وقد نتج عن هذا اتساع البحيرات الاستوائية إلى حوالى الضعف ، ومثال ذلك أن بحيرة ڤيكتوريا كانت تمتد شمالا حتى تتصل ببحيرة كيوجا التى كان مستواها أعلا بنحو ٦٠٠ قدم عن مستواها الحالى . أما الأنهار الجليدية التى كانت تنحدر فوق كلمنجارو ورونزورى فقد هبطت حوالى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف قدم أى إلى مستوى ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . ولكن خط الثلج الدائم لم يهبط إلا بمقدار ثلاثة آلاف قدم فقط ، مما يدل على أن السبب فى ذلك لم يكن انخفاض درجة الحرارة وإنما كان غزارة الأمطار .

العصر الجليدى فى آسيا :

سجلت أقل درجات حرارة فى العالم فى سيبريا فى فصل الشتاء حيث توجد أماكن تتجمد فيها الأرض باستمرار حتى عمق مئات من الأقدام ، كما أن أطول أنهار جليدية معروفة فى العالم توجد فى وديان الهيمالايا ، ومع ذلك لم يوجد دليل على وجود غطاء ثلجى عظيم فى هذه القارة التى هى أكبر قارات العالم ، ولم توجد إلا مساحات جليدية صغيرة نسبيا شرق الأورال ، وفى جزء من شمال شرق سيبريا وربما يرجع وجود هذه المساحات الجليدية إلى عظم إتساع القارة الذى يبعد سهولها الداخلية عن التأثيرات البحرية الدفيئة ، كما أن الرياح التى تصل هذه السهول الداخلية تكون قد مرت فى طريقها على كتل جبلية هائلة تفقدها ما تحمله من رطوبة ، ومثال ذلك الهيمالايا وغيرها من الجبال العالية التى تصطدم بها الرياح قبل أن تصل إلى سيبريا .

ومع ذلك كانت توجد ثلاجات پليستوسينية فوق جبال خالية من الجليد فى الوقت الحاضر كما أن الثلاجات الحالية كانت تمتد إلى مادون حدودها الحالية . ففى جبال لبنان والقوقاز والهيمالايا ومنشوريا توجد آثار جليدية وركامات تمتد آلاف الأقدام تحت مستوى الثلج الحالى بل تصل عند عرض ٢٦° فى البنغال إلى ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . ومن الجلى أن خط الثلج انخفض فى الجبال الأسيوية لكى يتمشى مع خط الثلج فى جبال الألب غرباً وفى جبال روكى شرقاً .

وظاهرة عدم وجود غطاءات ثلجية عظيمة فى سيبريا يمكن أن تقارن بالمساحات التى لم يغطيها الجليد فى آلاسكا ويوكون بأمريكا الشمالية حيث قطعت الجبال العالية المدد الثلجى عن السهول الداخلية رغم قسوة مناخها فى الشتاء .

وخلاصة هذا أن الجليد لم يغط السهول الوسطى الشمالية من آسيا لأنها محمية بالجبال من الرياح الحاملة الرطوبة ، وهى حماية لم تتوفر للسهول المماثلة لها فى أوروبا وأمريكا لأنها سهول مفتوحة من جهة المحيط الأطلنطى .

وقد وجد فى وادى السند الأعلى أربعة أدوار جليدية تتخللها ثلاث فترات دفيئة ، ويمكن ربط هذه الأدوار الجليدية والفترات الدفيئة التى تتخللها بالحالة المماثلة فى جبال الألب .

وبهذا نكون قد استعرضنا الظروف المناخية فى الجهات المحيطة بالقطر المصرى فى أوروبا وآسيا وأفريقيا فى فترة ظهور الإنسان البدائى .

الفصل الثانى

حضارات العصر الحجرى القديم فى أوروبا

مقدمة : بدأ الإنسان حضارته باستخدام آلات من الحجارة ولذلك يعبر عن هذه المرحلة من حياته بالعصر الحجرى . ويختلف الباحثون فى ربط العصر الحجرى بالأزمنة والعصور الجيولوجية فيرى البعض أن الإنسان وجد وصنع آلات من الحجارة فى أواخر الزمن الجيولوجى الثالث (عصر البليوسين) وتوضع هذه الآلات فى مرتبة حضارية خاصة يطلق عليها تعبير « فجر العصر الحجرى eoliths » ولكن الرأى الغالب أن هذه الأحجار الأيوليثية ليست من عمل الإنسان وإنما هى قطع من الصوان تكسرت بفعل العوامل الطبيعية .

وإذا ما انتقلنا إلى الزمن الرابع (عصر البليستوسين) نجد أن الآلات التى ترجع إلى هذه الفترة لا يختلف الباحثون فى نسبتها إلى الإنسان إذ يظهر فى صنعها أثر تفكيره وأرادته وتعمده تشكيلها بشكل خاص لخدمة غرض معين .

ويقسم العصر الحجرى إلى قسمين رئيسيين تبعا لعاملين هما (١) نوع الآلة ودرجة اتقان صنعها (٢) الطبقة الأرضية التى وجدت فيها .

وهذان القسمان هما (١) العصر الحجرى القديم Palaeolithic (٢) العصر الحجرى الحديث Neolithic ولكل من هذين القسمين خصائص حضارية مختلفة تبعت اختلاف الزمن والبيئة والإنسان .

ويشمل العصر الحجرى القديم ست حضارات أطلقت عليها أسماء خاصة تبعا لأسماء الأمكنة التى وجدت فيها أهم نماذجها . وفيما يلى قائمة بهذه المراتب الحضارية مرتبة من الأقدم إلى الأحدث :

١ — الحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة شل على نهر المارن Chelles sur - Marne

٢ — « الأشولية » « « سنت أشيل بالقرب من أميان فى وادى السوم

٣ — « الموستيرية » إلى كهف موستيه Moustier فى حوض الدردنى

٤ — « الأورينياسية » « Aurignac فى الجارون الأعلا .

٥ — « السولترية » إلى بلدة Solutré بالقرب من ماكون فى حوض الساؤن .

٦ — « المجدلينية نسبة إلى كهف لا مادلين La madeleine بالقرب من Les Eyzies فى حوض الدردنى .

وتوضع هذه الحضارات الست فى ثلاث مجموعات هى :

١) الحجرى القديم الأسفل ويشمل الحضارتين الشيلية والأشولية وتمتاز آثار هذه الفترة بأنها كشفت فى المواد الرسوبية فى العراء

٢) الحجرى القديم المتوسط ويشمل الحضارة الموستيرية وتمتاز آثارها بأن بعضها وجد فى المواد الرسوبية فى العراء والبعض الآخر وجد فى الكهوف

٣) الحجرى القديم الأعلى ويشمل باقى الحضارات وتمتاز آثارها بأنها كلها كشفت فى الكهوف فيما عدا الحضارة السولترية .

ربط هذه الحضارات بالفترات الجليدية والفترات الدفيئة :

إذا أردنا ربط هذه الحضارات بالفترات الجليدية الأربعة (جنز ومندل ورس وفرم) والفترات الدفيئة التى تخللتها نجد أمامنا عدة آراء مختلفة نلخصها فيما يلى :

أولا : لوحظ فى وادى السوم فى شمال فرنسا — حيث توجد أحسن نماذج الحضارة الشيلية — أن الآلات الشيلية توجد مع بقايا حيوانات من التى تألف الدفء كالفيل والنمر والخرتيت وفرس الماء . ثم وجد فوق هذه الطبقة طبقة أخرى تضم آلات أشولية ومعها بقايا حيوانات من التى تألف الدفء — متخلفة عن العصر الشيلى — مختلطة بحيوانات جديدة من التى تألف البرودة مثل الماموث . ثم وجد

فوق هذه الطبقة طبقة ثالثة تضم آلات موستيرية ومعها بقايا حيوانات تدل على أن الجو أصبح بارداً تماما مثل حيوان الرنة .

آلات موستيرية مختلطة بحيوانات باردة

آلات أشولية مختلطة بحيوانات دفيئة وباردة

آلات شيلية مختلطة بحيـــوانات دفيئة

شكل (٦) يوضح ترتيب الطبقات فى وادى السوم بشمال فرنسا

ثانيا : لوحظ فى وادى الأين فى شرق فرنسا أن الآلات الشيلية والأشولية توجد فوق ركامات الفترة الجليدية الثالثة (فترة رس) أى أن هاتين الحضارتين جاءتا بعد انتهاء فترة رس الجليدية وشغلتا الفترة الدفيئة التالية لها كما لوحظ أن الحضارة الشيلية شغلت أدفأ أجزاء هذه الفترة غير الجليدية وأن الأشولية وجدت حينما أخذ جليد الفرم فى الاقتراب وأن الحضارة الموستيرية وجدت حينما حل جليد الفرم فعلا . وبمقارنه ترتيب الطبقات فى وادى الأين بترتيبها فى وادى السوم نجد أنهما متفقان .

.....جليـــد فرم.....

.....حضارة موستيرية .....

حضارة أشولية

حضـارة شيلة

.....جليز رس .....

شكل (٧) يوضح ترتيب الطبقات فى وادى الأين بشرق فرنسا

ثالثا : ظهر فى ألمانيا رأى مخالف لما سبق وذلك أنه وجد فى توباخ Taubach بالقرب من ڤيمار ثلاث طبقات من الرواسب ، تتكون الطبقة السفلى من حصباء

جليدية ، والوسطى من رواسب بركانية مختلطة بعظام حيوانات من التى تألف الدفء وآلات موستيرية ، والعليا من رواسب بركانية أحدث من السابقة ومختلطة ببقايا حيوانية من التى تألف البرد الشديد . ويرى العلماء الألمان أن الطبقة السفلى هى فترة رس الجليدية وأن الطبقة الوسطى هى الفترة الدفيئة التالية لجليد رس وأن الطبقة العليا هى فترة ڤرم الجليدية . وبناء على هذا تكون الحضارة الموستيرية قد وجدت فى رأيهم فى الفترة الدفيئة التالية لجليد رس وتكون الحضارة الشيلية قد وجدت فى الفترة الدفيئة التالية لجليد منذل .

رواسب جليدية (ڤرم)

حضارة موستيرية

رواسب جليدية (رس)

حضارة شيلية

رواسب جليدية (منذل)

شكل (٨) يوضح ترتيب الطبقات فى توباخ بألمانيا

ويتوسط الأستاذ سولاس Sollas بين الرأى الفرنسى والرأى الألمانى فيجعل ارتباط الحضارات بالعصور الجليدية — بناء على دراسة مدرجات السوم دراسة أوفى من — على النحو الآتى :

جليد ڤرم

حضارة موستيدية

حضارة أشولية

حضارة شيلية ارقى

جليد رس

حضارة شيلية

جليد مندل

حضارة ما قبل الشيلية

جليد جنز

لا توجد آلات

(شكل ٩) يوضح ترتيب الطبقات فى وادى السوم بشمال فرنسا

ويظهر أن الإختلاف بين رأى الكتاب الألمان وبين رأى الكتاب الفرنسيين نشا من أن الحضارة الموستيرية وفدت من الشرق ولذلك وجدت فى ألمانيا فى وقت سابق لوجودها فى فرنسا، ويمكن القول أن الحضارة الموستيرية وجدت فى ألمانيا فى وقت وجود الحضارة الأشولية فى فرنسا أى حينما كان المناخ دفيئاً فى الفترة الدفيئة الفاصلة بين جليد رس وجليد ڤرم، ثم لما انتقلت الحضارة الموستيرية غرباً إلى فرنسا كان جليد ڤرم قد اقترب ولذلك عاصرت هذه الفترة الباردة فى أوائلها .

مظاهر حضارة الانسان

فى العصر الحجرى القديم

أولا : العصر الحجرى القديم الأسفل

الحضارة الشيلية : قلنا أنه وجدت قطع حجرية سابقه فى الزمن الآلات الشيلية . وهى قطع من الصوان مسطحة الشكل بحافاتها حزات دائرية وليس لها شكل معين مما يرجح أنها من عمل الطبيعة وليس من عمل الإنسان . على أن هذا لا يمنع من أن يكون الإنسان قد وجد فى هذه الفترة واستخدم هذه القطع الطبيعية فى أغراض الصيد والقتال وغير ذلك من أساليب حياته . ويطلق على هذه المرحلة اسم فجر العصر الحجرى eoliths

ننتقل بعد ذلك إلى الموحلة الشيلية وهى المرحلة التى وجدت فيها آلات حجرية لا يشك فى نسبتها للانسان . على أن هذه الآلات التى من صنع الإنسان مرت بدورها فى مراحل من التطور فكانت فى المبدأ كبيرة الحجم غير متقنة الصنع ويطلق على هذه المرحلة الحضارية اسم ما قبل الشيلية

ثم دق حجم الآلة نوعاً وازداد اتقان صنعها وإن كان شكلها العام لم يتغير وهذه هى المرحلة الشيلية الصميمة .

ومعظم الآلات الشيلية من النوع المعروف بالفأس اليدوية coups de poing , axe والشكل السائد من الفأس مايشبه الكمثرى أى أنها مدببة فى أحد طرفيها ومستديرة فى الطرف الآخر، وأما جوانبها فحادة وغير منتظمة ويترك جزء من القشره الطبيعية للصوان فى أسفلها (شكل ١٠) وتتوقف درجة إتقان الآلة على مقدار وجود هذه القشرة الطبيعية ،فالآلات التى يوجد عليها جزء كبير من هذه القشرة تعتبر غير

متقنة الصنع ، وكلما زاد إتقان صنع الآلة قلت القشرة الأصلية عليها وأصبحت حافاتها أكثر إنتظاماً كما أن تشذيبها يكون أدق .

وكانت الآلات الشيلية تصنع من النواة أى أن كتلة الصخر نفسها تشكل

(شكل ١٠) فاس شيلية

وتشذب حتى تصبح الآلة المطلوبة ولذلك تطلق على هذه الصناعة صناعة النواة أو آلات النواة core - implements

وأقدم الآلات التى لا يشك فى نسبتها الإنسان هى الآلات الشيلية . وما يميز الآلات الحقيقية عن الصوان المتكسر بفعل الطبيعة هو أن الآلات التى من صنع الإنسان يوجد بينها تشابه ويوجد فيها تناسق يستحيل أن يكون من عمل الطبيعة .

وكان إنسان الحضارة الشيلية يأخذ كتلة الصوان ويهذبها بمطرقته التى كانت عبارة عن قطعة كروية من الحجر الصلب hammer-stone فيطرق بها حافات الصوان بعناية من أحد وجهيها ثم يقلبها على الجانب الآخر ويطرق حافاته كذلك حتى يتم تهذيبها ، وتمام تهذيب الآلة عند الإنسان الشيلى هو أن يصبح حوالى ثلثى محيط قطعة الصوان حادا كالمبراة . ولكن إذا نظرنا إليها من الجانب نجد حافاتها متموجة لأن الصانع الشيلى لم يكن قد اكتسب المرانة الكافية للسيطرة على قطعة الصوان حتى يخرج حافاتها تامة الاستقامة . وأما الثلث الباقى من قطعة الصوان فيترك مستديرا فى الغالب لكى تتمكن اليد من القبض عليه .

والفأس اليدوية التى على شكل الكمثرى موجودة بكثرة فى كل المحطات الشيلية وهى كبيرة الحجم يتراوح طولها بين أربع بوصات واثنتى عشرة بوصة وهى على العموم سميكة غير متقنة التهذيب ولا تامة التشذيب حتى أن حافتها القاطعة تكون على شكل خط متعرج .

ومن الآلات الشيلية — غير الفأس اليدوية — المكشط scraper وهو قطعة مستديرة من الصوان كانت تستعمل لقطع اللحم وكشط الجلد تمتاز بحافتها الحادة المستقيمة .

ومن الآلات الشيلية كذلك المثقاب borer الذى لا يختلف عن الفأس إلا فى أنه أضيق وأطول كما أنه أحدث منها فى الزمن .

ولكن على العموم لا نجد فى الحضارة الشيلية تنوعا كبيرا فى شكل الآلات ولا تخصصا فى أغراض استعمالها بل كانت الالة الواحدة تستخدم فى عدة أغراض ولا شك أنه كان من الأمور الشاقة على إنسان هذا العصر الصياد المتجول أن يحمل عددا كبيرا من هذه الالات الثقيله التى كانت كل آلة منها تستخدم فى رمية واحدة.

إنسان الحضارة الشيلية : أقدم بقايا بشرية معروفة لنا هى ما يسمى إنسان بلتدون نسبة إلى بلدة بلتدون Piltdoun فى مقاطعة Sussex بجنوب شرق انجلترا إذ وجد فى هذه البلدة غطاء جمجمة وفك بشريان فأما الغطاء فسميك وأما الفك فهو يشبه فك الشمبانزى غير أن الأسنان تشبه أسنان البشر باستثناء الناب فهو كبير . وربما هذا الإنسان أو مايشبهه هو صاحب الحضارة الشيلية .

شكل (١١) توزيع الحضاره الشيلية

ولقد عاش الإنسان الشيلى فى مناطق قليلة فى أوروبا فى فرنسا وانجلترا واسپانيا والبرتغال وبلجيكا وإيطاليا (انظر شكل ١١) .

وآلاته الصوانية التى جمعت من كل هذه الأماكن متشابهة مما يرجح أن طريقة صنعها نشأت فى مكان واحد ثم انتشرت منه إلى سائر هذه الأماكن ، أى أنه وجد مخترع واحد اخترعها فى مكان واحد ثم انتقل اختراعه إلى الأماكن الأخرى .

والإنسان الشيلى كان صياداً يعيش فى العراء لأن المناخ فى عصره كان دفيئا لم يلجئه إلى سكنى الكهوف . ولعل ما يظهر من أن انتشاره كان ضيقا يرجع إلى قلة عدد الناس فى هذا العصر ، أو يرجع إلى أنه كان متجولا لا يمكث كثيرا فى المكان

الواحد وبذلك لم يكن يترك آثاراً فى كثير من الأماكن التى مر عليها بالفعل بل لعل ضيق انتشاره يرجع إلى العاملين معا.

وأصل الإنسان الشيلى غير معروف بالضبط ولكن طريق دخوله إلى أوروبا يمكن تحديده ، فالمعروف حتى الان أنه لم تكتشف محطات شيلية فى وسط أوروبا وشرقها وعلى هذا يمكن القول أنه لم يدخل أوروبا من هذا الطريق ولم يمر على وادى الدانوب فى وصوله إلى غرب القارة . وكذلك لم تكتشف إلا محطة شيلية واحدة فى شمال إيطاليا ولذلك يستبعد مجيئه من المعبر الأرضى الصقلى وهو المعبر الذى يصل تونس بصقلية بأيطاليا والذى كان يابسا فى فترة هذه الحضارة . لم يبق أمامنا إلا طريق جبل طارق فهو الطريق الذى يرجح أن الإنسان الشيلى سلكه حاملا حضارته من شمال أفريقية إلى غرب أوروبا مخترقا اسپانيا أولا ثم فرنسا إلى انجلترا وبذلك يكون قد سلك الوادى الخصيب الذى كان بين فرنسا وانجلترا وهو الوادى الذى يشغله القنال الإنجليزى فى الوقت الحاضر . وربما كان الدافع الأساسى لانتقال هذا الإنسان هو البحث عن مناطق صيد يكون حجر الصوان قريبا منها .

الحضارة الأشولية :

لا يوجد فاصل تام بين الطريقة الشيلية وبين الطريقة الأشولية فى شطف الصوان مما يدل على أن الحضارة الأشولية عبارة عن تطور للحضارة الشيلية وعلى أن الإنسان الأشولى استنبط طريقته من الإنسان السابق له .

على أن الحضارة الأشولية تدل على تقدم كبير فى صناعة الآلات الصوانية . وربما مرجع ذلك إلى هجرة صناع مهرة إلى أوروبا ولعل انتشار المحطات الأشولية يؤيد فكرة هجرة أناس جدد إلى هذه القارة كما يدل على زيادة عدد السكان وعلى سكنى مناطق جديدة لم تكن قد سكنت من قبل .

ومظهر التقدم فى صناعة الصوان التى أظهرها الإنسان الأشولى هو أنه لم يكتف — كما كان يفعل سلفه — بتهذيب حافة الصوان لجعلها حاده بل كان يهذب سطح القطعة

الصوانية كلها حتى يجعل شكلها متناسقاً، ثم يهذب بعد ذلك الحافات لكى يجعلها حادة منتظمة فهى بذلك تختلف عن الحافات المتعرجة الموجودة فى الآلات الشيلية. (أنظر شكل ١٢)

وهذه الحافات الحادة فى الآلات الأشولية لم تجعل من الضرورى أن يكون حجم قطعة الصوان أو وزنها كبيراً ومعنى هذا أن حجم الآلة الصوانية كان يقل كلما زاد إتقان صنعها وبذلك سهل حمل عدد كبير منها .

ومعظم آلات هذه الحضارة كانت تصنع - على مثال الحضارة الشيلية - من النواة core implements ولكن بدأت الآلات المصنوعة من الشظايا flake implements فى الظهور ، ومعنى هذا أن الإنسان بدأ يصنع بعض آلاته من شظايا يفصلها عن الكتلة الأصلية للصخر كما وجد فى هذه الحضارة آثار ضئيلة من آلات خشبية وعظمية .

شكل (١٢) مثال من الآلات الأشولية

ولقد استمر وجود الفأس اليدوية فى الحضارة الأشولية ولكنها أصبحت ذات شكل بيضاوى بمعنى أن طرفها المدبب أصبح على هيئة طرف الأزميل . كما أصبحت الفأس أصغر حجما وقلت القشرة فى أسفلها حتى اقتصرت على أفريز بسيط يحيط بقاعدة الآلة وبذلك أمكن القول أن الصناعة الأشولية عبارة عن تحسين فى الصناعة الشيلية .

ولقد كانت الشظايا الأشولية كبيرة الحجم ، ومن أشهر أنواعها الصناعة الكلاكتونية بانجلترا (Clactonian industries) التى توجد فى نفس طبقات الحصباء مع الفأس اليدوية . ومن أنواعها كذلك الصناعة المسفينية (Mesvenian) فى بلجيكا واللفلوازية (Levalloisian) فى فرنسا فهذه كلها صناعات ترجع للحضارة الأشولية وتمتاز بوجود آلات من الشظايا على شكل مكاشط غير متقنة وعلى شكل آلات مدببة كالمثقاب .

إنسان الحضارة الأشولية :

وجد فك بشرى فى رمال ماور بالقرب من هيدلبرج بألمانيا . وقد وجد هذا الفك تحت طبقات اللويس القديمة التى تكونت من أرساب الريح لذرات الرمال أثناء فترة الاستبس الجافة التى سبقت جليد فرم ومعنى هذا أن رمال ماور التى كشف فيها فك هيد لبرج يرجع تاريخها إلى الفترة غير الجليدية التى سبقت جليد الفرم ، وتؤيد هذه الحقيقة بقايا الحيوانات التى تضمها هذه الطبقات فهى من الأنواع التى تألف الدفء وعلى هذا يمكن القول أن إنسان هيدلبرج هو صاحب الحضارة الأشولية .

ولما دخل الإنسان الأشولى أوروبا كان الجو لا يزال دفيئاً ورطباً ولكنه أخذ فى البرودة والجفاف بالتدريج . وكانت الرياح العليا الشرقية تهب على أوربا حاملة سحبا من الأتربة وقد تراكمت هذه الأتربه فى طبقات سميكة وفى مساحات واسعة من القارة وهى الطبقات التى نطلق عليها إسم اللويس .

وقد وجدت الآلات الأشولية فى الأجزاء السفلى من طبقات اللويس وهذا يدل على أن الإنسان الأشولى كان يعيش فى العراء رغم هبوب الرياح الشرقية الشديدة. ولا بد أن المناخ كان يتنوع من مكان لاخر كما هو الحال الآن لأنه بينما كانت توجد الآثار الأشولية فى بعض الأماكن مختلطة ببقايا حيوانات دفيئة كانت توجد فى أماكن أخرى مختلطة ببقايا حيوانات من ذوات الفراء السميكة التى يظهر

أنها هاجرت من الشمال إلى حيث يقيم الإنسان الأشولى فارة أمام زحف جليد القرم .

ولقد كان الانسان الأشولى صيادا يعرف أحداث النار ويحب سكنى شواطىء الأنهار ـ حيث توجد الآن معظم مخلفاته ـ لأنه على هذه الشواطىء كان يجد الماء والأسماك كما كان يصطاد الحيوانات التى تفد إلى هذه الشواطىء للارتواء . وربما حفزه اقتراب جليد القرم إلى اختراع النار واستعمالها فى الرماد الأشولى بجد أولى بقايا المواقد وهى مواقد قليلة على العموم إذا قيست بمواقد الفترة التالية وهى فترة الحضارة الموستيرية . ولم تكن قسوة المناخ من الحدة بحيث تلجئه إلى سكنى الكهوف بل كان الإنسان الأشولى يعسكر فى العراء وينتقل بحرية باحثاً عن رزقه ومن الجائز أنه كان يحتمى من الرياح البارده بإقامة ستار من المواد الطبيعية التى فى متناول يديه كأغصان الأشجار وغيرها .

ثانياً : العصر الحجرى القديم المتوسط

الحضارة الموستيرية : تختلف الحضارة الموستيرية عن الحضارتين السابقتين - اللتين تؤلفان العصر الحجرى القديم الأسفل — فى عدة وجوه مما يبرر وضعها فى مرتبة حضارية مستقلة يطلق عليها العصر الحجرى القديم المتوسط .

فمن حيث الصناعة نجد معظم الآلات الموستيرية من الشظايا ونجدها تصنع بواسطة تشكيل الالة على الكتلة الصوانية ثم فصلها بضربة واحدة ، ثم بعد ذلك تشظى حافاتها، ولانجد فى هذه الصناعة إلا آلات قليلة من النواة (أنظر شكل ١٣) .

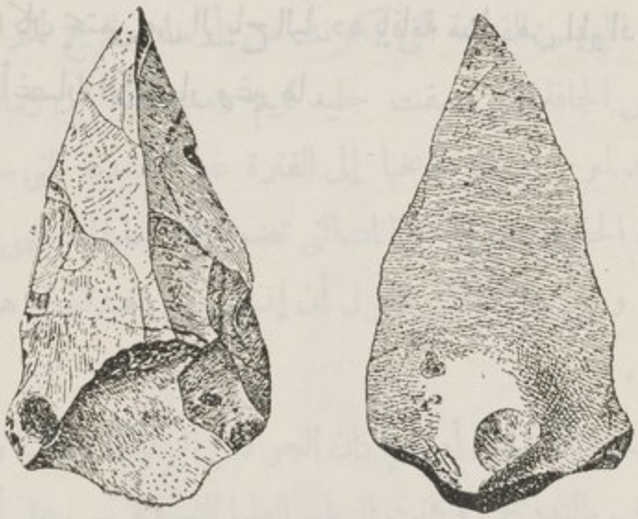

شكل (١٣) مثال من الآلات الموستيرية

وأشكال الشظايا الموستيرية عديدة فمنها المكاشط الجانبية أى التى شظيت من أحد جانبها فقط فأصبح حادا بينما ترك الجانب الآخر بدون تشظية . ومنها الالات المدببة الأطراف التى كانت تستعمل كرءوس للحراب .

وقد أدى ظهور هذين النوعين — المكشط ورأس الحربة — إلى تضاؤل شأن الفأس إذ حلت الآلات الجديدة محل الفأس فى الصيد والقتال . وفيما عدا هذه الآلات الحجرية كانت توجد فى الحضارة الموستيرية آلات مصنوعة من العظم والخشب .

إنسان هذه الحضارة : كشفت جمجمة فى كهف La Chapelle aux Saintes فى مقاطعة كوريز Corrêze فى فرنسا كما وجد فى نفس الوقت بقايا بشرية فى نياندرتال بألمانيا ثم تعددت البقايا البشرية التى من هذا النوع فى جهات كثيرة من غرب أوروبا وقد تبين من بحثها أنها لجنس بشرى واحد اطلق عليه اسم إنسان نياندرتال. وقد وجد أنه حيثما وجدت آلات حجرية مع إنسان نياندرتال فإنها من النوع الموستيرى الصرف كما أنه حيثما وجدت بقايا بشرية مع الآثار الموستيرية فإنها تكون من نوع إنسان نياندرتال وعلى هذا أصبح من الثابت أن هذا الإنسان هو صاحب الحضارة الموستيرية .

ويندر أن نجد الحضارة الموستيرية فى العراء لأن المناخ كان قد برد فلجأ إنسان نياندرتال إلى سكنى الكهوف ولهذا السبب عرفنا الكثير عن حضارته فعرفنا أنه كان يصطاد الحيوانات الكبيرة فيقتات من لحمها بعد أن يشويه على النار

ومن الأشياء التى عرفت عن الإنسان الموستيرى أنه كان يدفن موتاه فقد وجد فى كهف La Chapelle aux sainte هيكل بشرى موضوع بعناية فى حفرة خاصة ولم توجد بالكهف آثار النار مما يرجح أنه لم يستخدم للسكن وأنما خصص لدفن الموتى . وقد وجد مع الهيكل السابق بعض آلات موستيرية مما يبعث على الظن بأن الإنسان الموستيرى كانت عنده فكرة عن الحياة الأخرى فاعتقد فى البعث والنشور ولذلك وضع معه ذووه بعض الآلات الدنيوية لإستعمالها بعد أن يبعث فى الحياة الأخرى .

ويظهر أن معظم انسان نياندرتال صاحب الحضارة الموستيرية ظل مقيما فى كهوفه فى غرب أوربا اثناء اشتداد جليد الفرم ، على أن بعضه هاجر إلى افريقية فى هذه الفترة عن طريق جبل طارق ومالطة وصقلية بدليل وجود البقايا الموستيرية فى شمال أفريقية وانتشارها فى وادى النيل وربما وصل هذا الانسان ـ المتراجع أمام اشتداد البرودة ـ حتى أواسط افريقية . (انظر شكل ١٤)

ولم يكن الانسان الموستيرى يعيش فى العراء ، ولم يكن يحى حياة تجوال بل تكدس فى الكهوف وقد ساعدت هذه الحياة الكثيفة المشتركة على رقيه الاجتماعى وعلى تقدمه فى التفكير . كما أن الصناعة تطورت فى هذه الحضارة تبعا لتغير المناخ ولمطالب الحياة الجديدة كصنع الملابس من الجلود اتقاء للبرد .

وتدل الصناعة الموستيرية على أن الانسان فى هذه الحضارة أصبح أقل فى حجمه وأضعف فى قوة عضلاته وذلك نتيجة لتحوله من المعيشة الحرة فى الهواء الطلق إلى التكدس فى الكهوف . ولقد تبع هذا تغير فى حجم الآلات فأصبحت صغيرة الحجم .

شكل (١٤) يبين توزيع الحضارتين الموستيرية والعاطرية

وتعتبر بعض مظاهر الحضارة الموستيرية تطوراً من الحضارة الأشولية فمعظم الآلات الموستيرية من حجر الصوان كالحضارة السابقة وأن كان مظهرها الخارجى قد تطور تبعاً لمقتضيات الحياة الجديدة . بل أن انسان نياندرتال صاحب الحضارة الموستيرية يمكن أن يعتبر متطوراً من انسان هيد لبرج صاحب الحضارة الأشولية فقد وجد أنه أذا ركب فك هيد لبرج على الجمجمة الموستيرية المكتشفة فى Chapelle aux Saintes لصلح لها وانطبق عليها ولو أنه يكون كبيرا بعض الشىء .

ثالثاً : العصر الحجرى القديم الأعلا

أهم الفروقات بين الحجرى القديم الأوسط وبين الحجرى القديم الأعلا ما يأتى :

١ — آلات الحجرى القديم الأعلا أخف وأدق فى التشظية .

٢ — تتعدد فى هذا العصر نماذج الالات كما تتعدد أنواع المواد التى تصنع منها

٣ — يظهر فى هذا العصر الفن كنحت الحجارة ونقش الجدران وتشكيل التماثيل من العاج وعمل الحلى كالعقود وغيرها .

٤ — يظهر فى هذا العصر الإنسان العاقل Homo - Sapiens وهو الإنسان الحديث Neanthropic race . أما الإنسان القديم وهو نياندرتال فقد إنقرض تماماً

وعلى العموم يمكن القول أن الحجرى القديم الأعلا يختلف فى صناعاته وأجناسه عن الحجرى القديم الأسفل والمتوسط وأنه لم يكن هناك تطور تدريجى بين الحضارة الموستيرية وبين الحضارة الأورينياسية . وكما سمى الحجرى القديم الأسفل عصر صناعة النواه وسمى الحجرى القديم الأوسط عصر صناعة الشظايا يسمى الحجرى القديم الأعلا عصر صناعة المحتات Gravers or burins industry

وأهم الحضارات التى تنتمى إلى هذا العصر مايلى :

الحضارة الأورينياسية : تنسب هذه الحضارة إلى كهف أورينياك Aurignac حيث وجدت طبقة تحتوى على أنواع جديدة من الالات فوق الطبقة التى تضم آثار الحضارة الموستيرية

ولقد ظهرت الحضارة الأورينياسية حينما أخذت ذبذبة آخن فى التراجع (بين ڤرم ١ ، ڤرم ٢) أى أن الظروف المناخية كانت باردة لأن فترة آخن ولو أنها فترة تراجع فى الجليد إلا أنه لايمكن أن تعتبر فترة دفيئة . ولقد اعتدل المناخ بعض الشىء فى منتصف هذه الذبذبة ولكن فى أواخرها عاد المناخ إلى حالة البرودة

الشديدة ومعنى هذا أن المناخ فى أواخر الحضارة الأورينياسية كان سائرا نحو البرودة الشديدة كما كان سائراً نحو الجفاف فى نفس الوقت كما تدل على ذلك بقايا الحيوانات التى من بينها الغزال الأحمر .

شكل (١٥) توزيع الحضارتين القفصية والأورينياسية

ولقد ظهرت فى شمال إفريقيا حضارة شبيهة بالحضارة الأورينياسية الأوروبية وسابقة لها فى الزمن وتسمى هذه الحضارة الأفريقية بالحضارة القفصية نسبة إلى

شكل (١٦) أسلحة من فترة أودى

بلدة قفصة فى إقليم قسطيلة شمال شط الجريد فى تونس وكان أصحاب هذه الحضارة يصنعون آلات من الصوان طويلة ورفيعة وقد وجدت هذه الالات منتشرة على

طول الشاطىء الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط وخاصة فى المنطقة بين تونس ومراكش. (انظر ١٥ شكل) ومعظم الآلات الأورينياسية مصنوع من الشظايا وقليـــل منها ما هو مصنوع من النواة . والشظايا الأورينياسية طويلة وضيقة ورفيعة ومصنوعة باتقان وتمتاز الالات التى ترجع للفترة الأولى من هذه الحضارة بأنها ذات سن محنى ويطلق عليها اسم Audi Points (انظر شكل ١٦) وتحمل هذه الفترة بعض تأثيرات الحضارة الموستيرية مما قد يشير إلى أن أصحاب الحضارة الأورينياسية اتصلوا فى مبدأ الأمر بأصحاب الحضارة

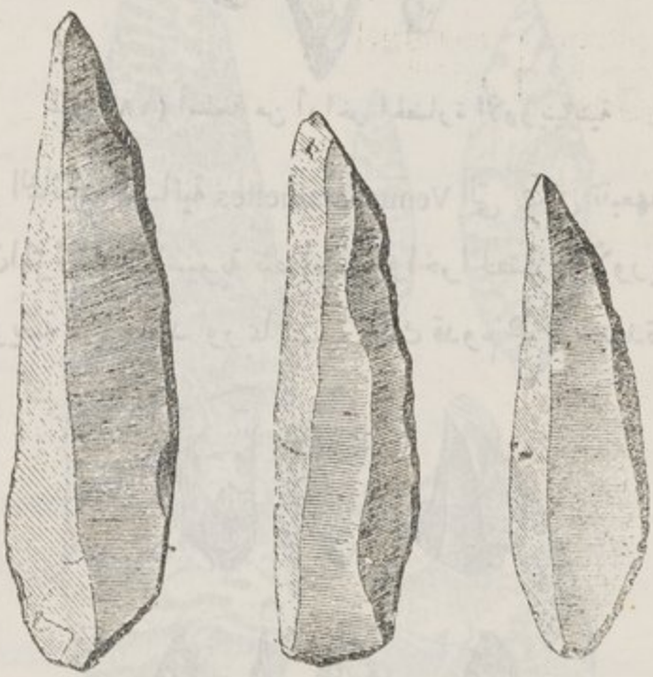

شكل (١٧) يبين أسلحة أورينياسية

الموستيرية فنقلوا عنهم بعض صناعاتهم ولا يعرف مكان هذا الاتصال بالضبط هل هو فى شمال أفريقية أو إيطاليا أو فرنسا ؟ على أنه ليس من الضرورى أن يكون الاتصال البشرى سبب التشابه بين الحضارتين فمن الجائز أن يكون الإنسان الأورينياسى شاهد الالات الموستيريه فقط ولم يشاهد انسانها . ثم بعد فترة أودى Audi تختفى التأثيرات الموستيريه وتسود الأورينياسية الصرفة (انظر شكلى ١٧ ، ١٨)

وفيما يختص بمصدر الحضارة الأورينياسية يمكن تتبع آثار هجرتين إلى أوروبا إحداهما من أفريقية والثانية من آسيا . والهجرة الأفريقية أسبق فى الزمن بدليل

ما ذكرناه من وجود شبه بين الحضارة القمصية وبين الحضارة الأورينياسية ثم تلتهما الهجرة الأسيوية فأدخلت مظاهر جديدة إلى هذه الحضارة لم توجد بالحضارة

شكل (١٨) أسلحة من أواخر الحضارة الأورينياسية

الأفريقية مثل التماثيل النسائية Venus statuettes التى يمكن تتبعها حتى أواسط سيبريا . غير أن المؤثرات الآسيوية تتضاءل فى أواخر الحضارة الأورينياسية وتقوى المؤثرات الأفريقية من جديد وربما سبب ذلك قدوم هجرة جديدة من أفريقيا .

شكل (١٩) أسلحة ذات كعوب من أواخر الحضارة الأورينياسية

وهكذا تمتاز الحضارة الأورينياسية فى أوروبا عن مثيلاتها فى الجهات الأخرى بعناصر جديدة وافدة من آسيا وأفريقيا .

ومن حيث تطور الصناعة فى هذه الحضارة نلاحظ أنه فى منتصفها تكثر

المكاشط ذات الكعوب kealed scraper المصنوعة من النواة فى الغالب (انظر شكل ١٩) كما يظهر المنحت أو المبراة graver وكذلك تنتشر الآلات العظمية فى نفس الوقت . ثم فى أواخر هذه الحضارة تزيد نسبه الآلات العظمية عن الالات الصوانية

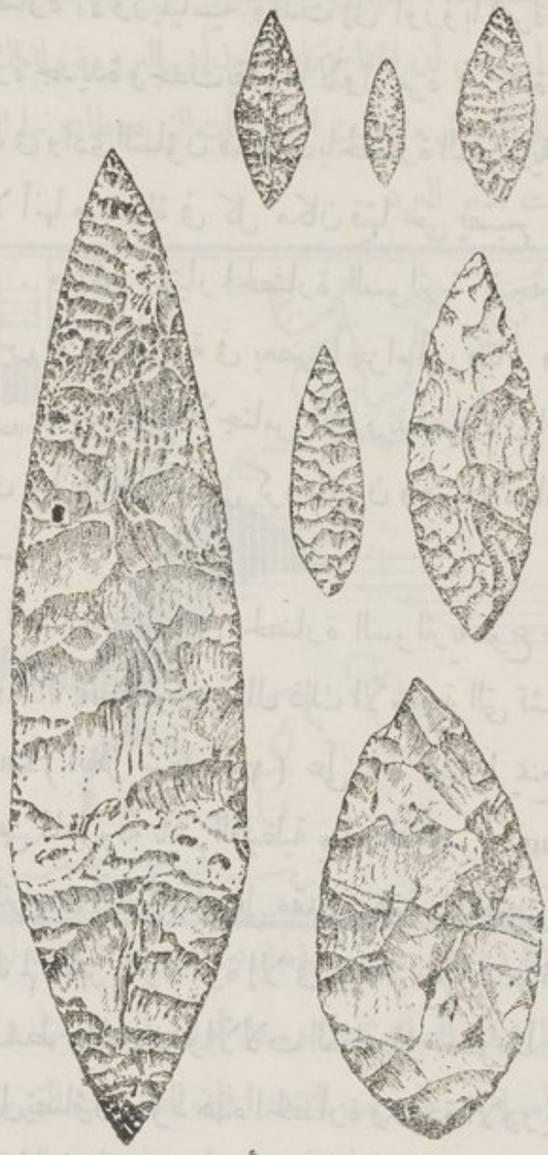

شكل (٢٠) يبين أسلحة سولترية

ويستمر وجود المنحت وتتعدد أشكال الالآت وتظهر التماثيل المصنوعة من سن الماموث ومن الحجارة وتوجد منتشرة فى غرب أوروبا ووسطها وشرقها وكذلك فى وسط سيبريا . كما لونت المقابر باللون الأحمر ووجدت أعناق الهياكل البشرية مزينة بعقود من الصدف

وتدل آثار الحضارة الأورينياسية على أن الإنسان فى هذا العصر كان منتشرا فى قارات العالم القديم الكبرى آسيا وأفريقيا وأوروبا .

الحضارة السولترية :

فى أواخر الحضارة الأورينياسية وفدت إلى أوروبا هجرة جديدة من الشرق فأقامت دعائم حضارة جديدة وجدت بقاياها لأول مرة فى بلدة سولترى Solutrê بالقرب من ماكون فى وادى الساؤن فسميت بالحضارة السولترية . وآلاتها مصنوعة أيضا من الشظايا ألا أنها مشغولة فى كل مكان فيها حتى يصبح منظرها عبارة عن آلة رفيعة من النواة . ويمكن اعتبار الحضارة السولترية نتيجة قدوم طبقة حاكمة فقط سادت الأجناس الأورينياسية فى بعض أجزاء أوروبا . ولا يمكن اعتبارها نتيجة حلول أجناس جديدة محل الأجناس الأورينياسية لأن المقابر السولترية فى غرب أوروبا تحوى هياكل من جنس كرومانيون وهو الإنسان الذى تعزى إليه الحضارة الأورينياسية .

وأما من حيث الصناعة فيظهر فى الحضارة السولترية نوع جديد من النشظية بواسطة الضغط pressure flaking ومثال ذلك الأسلحة التى تشبه ورق الصفصاف Laurel - leaf blades (انظر شكل ٢٠) على أن هذا لم يمنع استمرار طريقة النشظية القديمة . وهى المعروفة باسم النشظية بواسطة الضرب Strike - flaking

ولم يترك السولتريون آثاراً تدل على مقدرة فنية بل اقتصرت صناعاتهم على بعض آلات جديدة لم تظهر لأول مرة إلا فى عهدهم مع استمرار وجود الالات الأورينياسية كالكشط والمنحت والألات العظمية وخصوصاً فى أواخر الحضارة السولترية مما يشير إلى تضاؤل نفوذ هذه الحضارة وعودة الأورينياسية إلى الظهور من جديد فى شكل الحضارة التى سنعرفها تحت إسم المجدلينية .

ولقد وجدت الحضارة السولترية نقية فى بعض الجهات التى لم تكن فيها الحضارة الأورينياسية من قبل بينما وجدت مختلطة ببعض مميزات أورينياسية فى بلجيكا وشمال فرنسا . ولم توجد آثار سولترية فى أقاليم الألب بوسط أوربا لأن السولتريين .

كانوا يفضلون سكنى السهول ولا يرغبون فى التوغل فى الجبال ولذلك لم يعبروا البرانس إلا فى جزء ضئيل جدا حيث وصلوا قلنسية كما لم يعبروا الألب إلى الجنوب فلم توجد لهم بقايا جنوب هذه الجبال كالر يفيرا أو إيطاليا .

وفيما يختص بربط هذه الحضارة بالعصور الجليدية يمكن وضعها حينما أخذ جليد ڤرم فى الاقتراب أى أن المناخ كان آخذاً فى البرودة ولذلك عاد أصحاب هذه الحضارة أدراجهم إلى الشرق متعقبين الحيوانات التى يصطادونها التى هاجرت بدورها إلى الشرق لما أحست بدنو البرد .

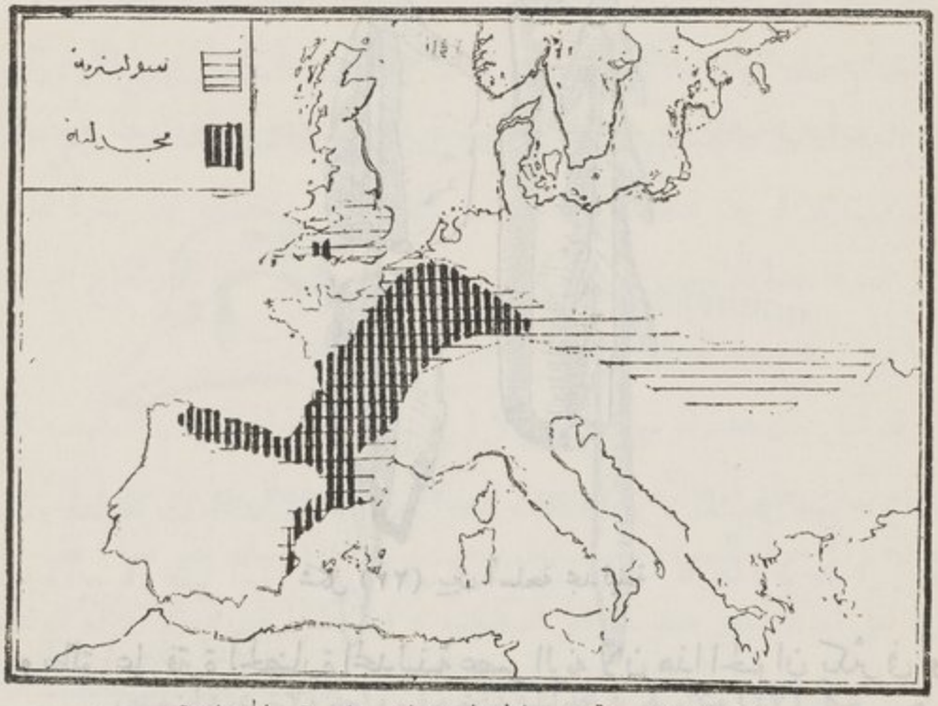

شكل (٢١) يبين توزيع الحضارتين السولترية والمجدلينية

وإذا كانت الظروف السائدة فى وسط أوروبا وغربها فى القسم الأول من الحضارة الأورينياسية هى ظروف التندرا فإن الظروف التى سادت هذه الجهات فى القسم الأخير من هـــذه الحضارة ثم فى الحضارة السولتيرية هى ظروف الاستپس الباردة الجافة .

الحضارة المجدلينية :

لما عاد السولتريون إلى الشرق ظهرت الحضارة الأورينياسية مرة أخرى ولكن

فى صورة جديدة تعرف باسم الحضارة المجـــدلينية نسبة إلى كهف لا مادلين La Madelene فى الدردنى حيث وجدت الرواسب التى تضم الاثار المجدلينيه فوق الرواسب التى تضم الآثار السولترية .والآلات المجدلينية عبارة عن استمرار للآلات الأورينياسية ولاتحمل من الصفات السولترية شيئا .

ولقد استمرت الأورينياسية قائمة فى الأماكن التى لم تدخلها السولترية ولذلك نجد فى بعض جهات غرب أوروبا حضارة أورينياسية معاصرة للحضارة السولترية

شكل (٢٢) يبين أسلحة مجدلينية

ويطلق على فترة الحضارة المجدلينية عصر الرنه لأن هذا الحيوان يكثر فى أولها ويتوغل للجنوب حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط بينما يقل الغزال الأحمر بسبب اشتداد البرد ولـكن فى أواخر هذه الحضارة ينعكس الوضع ويكثر الغزال الأحمر مما يدل على ظهور الدفء،وكذلك انتشرت الغابات فى أواخر هذه الحضارة بسبب ظهور الدفء أيضاً .

وأما من حيث الصناعة فى هذه الحضارة فنجد أن التشظية بواسطة الضغط غير موجودة كما تقل الأسلحة الصوانية وتكثر الآلات العظمية والالات المصنوعة من القرون التى وصلت إلى درجة كبيرة من الإتقان فى أواخر هذه الحضارة .

وقد وجدت فى أوائل المجدلينية الآلات الشبيهة بالأوريناسية كالمكشط Scraper والمنحت Graver والمخراز Awl (أنظر شكل ٢٢) ثم فى وسطها تظهر الحربة ذات الصف الواحد من الأسنان ثم فى نهايتها تظهر الحربة ذات الصفين (أنظر شكل ٢٣)

ومن الآلات التى تمتاز بها هذه الحضارة العصاة المسماة عصى الرياسة Baton de commandement التى كانت تصنع من قرون الرنه ولها ثقب فى طرفها. ولا يعرف بالضبط الغرض من صنعها فربما كانت مجرد عصى يحملها رئيس الجماعة

شكل (٢٣) مثال لحربة مجدلينية ذات صف واحد ولأخرى ذات صفين

وربما كانت تستعمل لشد القوس . وبعض هذه العصى مزين بصور حيوانات (أنظر شكل ٢٤)

وتدل البقايا الحيوانية التى ترجع لهذه الحضارة على أن مقدار الرطوبة والتساقط زاد فى أوروبا فى هذه الفترة مما أدى إلى زيادة انتشار الغابات فى السهل الأوروبى وزيادة تراكم الثلوج فى المناطق الألبية ،وتعرف هذه المرحلة فى جبال الألب بتقدم بهل . وكانت الظروف المناخية والنباتية تختلف من مكان لآخر حسب العوامل

المحلية فيستدل من الحيوانات التى رسمها إنسان هذه الحضارة بنفسه على أن ظروف الغابات كانت سائدة فى غرب فرنسا بينما كانت ظروف التندرا سائدة فى شرقها.

وتدل البقايا البشرية على أن الجنس السائد فى هذه الفترة كان جنس كرومانيون ولعله كان يعيش معيشة قريبة الشبه بمعيشة الأسكيمو فى الوقت الحالى. وكذلك تدل هذه البقايا البشرية عن أن الميت كان يدفن بعناية وكانت توضع معه بعض أدوات الزينة فقد وجدت الهياكل محلاة بعقود من الأصداف.

ومن حيث مدى انتشار هذه الحضارة نجد أن آثارها تنتشر فى مناطق واسعة تشمل شمال أسبانيا وفرنسا وبلجيكا والجزر البريطانية ثم شمال سويسرا وألمانيا والنمسا وبولنده وقد وجدت حضارة شبيهة بها فى سيبريا وخاصة فى وادى نهر ينسى

شكل (٢٤) يبين عصا الرياسة

ولقد عبرت المجدلينية البرانس أيضاً متخذة الطريق الشرقى حتى جنوب شبه جزيرة أيبريا ويظهر أنها لم تعبر الألب إلى الجنوب لأن آثارها لم توجد فى إيطاليا.

الفن فى هذه الحضارة:

ويمكننا أن نقسم آثار الحضارة المجدلينية إلى قسمين هما (١) الاثار الثابتة (٢) الآثار القابلة للنقل.

أما الآثار الثابتة ففيها ـ كما كان الحال فى الحضارة الاورونياسية ـ حفر ونقش على جدران الكهوف.

ولكن هناك وجوه اختلاف بين الفن فى كل من الحضارتين وأهم هذه الاختلافات ما يأتى:

أولا: يظهر فى المجدلى تعدد الألوان أى أن جدران الكهوف نقشت بعدة

ألوان بخلاف الحال فى الأورينياسية اذ لم يستعمل فى النقش إلا لون واحد .

ثانياً : يظهر فى المجدلى الشعور الطبيعى فى الفن . ففى أواخر الحضارة الأورينياسية كان الإنسان يرسم الحيوانات على جدران الكهوف فى وضع ثابت دائما لا حركة فيه وأما الانسان المجدلى فكان يرسم حيواناته فى أوضاع مختلفة فبعضها يمشى فى هدوء وبعضها يجرى وبعضها يتعارك وهكذا . كما أنه فى الأورينياسية كان الفنان يرسم كل حيوان على حدة ، وأما فى المجدلية ولا سيما فى أواخرها فقد أصبح الفنان يرسم الحيوانات قطعانا ، وكذلك يظهر فى المجدلية عمل المجسمات من الطفل .

وقد لوحظ أن هذه الأعمال الفنية توجد فى داخل الكهوف على أعماق كبيرة أو على ارتفاعات هائلة حتى ليصعب الوصول إليها فى الوقت الحاضر . ففى بعض الكهوف مثلا توجد النقوش فى السقف الذى يبلغ إرتفاعه ١٧ متراً مما يحتم التسليم بمعرفة هذا الإنسان بوسيلة تمكنه من الوصول إلى هذا الارتفاع ثم معرفته اصطناع نور يضىء له الكهف ليتمكن من عمل رسومه .

وقد قيل بأن هذه الرسوم ماهى إلا زينة يحلى بها هذا الإنسان الكهف الذى يقيم فيه ولكن يظهر أن الأمر كان أخطر من ذلك لأن هذه الرسوم توجد فى الاجزاء الداخلية والاجزاء العميقة من الكهف حيث لم يكن الانسان يقيم فيها ، فقد دلت مخلفاته على أنه كان يقيم عند مدخل الكهف ، ولم يكن يقيم فى الاجزاء الداخلية أو العميقة التى توجد بها النقوش وعلى هذا لابد من التسليم بأن هذه النقوش كانت بقصد الفن للفن أو كانت لغرض دينى .

إذا تركنا الآثار الثابتة وانتقلنا إلى الاثار القابلة للنقل نجد مظاهر جديدة فى المجدلية أهمها ندرة التماثيل النسائية الصغيرة التى تمتاز بها الحضارة الأورينياسية ، وقد حلت محلها فى الكثرة تماثيل الحيوانات المصنوعة من العاج . وفى أغلب الأحيان نجد بهذه التماثيل ثقوبا مما يدل على أنها كانت تعلق فى الرقبة كحلية أو تميمة لمنع المرض والحسد والأرواح الشريرة كما أن بعض آلات هذه الحضارة كانت ذات مقابض على شكل حيوان كالحصان والفيل والثور ومثال ذلك عصى الرياسة وقاذفات السهام

وكان إنسان هذه الحضارة يجمع الحصى الذى يجده على شواطىء الأنهار ويزينه بالرسوم ويقول البعض أن هذا الحصى كان يستعمل بمثابة تسويدة للتمرين على الرسم بدليل أنه كانت توجد عليها عدة رسومات متقاطعة أو فوق بعضها .

وهذه الآثار المنقولة التى ترجع للحضارة المجدلية تكثر فى وسط أوروبا وشرقها عنها فى غرب القارة .

الفصل الثالث

حضارات العصر الحجرى

المتوسط والحديث فى أوروبا

أولا : العصر الحجرى المتوسط

توضع فى العصر الحجرى المتوسط حضارات ثلاث هى الأزيلية والتردنوازية والكمبينية ، وقد أطلق عليه إسم الحجرى المتوسط لأنه عبارة عن فترة انتقال بين الحجرى القديم وبين الحجرى الحديث . ولنتكلم عن كل حضارة على حدة :

الحضارة الأزيلية : تنسب هذه الحضارة إلى كهف Mas d ' Azil فى الأرييج Ariege فى جنوب فرنسا ، ويعتبر بعض العلماء الحضارة الأزيلية حضارة متدهورة لسببين : ١ — أنها محدودة الانتشار بالقياس إلى الحضارة السابقة لها وهى الحضارة المجدلينية فبينما المجدلينية توجد فى شمال أسپانيا وفى فرنسا وانجلترا وجنوب ألمانيا وفى سويسرا والنمسا وبلچيكا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندة فإننا نجد الأزيلية قاصرة تقريبا على شمال أسپانيا وجنوب فرنسا ، وتوجد أثار ضئيلة لها فى سويسرا وبلچيكا وانجلترا . ٢ — أن أثار الحضارة الأزيلية تدل على تدهور صناعة الآلات وفقر الفن .

ومن أهم الآثار الخاصة بالحضارة الأزيلية الحصى المنقوش ، فقد كان إنسان هذه الحضارة يجمع الزلط من مجارى الأنهار وينقش عليها رسومات باللون الأحمر ، وهذه الرسومات بسيطة وذات أشكال متعددة [صليب أو حرف أبجدى أو دوائر أو نقط] . (انظر شكل ٢٥)

ويرى مكتشف هذه الحضارة أن الرسوم الأزيلية بدأ اختراع الحروف الأبجدية ، وحاول أن يوجد صلة بين هـــذه الرسوم وبين الحروف الشرقية

كالهيروغليفية واليونانية والفينيقية . ولكن يظهر أن هذه الصلة غير موجودة بالفعل، لا سيما وأن معظم هذه الرسوم ما هو إلا رسومات مختصرة لجسم الإنسان .

ومن هذه الآثار أيضا نوع خاص من الحربة مصنوع من قرون الغزال ، وهى ليست فى دقة الحربة المجدلينية لأن أسنانها أكبر ، ويلاحظ أن لهذه الحربة ثقبا بيضاويا . ولما كان لبعض الحراب المجديلينية فى شمال أسبانيا مثل هذا الثقب فقد قيل بأن مهد الحضارة الأزيلية شمال أسبانيا .

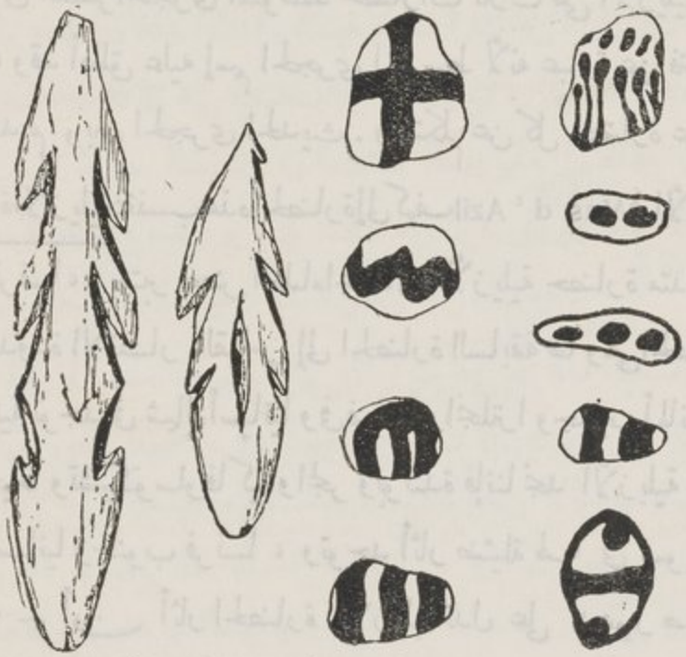

شكل (٢٥) يبين الحراب الأزيلية والحص المنقوش

وأما عن الآلات الصوانية فقد استمر تناقص حجمها فى الحضارة الأزيلية ، ومن أهم الآلات الصوانية الأزيلية المبراة لأن لها شكل السكين الصغير ، كما ظهرت المكاشط الصغيرة بعضها مستدير وبعضها مخروطى ، وكذلك الالات ذات الشكل الهندسى بعضها على شكل قوس وبعضها على شكل مثلث ، كما وجدت بعض الفؤوس المصنوعة من الزلط بتشظية إحدى أطرافها .

ولقد اختفت الحضارة الازيلية ولم تتطور إلى حضارة أخرى .

الحضارة التردنوازية : تنسب إلى Tardenois فى شمال فرنسا وهى فرع من القفصية الحديثه وتشبهها فى أنها حضارة ميكروليثية أى ذات ألات دقيقة (شكل ٢٦) وقد توغلت هذه الحضارة فى أوروبا وشغلت مساحة كبيرة ، فآثارها توجد فى أسپانيا وفرنسا وأنجلترا وبلچيكا وهولندا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر وبولندة ولتوانيا وجنوب روسيا ورومانيا وصقلية وجنوب اليونان ، والاجزاء التى لم توجد فيها هى إيطاليا وشمال أوروبا وخاصة اسكندناوة وشمال روسيا ، ولا يعرف هل توجد فى شبه جزيرة البلقان أولا توجد : وتقسم الحضارة التردنوازية إلى ثلاث درجات : قديمة ووسطى وحديثة :

شكل (٢٦) يبين الآلات القزمية التردنوازية

أما القديمة فهى معاصرة للازيلية وتمتاز بالالآت الصوانية الدقيقة ذات الأشكال الهندسية وخصوصاً المثلثات والأقواس كما توجد فيها بعض الآلات العظمية . وكان الإنسان فى هذه الفترة يفضل سكنى الجهات الرملية .

أما الوسطى فتمتاز بوجود الالات التى على شكل شبه منحرف . ويقال أن هذه الالات كانت تستعمل رؤوس سهام .

أما الحديثة فهى معاصرة للحجرى الحديث فى أوروبا أى أن بعض قبائل الحجرى القديم ظلت تعيش بين زراع الحجرى الحديث كما هو الحال الان فى وسط أفريقيا حيث يعيش الأقزام بجوار الزنوج الزراعيين . وتوجد دلائل كثيرة على أن الشعوب التردنوازية كانت من قصار القامة .

الحضارة الكمبينية : تنسب إلى تل Le Campigny فى مقاطعة السين فى شمال فرنسا وهى تمتاز بظهور الفأس اليدوية من جديد ، ويعلل ظهور الفأس من جديد بتعليلين :

١ — ظهور الزراعة تطلب وجود آلة كبيرة فوجدت الفأس اليدوية، والقائلون بهذا الرأى لايرون أن هناك علاقة بين الفأس الكمبينية وبين فأس الحجرى القديم

٢ — أن الفأس اليدوية استمرت موجودة منذ الحجرى القديم الأسفل حتى الحجرى القديم الأعلا ولكن ظهور الشظايا فى الحجرى القديم الأعلا قلل من شأن الفأس اليدوية ثم استعادت نفوذها فى أواخر الحجرى القديم الأعلا لأن الشظايا أصبحت صغيرة الحجم (ميكروليثية) لاتفى بحاجات الزراعة .

ولقد كانت الحضارة الكمبينية واسعة الانتشار فوجدت فى شمال فرنسا وفى بلجيكا وانجلترا وشمال المانيا وفى جنوب إقليم بحر بلطيق ، كما وجدت فى وسط أوروبا وخصوصاً فى المجر ووجدت أيضا فى إيطاليا .

وتقسم الكمبينية إلى درجتين : القديمة والحديثة .

أما القديمة فتمتاز بظهور نوعين من الفأس اليدوية إحداهما ذات طرف مدبب والأخرى مستطيلة ، كما يظهر فيها الشاطور المصنوع من الصوان أو الكوارتزيت كما تظهر فيها المكاشط ذات العنق وربما عرف الفخار فى هذه الحضارة .

أما الكمبينية فاهم مميزاتها الحضارة المعروفه باسم «بقايا المطبخ» kitchenmidden Culture وتسمى بالدنمركية kokken midding وتوجد فى الدنمرك وجنوب السويد، وهى عبارة عن كميات هائلة من الأصداف ألقيت بعد أكل ما بداخلها من حيوان . ويصل عمق فضلات المطبخ إلى عدة أمتار ، كما يصل طولها إلى ٥٠ متراً، ويظهر أن الناس كانوا يعيشون فى المنطقة الواحدة طول العام معتمدين على مايجمعونه من سمك وقواقع ، وعلى بعض الصيد بدليل ما وجد من قرون الوعول المدفونه بين فضلات المطبخ، بل كانوا يدفنون موتاهم فى نفس أكوام الفضلات .

أما الصناعة فى الكمبينية الحديثه فقد كانت أكثر تقدما عن القديمة ، وتدل على

تاثير قوى من الحجرى الحديث لأن الفؤوس والشواطير أصبحت تصنع بإتقان، وظهرت نماذج جديدة من الصناعة من أهما المشط المصنوع من العظم أو الخشب، وكذلك أصبح الفخار معروفا ؛ فعرفت الأوانى الفخارية البسيطة التى تمتاز بقاعدة مدببة أو مستديرة . ولا توجد على الفخار رسومات غير أثر طبع الأصابع على الحافه ، كما يظهر فى هذه الحضارة نوع جديد من الفأس الحجرية مصنوع من الجرانيت أو الديوريت .

ومن حيث ربط هذه الحضارات بالظروف المناخية توضع السكمبينية القديمة والتردنوازية والأزيلية فى فترة بحيرة انكيلوس أى حينما كان بحر بلطيق عبارة عن بحرة منفصلة عن المحيط الأطلسى . وأما السكمبينة الحديثة أى حضاراة مخلفات المطبخ فتوضع فى فترة Littorina Sea حينما هبطت الأرض من جديد واتصل بحر بلطيق بالمحيط الأطلسى . وفى أواخر فترة ليتورينا (أواخر السكمبينه) يظهر مايسمى بالمناخ الأنسب حينما كان المناخ أدفأ من وقتنا الحالى بدليل الحيوانات التى وجدت فى شمال أوربا فى ذلك الوقت ، ولا تستطيع أن تعيش فيه فى الوقت الحاضر

المرتبة الحضارية الخاصة بوسط أوربا فى هذا العصر :

وجدت فى شرق وسط أوروبا وخصوصاً فى المجر ومورافيا حضارة أطلق إليها ماقبل السولترية وهذه الحضارة تشبه الأوريجناسية الحديثة فهى عبارة عن خليط بين بعض المميزات الأوريجناسية وبعض تأثيرات الحضارة القادمة من الشرق. أما هذه التأثيرات القادمة من الشرق فتظهر فى الأسلحة التى تشبه ورق الغار ، ولاسيما الآلة التى تسمى الهراوة أو النبوت . وهذه الالة لم تظهر فى غرب أوربا وإنما وجدت فقط فى مورافيا فى Briinn وهى مصنوعة من الحجر الجيرى وفى وسطها ثقب تركب فيه اليد ، وبذلك تؤدى غرض الفأس . ثم تمتاز هذه الحضارة بظهور رسومات ذات أشكال هندسية بعضها يشبه جسم الإنسان ، فهذه كلها أشياء ظهرت فى شرق وسط أوروبا ولم تظهر فى غربها .

المرتبة الحضارية الخاصة بشمال أوروبا فى هذا العصر :

أثناء العصر الجليدى الأخير لم يكن شمال أوربا مسكونا ، ولكن لما أخذ المناخ فى الدفء. بدأ الإنسان فى الهجرة من وسط أوروبا إلى شمالها ، ولذلك نجد فى شمال أوروبا حضارات مختلفة أهمها حضارة Kunda وحضارة Maglemose .

شكل (٢٧) يبين الآلات العظمية بحضارة ما جلموز

حضارة كوندا : تنسب إلى مكان بهذا الإسم على خليج ريجا وكانت معاصرة للأزيلية . وتمتاز هذه الحضارة بأن جميع آلاتها مصنوعة من العظام . ومن أمثلة هذه الالات الحربة ذات السن الواحد ، كما تظهر فيها الحربة ذات الأسنان العديدة على صف واحد أو صفين ، وتظهر فيها حربة ذات أسنان كثيرة متقاربة جداً حتى تشبه المنشار ، ومن أهم آلاتها أيضاً الحربة ذات الأسنان المصنوعة من الصوان تثبت

إلى جوانبها ، وهـــذا النوع لم يظهر إلا فى حضارة كندا . ومن أمثلة هـذه الالات أيضاً رءوس السهام المصنوعة من العظام ، ولا زالت بعض هذه الالات تستعمل عند قبائل شمال سيبريا كالساموید لأن حضارة كندا كانت تشمل شمال روسيا وسيبريا .

حضارة ماجلموز : تنسب إلى بلدة بهذا الإسم فى جزيرة زيلند Zealand التابعة للدانمرك ، وهى عبارة عن خليط من الحضارة الكمبينية القديمة وحضارة كندا ، ولذلك تظهر فى هذه الحضارة الالات العظيمة الكندية والآلات الحجرية الكمبينة ، ومن أهم آلاتها قرون الوعول ذات الثقوب ، وربما كانت تستعمل كفؤوس وتنتشر حضـــارة ماجلموز فى الدنمرك واسكندناوه وشمال ألمانيا وانجلترا . (أنظر شكل ٢٧) .

ثانيا : العصر الحجرى الحديث

امتاز الحجرى المتوسط بتغير فى درجة الحرارة فاصبح المناخ فى أجزاء كثيرة من شمال أوروبا دفيئا وجافا ، واختفت تبعا لذلك الحيوانات التى تألف البرودة وهجر غزال الرنة ألمانيا وتراجع خط الثلج إلى موقعه الحالى تقريبا ، وأخذت الغابات فى الانتشار وخصوصا البتولا والشربين وتناقص مستوى الماء فى البحيرات ، وعلى العموم كان المناخ ادفأ منه الوقت الحالى . وتسمى هذه الفترة بفترة Boreal التى فى أواخرها ظهر البلوط بكثرة وانخفض بحر البلطيق ووجدت تبعا لذلك الفترة المسماة Atlantic التى كان المناخ فيها ما زال دفيئا ، ولكن الرطوبة كثرت فارتفع مستوى الماء فى البحيرات وتتفق هذه الفترة مع أوائل العصر الحجرى الحديث . ثم فى أواسط العصر الحجرى الحديث وعصر البرنز ارتفعت الأرض من جديدوساد الجفاف مرة أخرى ووجدت الفترة المعروفة باسم Sub - Boreal وقلت الأشجار فى الغابات ، وانخفض مستوى الماء

واستمرت الحال هكذا حتى عصر الحديد . ولكن هذه الحالة لم تكن تنطبق على كل غرب أوروبا بل توجد بعض استثناءات ، ففى فترة Boreal كانت الجزر البريطانية أكثر رطوبة بفضل أعاصير المحيط الأطلسى ، بينما جنوب شرق انجلترا كان تابعا لحالة القارة فكان جافا دفيئا . كذلك كانت منطقة البرنز فى جنوب فرنسا ذات مناخ دفىء رطب فى العصر الحجرى المتوسط بدليل أصداف القواقع التى وجدت فى الرواسب الأزيلية .

ولقد كان للعامل المناخى أثره فى انهاء العصر الحجرى الأوسط وابتداء العصر الحجرى الحديث وذلك أن الجفاف لما عم أجزاء كثيرة من العالم سادت الظروف الصحراوية فى هذه الأجزاء وكان لزاما على الإنسان أن يهجرها وييمم شطر مجارى الأنهار كالدجلة والفرات والنيل فيتجمع حولها فى قرى ومدن . وقد تبع ذلك هجر الحرف القديمه كالصيد لأن عدد الحيوان قل واختراع حرف جديدة كالزراعة التى تتناسب مع بيئته الجديدة، وقد قامت تبعا لذلك أيضا عدة صناعات كصناعة الرحى لطحن الحبوب وكالنجارة والبناء وبعض الصناعات المعدنية ثم اختراع صناعة الفخار وقوالب الطوب واستئناس الحيوان .

هذه المجموعة الجديدة من الاختراعات وثقت صلة الإنسان بالأرض التى يعيش عليها فنشأت الجماعات الزراعية فى جهات لا يتوفر فيها حجر الصوان فى بعض الأحيان ولذلك كان من الطبيعى أن يستخدم إنسان هذه الحضارة فى صناعته أنواعا أخرى من المواد غير الحجرية بل وأن يستبدل نتاج بيئته من هذه المواد بنتاج البيئات الأخرى وبذلك نشأت التجارة .

وقد رأينا أن إنسان العصر الحجرى القديم والأوسط يصطاد الماموث والرنة باقليم التندرا ويصطاد البيزون والحصان بإقليم الإستبس البارد الجاف ويصطاد الثور والغزال الأحمر لما انتشرت الغابات .

وقد رأينا أيضا أن منطقة الأعاصير تزحزحت نحو الشمال وتزحزح وراءها النطاق الذى كانت تعمل فيه الرياح الغربية الرطبة فلم تعد هذه الرياح تخترق البحر

الأبيض المتوسط طول العام كما لم تعد تخترق إقليم الصحراء الكبرى إلا فى فترات إستثنائية وفجائية . وقد تبع هذه الزحزحة المناخية زحزحة نباتية فأصبحت الغابات الصنوبرية ثم الغابات النفضية تنتشر فى أوروبا فى اتجاه من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى حتى وصلت الدنمرك وجنوب السويد حوالى سنة ٥٠٠٠ ق . م . وقد وضع انتشار الغابات حدا لصيد الحيوانات الكبيرة فى السهول المكشوفة كما كان الحال فى العصر الحجرى القديم الأعلى، وتحول انسان العصر الحجرى الحديث إلى حياة الاستقرار على شواطىء البحيرات والأنهار والبحار ونشط فى حرفة الجمع، فكانت نسبة كبيرة من غذائه تتكون من الأصداف والفواكه والجذور مع بعض الأسماك واللحوم .

وقد تأثرت الجهات الصحراوية بهذه الزحزحة المناخية والنباتية فقل بها المطر وتحولت ظروفها النباتية من حشائش غنية إلى رمال جرداء، وقد تبع ذلك هجرة الحيوانات آكلة العشب أو هلاكها وأما الإنسان فقد تفرق وانتشر فى جميع الاتجاهات فهاجر بعضه مع الحضارة القفصية الأخيرة عن طريق شرق أسبانيا إلى السهل الأوروبى شمال جبال الألب حيث نشر الحضـــارة التردنوازية بآلاتها القزمية (microlithic) وقد سكن هؤلاء فى أغلب الأحوال المساحات ذات التحتربة الجافة مثل التلال الطباشيريه والهضاب الجيرية وجهات اللويس الرملية وهى الجهات التى لم تستطع الغابات أن تستقر فيها بسبب جفافها . وقد اعتمد هؤلاء فى غذائهم على الصيد الصغير مستخدمين فى ذلك الأقواس والسهام ثم على الجذور يستخرجونها من الارض بواسطة فؤوس من الصوان ولم تقتصر هذه الحضارة القزمية على أوروبا بل شملت مصر حيث وجدت فى تلال المقطم كما شملت فلسطين بل الهند وسيلان أيضا

ثم فى سنة ٤٥٠٠ ق . م حدث إرتفاع قليل للأرض صحبه إنخفاض فى درجة الحرارة أدى إلى تقدم الأنهار الجليدية الالبية وهذه هى المرحلة المعروفة باسم شنتز Gschnitz . وهذا النقص فى درجة الحرارة لم يؤد إلى تحسن ظروف سكان

الشواطىء النهرية والبحرية فى أوروبا، ثم لما زالت موجة البرد وحلت موجة الدفء لم يظهر هؤلاء الأقوام الاوروبيون أى تقدم فى حضارتهم . بل ظل الركود مخيما عليهم ولم تزد عناصر مدنيتهم إلا أمرين إستئناس الكلب وصناعة الفخار .

وعلى العموم يمكن القول أن أهم الفروقات بين العصر الحجرى الحديث وبين العصور التى سبقته تنحصر فيما يلى :

١ ـ الزراعة ٢ ـ استئناس الحيوان ٣ ـ صناعة الفخار ٤ ـ صقل الحجارة .

ولم يعرف استعمال المعادن فى أوربا فى العصر الحجرى الحديث بينما كان معروفا فى نفس العصر فى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط .

وفيما يختص بالزراعة نجد أن معرفة الزراعة كانت سبباً فى تجمع الناس فى مناطق استقرار، فأنشئت القرى ومخازن الغلال وحظائر الحيوان وعرف الإنسان إدخار المؤونة للفصل الذى تجدب فيه الأرض . ولقد أدى هذا التجمع إلى الحاجة إلى تنظيم الجماعة كما أدى إلى وجود التخصص وتقسيم العمل فوجدت طائفة لصنع الأوانى والالآت وأخرى لبناء المساكن وثالثة للعمليات الزراعية ورابعة لرعى الحيوان وحراسته .

ومن الغلات التى زرعها إنسان هذا العصر الشعير والقمح والذرة وأما الشوفان والشيلم فلم يظهرا فى هذا الوقت المبكر . وكانت الغلات تختلف من إقليم لآخر .

وقد عرف إنسان هذا العصر كذلك الغزل والنسج لصنع الملابس وشباك الصيد . وما دامت الزراعة قد وجدت فلابد من وجود ثلاث آلات : المحراث والمنجل والهاون . أما المحراث فكانت قائمته تصنع من الخشب وسلاحه من حجر الصوان أو الكوارتزيت ، وأما المنجل فكانت أسنانه تصنع من الصوان ثم تثبت هذه الأسنان فى يد من الخشب ، وأما الهاون فكان عبارة عن حجر كبير يجوف خصيصا ثم يد من الحجر كذلك لطحن الحبوب فى هذا التجويف .

وفيما يختص باستئناس الحيوان ربما عرف إنسان الحضارة الأزيلية كيف

يسخر بعض أنواع الحيوان لأغراضه ولكن الاستئناس التام للحيوان لم يتم إلا فى العصر الحجرى الحديث، ومعنى الاستئناس التام أن يعيش الحيوان ويتكاثر تحت سلطة الإنسان

ويرجح أن استئناس الحيوان وجد أولا فى الشرق فى منطقة أناو فى تركستان الروسية ثم انتقل بعد ذلك إلى أوروبا وذلك لأن آثار العصر الحجرى الحديث فى أناو وهى معاصرة للعصر الحجرى القديم فى أوربا تدل على استئناس بعض الحيوانات كالأغنام والماشية وربما الخيول.

وأما عن صناعة الفخار فيقال أن الطفل المحروق عرف فى أواخر العصر الحجرى القديم ولكن صناعة الأوانى الفخارية وتشكيلها والتحكم فى ألوانها لم يعرف إلا فى العصر الحجرى الحديث، وكانت الأوانى الفخارية تشكل فى هذا العصر باليد وأما استعمال العجلة فى فى تشكيل الفخار فلم يعرف إلا فى عصر البرنز

وأما عن صقل الآلات الحجرية فإن إنسان العصر الحجرى القديم كان يصنع آلاته بواسطة النشظيه والتهذيب Flaking & chipping وهما لا يصلحان ألا فى أنواع خاصة من الحجارة كالصوان، فمثلا لا يمكن تشكيل آلات من الجرانيت بطريقة النشظية، ثم أن حافة الالات الصوانية سهلة التهشم ولذلك تتلف بسرعه. ولكن إنسان الحجرى الحديث عرف صنع الالات بواسطة صقل أنواع من الحجارة أكثر صلابة من الصوان كالديوريت والجرانيت. وقد أفادت هذه الالات الحجرية فى قطع الأخشاب التى كثرت فى هذا الوقت بسبب دفء المناخ. ومع ذلك فقد استمرت الطريقة القديمة مستعملة وهى طريقة التشظية.

وبسبب الحاجة إلى الحجارة بأنواعها المختلفة وجدت محاجر خاصة لاستخراجها وتخصصت فى ذلك فئة خاصة من العمال. وكانت صناعة الالات تتم فى مناطق المحاجر ليخف حملها وبذلك تجنب هذا الإنسان القديم نقل كتل ثقيلة من الحجارة لا لزوم لها.

مصدر حضارة أوروبا فى العصر الحجرى الحديث:

من المرجح أن وسط آسيا كان المورد الأساسى لحضارة العصر الحجرى الحديث فى أوروبا وأن هذه الحضارة انتقلت إلى أوروبا نتيجة للتغيرات المناخية فى وسط

آسيا . وإذا نظرنا إلى وسط آسيا فى الوقت الحالى نجد أنه تشغله أعلاجبال فى العالم بالأضافة إلى الصحارى الواسعة التى تؤلف منطقة داخلية مقفلة لا تتصل بالمحيط. فإذاسقط المطر فى الوقت الحالى فأنه لا ينصرف إلى المحيط وإنما يتسرب الى باطن التربة أو يتبخر فى الهواء . ولكن فى الزمن الرابع كان هناك بحر داخلى فى المنطقة التى تشغلها الان الصحراوات ومن بقايا هذا البحر القديم فى الوقت الحالى بحر آرال وقزوين وبحيرة بلكاش وغيرها من البحيرات الصغيرة . ولقد كان هذا البحر الداخلى على اتصال بالبحر الأسود ، وكان مستوى الماء فى بحرقزوين أعلامن مستواه الحالى بستمائة قدم . وكانت هذه المساحة المائية الهائلة تتغذى بواسطة الثلاجات التى أخذت تذوب فى أواخر الزمن الرابع . وقد أفادت هذه المساحة المائية الداخلية فائدتين : فأولا لطفت درجة الحرارة فى وسط اسيا فقللت من قيظ الصيف ومن قسوة الشتاء على حد سواء . وثانيا كان بخار الماء المتصاعد من هذا البحر الداخلى سببا فى توفير الرطوبة فى مساحات كبيرة من وسط اسيا — هى الان صحراء — فأمكن بذلك استثمار الأرض . ومعنى هذا أن وسط اسيا كان فى أواخر الزمن الرابع أكثر صلاحية لمعيشة الإنسان من غرب أوروبا . ولكن بعد انتهاء العصر الجليدى البليستوسينى تسود فترة جفاف — هى المعاصرة للحجرى الأوسط — وقد أفاد هذا الجفاف غرب أوروبا ولكنه سبب الخراب فى وسط آسيا لا سيما وأنه حدثت فى نفس الوقت حركات أرضية سببت فتح البسفور وتسرب مياه البحر الداخلى الأسيوى إلى البحر الابيض المتوسط وأصبح الإنسان الاسيوى مخيرا بين الهلاك أو الهجرة فاختار الهجرة واتجه نحو أوروبا من ناحية ونحو شرق اسيا من ناحية أخرى ناقلا معه الاشياء التى تميز العصر الحجرى الحديث كالزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار

وإذاً فالهجرات الرئيسية التى أوجدت العصر الحجرى الحديث فى أوربا أتت من المناطق الواقعة شمال السلاسل الجبلية الوسطى فى آسيا . وكذلك تلقت مصر وفلسطين وسوريا بعض تأثيراتها الثقافية — ولكن فى وقت مبكر — من هذه

المناطق عن طريق تركستان الروسية . ومن المناطق التى بحثت فى آسيا منطقة أناو بالقرب من أستراباد فى التركستان الروسية حيث وجدت طبقات متتابعة من الحضارة .

ثم فى بدأ عصر المعادن ينشط التبادل التجارى ويتمكن الإنسان من عبور بعض الجبال القليلة الارتفاع ،فنجد ثقافة بلاد النهرين (ميزوبوتاميا) تنتقل إلى بلاد بعيدة وخصوصاً فى أواخر الحجرى الحديث حيث ساد الجفاف وذابت الثلوج وانكشفت قمم الجبال القليلة الارتفاع فسهل عبورها ولا سيما من خلال الثغرات التى بينها .

انواع المساكن فى العصر الحجرى الحديث :

١ — القرى الثابتة : بدأ الانسان فى العصر الحجرى الحديث يعيش فى قرى ثابتة مكونة من أكواخ عديدة متجاورة ، وهذه الأكواخ كانت قواعدها تبنى بالطين لتثبيت القوائم التى يقوم عليها السقف . واستخدمت الأعشاب وفروع الأشجار لملء الفراغ بين هذه القوائم . وكان يختار للقرية مكان حصين لسهولة الدفاع ضد المعتدى سواء كان إنسانا أو حيوانا . وفى كل كوخ يوجد مخزن للمواد الغذائية محفور فى الأرض وموقد . وربما كان الكوخ الواحد يقسم إلى غرفتين أو أكثر كما تدل على ذلك بقايا صفوف الأعمدة الخشبية . أما شكل المنازل فكان منها المستطيل والمربع والبيضاوى ، وفى بعض الأحيان يوجد حجر كبير داخل الكوخ ربما كان يستخدم كمائدة . وقد وجدت نماذج صغيرة من الفخار لمنازل فى Brno (Brunn) وقد وجدت آثار تدل على وجود شوارع بين هذه المنازل .

٢ — مساكن البحيرات : استخدمت هذه الطريقة للسكن بقصد الدفاع ضد المغيرين من البشر أو الحيوانات المتوحشة . وكان هذا النوع من السكن منتشرا فى سويسرا بالقرب من بحيرات نيوشاتل ولوسرن وكنستانس ، وفى الناحية الأخرى من التلال وجد سكان البحيرات الايطاليون، وكذلك وجد هذا النوع من السكن

فى جبال الألب . وكانت المساكن تقام فى وسط البحيرة على أعمدة خشبية ، وكان يوجد من هذه المساكن طريق ضيق يوصل إلى الشاطىء يسهل إزالته وقت الخطر حتى لا يتمكن العدو من الاقتراب من المساكن . ومساكن البحيرات فى العصر الحجرى الحديث لم تكن كثيرة البعد عن الشاطىء . وقد استمر هذا النوع من المساكن مستخدما حتى عصر المعادن ، ولكن زاد بعد القرية عن شاطىء البحيرة . وقد وجدت مخلفات هؤلاء الأقوام وهى تشمل أوانى فخارية وآلات حجرية وعظمية وحبوب وقطع منسوجات وبقايا شباك الصيد وغير ذلك ولا بد أن هؤلاء الناس عرفوا صنع القوارب واستخدامها .

٣ — الكهوف : فى بعض المناطق التى تلائم طبيعة الصخر فيها وجود الكهوف — كمناطق الحجر الجيرى — استمر استخدامها للسكن .

المقابر :

وقد تعددت أنواع المقابر فى العصر الحجرى الحديث ؛ فبعض المقابر كان عبارة عن حفر عادية ، والبعض كان مبنياً على سطح الأرض ، وكذلك استخدمت الكهوف للدفن . وكان يدفن مع الميت بعض الأوانى والالات وربما وجد نوع من الثقافة الدينية خاصة بالموت .

مناطق حضارة العصر الحجرى الحديث فى أوروبا : وجدت فى أوروبا حضارة العصر الحجرى الحديث ممثلة فى عدة مناطق منفصلة عن بعضها وذلك لأن إنسان هذا العصر كان يسكن حيث الأرض سهلة خالية من الغابات . وأهم هذه المناطق ما يأتى :

١ — المنطقة الشرقية وتسكنها العناصر التى هاجرت من آسيا إلى شرق أوروبا واتخذت أولا طريق الدانوب وروافده واستقرت فى أراضى اللويس بجنوب المانيا ، ثم طريق ترانسلفانيا .

٢ — المنطقة الشمالية وتشمل اسكندناوة وشواطىء البلطيق التى تأثرت حضارتها بتأثيرات من الجنوب الغربى ومن الشرق والجنوب الشرقى .

٣ — المنطقة الغربية وتشمل غرب أوروبا والجزر البريطانية .

٤ — منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وهى أسبق هذه المناطق كلها من حيث الحضارة ودرجة رقيها .

أجناس العصر الحجرى الحديث :

وجد فى أوروبا فى العصر الحجرى الحديث الأجناس الثلاثة المشهورة :
١ — البحر الأبيض ٢ — الألبى ٣ — النوردى .

أما جنس البحر الأبيض فقد وجد فى حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ كما انتشر شمالا حتى جنوب بريطانيا . وأصحاب حضارة Anau يرجعون لهذا الجنس وهذا يرجح أن منشأ حضارة العصر الحجرى الحديث كان فى وسط آسيا ، وكذلك أصحاب الحضارة القفصية التى ترجع للعصر الحجرى القديم الأعلا من هذا الجنس، وقد تطورت حضارتهم إلى التردنوازية التى ترجع للحجرى الأوسط ، ثم استمر وجودهم حتى ساهموا فى إيجاد حضارة العصر الحجرى الحديث فى الجزء الغربى من حوض البحر الأبيض المتوسط . وعلى العموم وصل هذا الجنس إلى أوروبا فى الحجرى القديم الأعلا سواء منه من يرجع إلى أصحاب حضارة Anau أو إلى أصحاب الحضارة القفصية .

أما الجنس الألبى فهو يحتل سلاسل الجبال الوسطى فى آسيا وأوروبا . وقد قيل بأن هذا الجنس العريض الرأس هو الذى ادخل حضارة الحجرى الحديث إلى أوروبا لأنه كان المظنون أن الرءوس العريضة لم تظهر فى أوروبا إلا فى العصر الحجرى الحديث . ولكن ظهر أن الرءوس العريضة وجدت فى أوروبا أثناء الحضارة السوليترية (حجرى قديم أعلا) كما وجدت فى الحجرى الأوسط . ومن المرجح الان أن الجنس المستطيل الرأس هو الذى أدخل الحضارة السولترية إلى أوروبا

أما الجنس النوردى فيقال أن منشأه جنوب سيبريا ؛ ويقال أنه وصل أوروبا متأخرا بعد جنس البحر الأبيض والجنس الألبى .

الصناعة فى العصر الحجرى الحديث

فى اسكندناوة حيث وجد الصوان بكثرة صنعت آلات صوانية فى منتهى الدقة كالسكاكين والخناجر والسهام والرماح . وبلغ من مهارة العمال أنهم كانوا يصنعون الحلى كالعقود والأساور من الحجارة . وقد بلغت هذه الحلى درجة الأتقان التى بلغتها الحلى المصنوعة من المعادن فى عصر المعادن . ومن أمثلة الالات فى اسكندناوة الفأس الحجرية المصقولة صقلا تاما ، أو المصقولة من سلاحها القاطع فقط . كما ظهرت الفأس التى تشبه المطرقة .

وفى أسبانيا يمكن تتبع ثلاثة أدوار فيها :

١ - دور كانت الصناعة فيه ما زالت شبيهة بالحجرى الأوسط إذ أن الالات المصقولة فيه كانت قليلة جدا وربما لم تصنع محليا بل استوردت من الخارج .

٢ — دور كثرت فيه الالات المصقولة والفخار الملون . ٣ — دور بلغت فيه صناعة الصوان أوجها وبدأ فيه استعمال المعادن .

وفى سويسرا : يمكن تتبع ثلاثة أدوار فى صناعاتها البحيرية : ١ — دور تظهر فيه فؤوس يدوية صغيرة غير مصقولة مصنوعة من صخور محلية ، كما تظهر فيه صناعة عظمية غير متقنة وأوانى فخارية غير متقنة أيضا وغير مصقولة . ٢ — دور تظهر فيه فؤوس يدوية كبيرة مصنوع بعضها من صخور مستوردة من الخارج ، وتظهر الألوان البسيطة على الفخار ويتحسن صنعه . ٣ — الدور الأخير تظهر فيه الفؤوس التى على شكل المطرقة ، وتصل الصناعة الحجرية والعظمية إلى أوجها وتختفى فيه الالات المصنوعة من حجارة أجنبية ويزداد تلوين الفخار وتظهر مبادىء استعمال المعادن .

وفى إيطاليا لا تظهر الفؤوس المصقولة مطلقا ويحتمل أن تيارات حضارية ترجع للعصر الحجرى الحديث وصلت شمال إيطاليا من سويسرا وجبال جورا من ناحية ، ثم من حوض الدانوب من ناحية ثانية .

وفى فرنسا وجنوب انجلترا وبلجيكا : تظهر ثلاثة أدوار ، ١ — الدور الأول شبيه بالحضارة الكمبينية ولكنه يحمل بعض مظاهر الحضارة النيوليتية كالفأس المصقولة والسهم المصقول . ٢ — والدور الثانى تظهر فيه الفأس التى على شكل المطرقة وتصل فيه الصناعة الحجرية إلى أوجها . ٣ — الدور الثالث بدأ استعمال المعادن مع استمرار الحضارة السابقة .

وعلى العموم تعددت الالات الحجرية والأوانى الفخارية وأصبح لكل منطقة آلاتها وأوانيها الخاصة بها ولهذا لا يمكن تناول العصر الحجرى الحديث بالدراسة على النحو الذى يتبع فى دراسة العصر الحجرى القديم بل لا بد من دراسة كل منطقة على حدة .

وقد ظهرت فى العصر الحجرى الحديث أيضا النؤوس والسهام والمكاشط ذات المقابض .

الحضارة الأنيوليثية

يطلق بعض العلماء اسم الحضارة الأنيوليثية على بقايا حضارة العصر الحجرى الحديث التى توجد فيها بعض الات معدنية . ويظهر أن الالات النحاسية وجدت أولا فى وسط اسيا والعراق ومصر وسواحل البحر الأبيض ثم انتقلت إلى جزر البحر الأبيض ثم انتقلت إلى غرب أوروبا ووسطها وشمالها .

وكذلك استعمال الذهب قديم وهو معاصر لاستعمال النحاس لأنه وجد فى المقابر الأنيوليثية .

على أن استعمال المعادن لم يحدث تغيرا فجائيا فى حياة الإنسان لأن هذا الاستعمال حدث بالتدريج ولم يكن نتيجة غزوات بل نتيجة انتقال الحضارة بسبب اتصال الشعوب ببعضها . وكانت الأسلحة والالات المعدنية فى الحضارة الأنيوليثية قليلة جداً وكانت تقليدا للآلات الحجرية المعروفة فى العصر الحجرى الحديث ، ثم لما نشطت حركة استخراج المعادن ووجد نظام المبادلة بين الشعوب كثر استخدام المعادن فى صنع الآلات إلا أن هذا لم يقض على استعمال الحجارة .

وعلى هذا يمكن القول أن ما يسمى الحضارة الأنيوليثية ليس حضارة قائمة

بذاتها وإنما هى عصر انتقال بين العصر الحجرى وعصر استعمال المعادن لان استعمال النحاس فى صنع الالات لم يحدث أى تغيير فى حياة الإنسان فى أى جهة من جهات العالم

بداية استعمال المعادن

عصر البرنز :

البرنز هو خليط من النحاس والقصدير وهو يمتاز على النحاس بأنه أكثر صلابة بينما النحاس سهل الالتواء لا يصلح فى صناعة الأسلحة والآلات . أما معدن النحاس فيوجد منتشراً فى شكل أكاسيد وكربونات وغير ذلك من الخامات نتيجة لتفاعل عروق النحاس الظاهرة على سطح الأرض مع الهواء . أما القصدير فهو نادر الوجود ويوجد على شكل عروق بين الطبقات أو على شكل بللورات فى الصخور البللورية. على أنه يوجد دائماً فى شكل أكاسيد فلم يبق أمام الإنسان إلا إذابة هذه الأكاسيد للحصول على المعدن المطلوب . ولما كان النحاس والذهب يوجدان فى الطبيعة أكثر انتشاراً من القصدير فقد عرف الإنسان استخدامهما قبل القصدير. ويقول دى مورجان أن بدء استخدام المعادن (أى النحاس) عرف أولا فى شمال غرب آسيا ثم انتقل من هذا المكان إلى مصر وفينيقيا ثم إلى جزر شرق البحر الأبيض ، ثم من هذه الجزر إلى أوروبا. ولكن فيما يختص بمعرفة استخدام القصدير يقول بأن رواسبه توجد بقلة فى مراكش وغرب اسبانيا وفى الأوفرن Auvergne وبرتنى بفرنسا ثم فى فنلنده ، ولذلك يصرف النظر عن هذه الأمكنة كأول موطن لمعرفة استخدام القصدير ـ وكذلك الكاسيتريت وهو أكسيد القصدير يوجد فى خراسان فى فارس وفى أرمينيا . ولكن لا يرجح أن تكون هذه الأماكن موطناً أولا لاستخدام القصدير ، وإنما يرجح — فى رأيه — أن يكون استخدام القصدير لأول مرة عرف فى المنطقة التى تشمل الملايو والهند الصينية والصين لأنها منطقة غنية بهذا المعدن إلا إذا ثبت فيما بعد أن عروق القصدير موجودة فى الجبال الشمالية فى غرب آسيا، وأنها كانت تستغل قديماً .

أما النحاس الأصفر وهو الخليط بين النحاس والزنك فلم يستخدمه الإنسان قديما رغم انتشار الكالامين (calamine) فى أوروبا (وهو الزنك الخام) وذلك لأن الزنك يستغل إذا أذيب وهو معرض للهواء .

وكما اشتد تنوع الآلات الحجرية المصقولة فى العصر الحجرى الحديث كذلك تنوعت الآلات المصنوعة من البرنز فى الأقاليم المختلفة . وهنا نصل إلى المرحلة التاريخية فينتهى فجر التاريخ ويبدأ التاريخ فى بعض جهات آسيا وفى مصر وشرق البحر الأبيض ، وتظهر الحضارة النوردية فى الجزء الشمالى من غرب آسيا وفى كل أوروبا حيث تخصصت الشعوب المختلفة فى أماكن أقامتها فأظهرت ميولها وأذواقها الخاصة ، ولكنها حافظت على المعالم الأساسية للحضارة البرنزية النردية ، فظهرت فى أوقات مختلفة الحضارة القزوينية والقوقازية والروسية والمجرية ، وكذلك ظهرت حضارات فى اسكندناوة وشمال ألمانيا وبلاد الغال وإسبانيا وشمال إيطاليا كما ظهرت فى إقليم البحر الأبيض الحضارة المينوية والأيجية ، وكذلك انتشرت تأثيرات الحضارات المصرية إلى بعض هذه الجهات . وفى كل من شمال أوروبا وشمال آسيا تطورت الحضارة البرنزية محليا ومرت فى عدة أدوار مختلفة .

على أنه فى أثناء التطور التاريخى فى الشرق الأدنى [أى غرب آسيا ومصر وشرق البحر الأبيض] كانت أوروبا مازالت فى فجر التاريخ ، فالعصر الحجرى الحديث فى أوروبا يوضع بين سنة ٣٠٠٠ وسنة ٢٠٠٠ ق . م . وعلى هذا يمكن القول أن العصر الحجرى الحديث بدأ فى أوروبا فى الوقت الذى كانت فيه مصر قد قطعت مرحلة كبيرة من العصر التاريخى . أما عصر البرنز فيوضع فى أوروبا بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق . م . وهجرة النورديين (Indo - Germanians) توضع قبل عصر البرنز مباشرة . وقد بسط هؤلاء سلطانهم فى شرق أوروبا وفى شمالها وفى غربها ، وكونوا الشعوب التى سنراها فى بدء العصر التاريخى فى أوروبا ، أما ماخلا ذلك من الشعوب فقد فنيت . ومن وقت بدء التاريخ الأوروبى أى سنة ٥٠٠ ق . م حتى ميلاد المسيح لم يبق من شعوب أوربا القديمة إلا بقايا قليلة . ثم أخذت

هذه البقايا فى الانقراض ولم يبق فى الوقت الحاضر إلا الباسك من الشعوب التى كانت موجودة فى جنوب ووسط غرب أوروبا فى فجر التاريخ .

عصر الحديد : فى المدة من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ٥٠٠ ق . م توضع الفترة الأولى من عصر الحديد فى أوروبا المعروف بإسم Hallstatt Age (فى النمسا) ومن سنة ٥٠٠ إلى ميلاد المسيح تقع الفترة الثانية من عصر الحديد أو فترة La Téne (فى سويسرا) ويمتاز عصر الحديد على العموم بأن الالات والأسلحة أصبحت تصنع منه بينما اقتصر استعمال البرنز على الحلى .

وفى سنة ٤٠٠ ق . م أغارت شعبة أخرى من الـ Indo-Germainans وهم الكلتيون على وسط وغرب أوروبا وسيطروا على كل فرنسا وبلجيكا وسويسرا وإسبانيا وإنجلترا وإيرلندا وبلاد الطونة حتى البلقان بل وهاجموا إيطاليا واليونان ، بل وتوغلوا فى الأناضول .

وتوضع التواريخ التقريبية الاتية للعصر الحجرى الحديث وبداية عصر المعادن فى أوروبا :

٣٠٠٠ — ٢٠٠٠	العصر الحجرى الحديث		
٢٠٠٠ — ١٠٠٠	عصر البرنز		
١٠٠٠ — ٥٠٠	عصر الحديد	هلشتات	Halshtatt
٥٠٠ — الميلاد		لاتين	La Tène

الفصل الرابع

سطح مصر من العصور الجيولوجية

الى العصور البشرية

كان توزيع اليابس والماء فى المنطقة التى يشغلها القطر المصرى حاليا مختلفا عما هو عليه فى الوقت الحاضر، فالأصداف البحرية المبعثرة فوق التلال والهضاب الصحراوية تدل على انغمارها تحت سطح البحر فى عصور جيولوجية قديمة ثم انحسر عنها الماء قبل فجر التاريخ . ولا توجد تغيرات ملحوظة فى توزيع اليابس والماء بمصر فى الخمسة الاف سنة الأخيرة التى شغلها العصر التاريخى ، فقد أمكن التعرف على كثير من مواقع المدن المصرية القديمة التى تدل على أنها لم تقع تحت سطح الماء فى أية فترة منذ نشأتها .

وتحتوى الرواسب التى يتألف منها فى الوقت الحاضر سطح مصر على تكوينات من كل الأزمنة الجيولوجية غير أن بعض عصور هذه الأزمنة غير ممثل بمصر فلا يوجد بها من رواسب الزمن الپاليوزوى إلا العصر الفحمى ، ومعنى هذا أن مصر كانت يابسا طوال هذا الزمن فيما عدا العصر الفحمى ، كما يتمثل بمصر من تكوينات الزمن الميزوزوى عصر الچوارسى والكريتاسى ، ولكن لا يوجد بها الترياسى ، وأما عصور الزمن الكاينوزوى الستة فممثلة جميعا فى مصر . وسنتتبع فيما يلى وباختصار حالة سطح مصر منذ أقدم العصور الچيولوچية حتى الوقت الحاضر (أنظر شكل ٢٨) .

الزمنان الاركيوزوى والپروتيروزوى :

تدخل صخور هذين الزمنين فى تركيب الكتل الجبلية بالصحراء الشرقية وجنوب شبه جزيرة سيناء ، كما توجد فى مساحة كبيرة بجوار أسوان وفى الأجزاء الجنوبية من صحراء ليبيا . وتقدر المساحة التى تشغلها هذه الصخور بحوالى عشر مساحة مصر الحالية ، وهى صخور متبلورة فى الغالب ، كما أنها عبارة عن مركب

شكل (٢٨) خريطة تبين تكوينات سطح مصر فى اهم الازمنة والعصور الجيولوجية .

من الصخور النارية والمتحولة الخالية تماما من الحفريات . على أن بعض الصخور المتحولة الداخلة فى هذا المركب مثل النيس والشست كانت فى الأصل صخوراً رسوبية تراكمت فى قيعان البحار ثم تغيرت حالتها تغيراً عظيما لما تعرضت له خلال

مئات الملايين من السنين من ضغط والتواء وتداخل المواد النارية السائلة مما أفقدها طبيعتها الأولى وأفنى ماقد يكون بها من حفريات . ولهذا كان من الصعب أن نفرق فى هذا المركب بين الصخور النارية الأصلية وبين الصخور التى كانت فى الأصل رسوبية ثم تحولت ، وتبع هذا أن أصبح من العسير أن نكون — بناء على توزيع هذه الصخور — فكرة تقريبية عن حدود اليابس والماء وقت إرسابها .

العصر الكربونى :

توجد طبقات العصر الفحمى فى مصر فى ثلاثة أماكن هى :

١ — القسم الغربى من شبه جزيرة سيناء

٢ — وادى عرابة فى الصحراء الشرقية .

٣ — جبل عوينات فى صحراء ليبيا وفى الركن الجنوبى الغربى من القطر المصرى .

فاما الطبقات الكربونية فى غرب سينا فهى أظهر طبقات هذا العصر فى مصر ، ويبلغ سمكها حوالى ٣٢٠ مترا ، وتنقسم الى المجموعات الآتية :

ا — مجموعة سفلى من الحجر الرملى سمكها ١٣٠ مترا تعلو مباشره صخور الزمن البروتير وزوى البلورية .

ب — مجموعة وسطى من الحجر الجيرى سمكها ٤٠ مترا :

ج — مجموعة عليا من الحجر الرملى سمكها ١٥٠ مترا تحتوى على بقايا اشجار .

واما فى وادى عرابة فتظهر الطبقات الكربونية مكشوفة فى قاع وادى متسع عُرى على طول محور ثنية مقعرة وتتتابع بنفس ترتيب طبقات سينا .

واما فى جبل عوينات فتوجد مجموعة عظيمة من الحجر الرملى تعلوا الصخور البلورية . وتحتوى طبقات الحجر الرملى على بقايا نباتات من العصر الكربونى .

العصران البرمى والترياسى :

يظهر أن ارتفاع اليابس التدريجى الذى بدأ فى أواخر العصر الكربونى — والذى يدل عليه وجود قطع من أشجار حفرية فى الحجر الرملى الذى يرجع للكربونى الأعلا — استمر فى العصر البرمى حتى اصبحت مصر فى هذا العصر وفى العصر الترياسى الذى

تلاه أرضا جافة فيما عدا اجزاء صغيرة كانت تشغلها خلجان أو بحار مقفلة ضحلة ارسبت فيها بعض الرمال المعراة من صخور العصر الكربونى .

العصر الجوراسى :

لا يعرف من بقايا هذا العصر بمصر الا مايوجد بجوار جبل مغارة بشمال سينا ، وما يوجد فى الركن الشمالى الشرقى لهضبة الجلالة الشمالية بالصحراء الشرقية ، وتتكون هذه البقايا من طبقات من الاحجار الرملية والطينية والجيرية ، وهى فقيرة فى الحفريات ، ولكن بها عروق حفرية تحتوى على بعض الاصداف البحرية ، وتشبه الحفريات الموجودة فى الحجر الجيرى الجوراس المصرى الحفريات الموجوده فى نفس التكونيات بجهات العالم الأخرى ، مما يدل على أن البحر المصرى الذى ارسبت فيه كان متصلا بمحيط ذلك العصر ، وان المياه طغت على مصر من الشمال حتى الجلالة البحرية على الأقل .

العصر الكريتاسى :

تكون طبقات العصر الكريتاسى حوالى اربعة اعشار سطح مصر ، وتحتوى على طبقات سفلى من حجر رملى غير حفرى سمكة لا يزيد على ٥٠٠ متر هو الحجر الرملى النوبى ، ثم طبقات عليا فى نفس السمك من الحجر الجيرى والطينى تحتوى على حفريات بحرية ويستمر امتداد الحجر الرملى النوبى الى خارج حدود مصر فيمكن تتبعه الى اكثر من الف ميل غربا خلال ليبيا والى مثل هذه المسافة جنوبا خلال السودان المصرى . والطبقات العليا من هذا العصر اكثر امتدادا نحو الشرق والغرب فهى متصلة بدون انقطاع تقريبا من المحيط الأطلسى خلال شمال افريقيا وبلاد العرب إلى الخليج الفارس ، ولكنها أقل امتدادا نحو الجنوب فلا توجد بمصر جنوب خط عرض ½ ٢٣° .

وإذا كانت طبقات الكرتياسى الظاهرة تكون أربعة أعشار سطح مصر فإنها تمتد تحت خمسة أعشار أخرى من سطح هذا الإقليم . أما العشر الباقى الذى لا تشغله طبقات كريتاسية فهى تلك الأماكن التى تظهر فيها الصخور الأقدم من الكريتاسى

على السطح . غير أنه توجد علامات كثيرة على التعرية فى هذا العشر الباقى وبذلك يمكن القول أن البحر الكريتاس كان يشغل كل مصر ، كما كان يمتد فوق معظم شمال إفريقية وبلاد العرب .

عصر الإيوسين :

تغطى الطبقات الأيوسينية حوالى خمس مساحة مصر وتشغل نسبة كبيرة من الهضبة الصحراوية العالية التى ترتفع مئات الأمتار فوق مستوى البحر على كلا جانبى النيل من القاهرة حتى قنا ، كما تشغل أيضاً مناطق مرتفعة كبيرة المساحة فى شبه جزيرة سينا . وتتكون هذه الطبقات من الأحجار الجيرية والطينية ويصل سمكها حوالى ٧٠٠ متر ، وتزدحم أجزاء كثيرة منها بالحفريات البحرية التى من أهمها النوموليتس Nummulites بل أن بعض احجارها الجيرية مكون كله من هذه الحفريات .

وتغوص الطبقات الأيوسينية فى الأجزاء الشمالية من الصحراء الليبية تحت طبقات العصور الأحدث ، ولا شك أنها تستمر تحت هذه الطبقات حتى حوض البحر المتوسط . وفى المنطقة المحصورة بين القاهرة والسويس يمتاز الحد الشمالى لظهور الطبقات الأيوسينية على السطح بالعيوب ، بينما فى الأجزاء الشمالية من سينا قطعت هذه الطبقات بالتعرية إلى كتل منفصلة . ولا شك أن هذه الطبقات السينائية تمتد أيضاً شمالا إلى ما بعد الساحل الحالى للبحر المتوسط .

ويدل توزيع الطبقات الأيوسينية على أنه فى بدء هذا العصر حدث إنخفاض عظيم لليابس فتوغل البحر جنوباً وغطس جزء كبير من مصر إلى أعماق عظيمة واستمر هذا الأنغمار ملايين السنين بدليل السمك العظيم الذى بلغته الطبقات الأيوسينية الظاهرة للعيان .

عصر الأوليجوسين :

تغطى الرواسب الأوليجوسينية مساحات كبيرة من الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس كما تشغل شريطا عريضا ممتداً من القاهرة فى اتجاه جنوبى غربى

لمسافة ٢٠٠ كيلو متر ، وتقدر مساحة هذه الرواسب بحوالى ١٫٥ ٪ من مساحة مصر ، وتتكون من حصباء ورمال وحجر رملى خالى من الحفريات عادة ولكنها تحتوى فى أماكن كثيرة على خشب متحجر كما أنها تحتوى فى القسم الشمالى من منخفض الفيوم على بقايا حيوانات برية ضخمة عديدة من بينها أجداد الفيلة الحالية . ورواسب هذا العصر من أصل نهرى أو خليجى ، وحفرياتها عبارة عن بقايا الأشجار والحيوانات التى كانت تعيش على البر ثم اكتسحت بقاياها نحو الشمال بواسطة الأنهار فى البحر . وتتكون الحصباء الأوليجوسينية — فى مظمها — فى وادى النيل وما حوله من حصى صوانى مقاوم للتعرية الجوية ، ولكنه بسبب تفككه قابل للنقل وإعادة التوزيع بفعل المجارى المائية التى تلت العصر الأوليجوسينى ، ولذلك نجد الحصباء المحتوية على خشب متحجر التى أرسبت فى الأصل فى العصر الأوليجوسينى منتشرة انتشاراً وإسعافى أماكن بعيدة عن الأماكن الأصلية التى تكونت فيها .

ونستخلص من توزيع الرواسب الأوليجوسينية وحالاتها أن الجزء الأكبر من مصر كان أرضاً جافة فى هذا العصر وأن خط الساحل الشمالى كان يسير شمال الفيوم وإلى الجنوب من القاهرة بقليل . ومعنى هذا أنه بين الأيوسين والأوليجوسين حدث ارتفاع كبير فى أرض مصر صحب فى الجزء الشرقى بالالتواء ، وبذلك وضع الأساس لتكوين منخفض البحر الأحمر والسلاسل الجبلية التى على جانبيه .

ويصعب تتبع مجارى الأنهار التى كانت موجودة فى عصر الاوليجوسين ولكن من المعروف أن نهراً كبيرا كان يسير فى اتجاه شمالى - إلى الغرب من مجرى النيل الحالى - ويصب فى البحر شمالا الفيوم مباشرة . كما كانت هناك أنهار أخرى تنصرف إلى منخفض البحر الأحمر الذى كان بحراً مقفلا فى ذلك العصر . ولم يكن وادى النيل الحالى قد وجد فى ذلك العصر .

عصر الميوسين :

تمتد الصخور الميوسينية من القاهرة غربا فى شريط يتسع كلما تقدمنا خلال القسم الشمالى من صحراء ليبيا حتى برقة . وكذلك توجد الطبقات الميوسينية فى التلال الواقعة شرق القاهرة وفى القسم الجنوبى من برزخ السويس ، وفى نقط على جانبى خليج السويس ، وبالقرب من ساحل البحر الاحمر . وتتكون الطبقات الميوسينية فى الجزء الشمالى والغربى من مصر من احجار رملية وجيرية وطينية تحتوى على أصداف حفرية خاصة تدل على أن نشأة هذه الطبقات بحرية فيما عدا مكان واحد بالصحراء الغربية (مغاره) حيث توجد بالطبقات الميوسينية السفلى بقايا حيوانات برية منقرضة، كما دلت الحفر على ساحل خليج السويس على أن الطبقات الميوسينية تشتمل عل عروق سميكة من الجبس والملح الصخرى التى لاشك فى أنها ارسبت فى ظروف خليجية ، ثم فى وادى غويبة على الجانب الغربى لخليج السويس بالقرب من رأسه نجد الطبقات الميوسينية العليا تحتوى على أصداف مياه عذبة .

ويستدل من توزيع الصخور الميوسينية عل أنه فى الجزء الأول من هذا العصر حدث لليابس انخفاض عام فتقدم البحر نحو الجنوب وطغى على القسم الشمالى من مصر إلى مابعد واحة سيوة ، كما توغل فى برزخ السويس إلى منخفض البحر، الأحمر فملأ وحول تلك البحيرة الأوليجوسينية إلى ذراع مقفل للبحر المتوسط ثم فى القسم الأخير من الميوسين يقف انخفاض الأرض وتتبعه حركة ارتفاع ـ كالتى حدثت فى الأوليجوسين ـ تصحبها التواءات وانكسارات فى الأجزاء الشرقية من مصر .

ووجد فى هذا العصر لأول مرة نهر النيل الحالى ، وكلما زاد ارتفاع الأرض وتقهقر البحر تقدم النهر ناحتا واديه العظيم خلال صخور العصور السابقة وفى نفس الوقت نحتت روافده التى كانت تحمل إليه الرواسب من جبال البحر الأحمر ودياتها العميقة وهى الوديان الجافة حالياً بالصحراء الشرقية . وقد زاد ارتفاع جبال البحر الأحمر بالإلتواء وأصبح برزخ السويس يابساً من جديد وأصبح خليج

السويس مصب نهر يتلقى عدة روافد من الجبال الواقعة على كلا جانبيه ،ثم ينصرف جنوبا إلى البحر الأحمر ، وأما البحر الأحمر نفسه فقد انفصل نهائيا عن المحيط بانقطاع صلته بالبحر المتوسط .

عصر البليوسين :

توجد الصخور البليوسينية فى وادى النطرون وحوله وفى أماكن أخرى قليلة فى الأجزاء الشمالية من صحراء ليبيا ، ثم فى وادى النيل وعند مصبات الوديان الرئيسية بالصحراء الشرقية وفى نقط على الساحل الغربى لخليج السويس والبحر الأحمر حتى رأس بناس . وتتكون الصخور البليوسينية فى الجزء الأدنى من وادى النيل من بنى سويف شمالا وعلى طول سواحل البحر الأحمر وخليج السويس من صخور جيرية ورمليه وطينية تحتوى عل مرجان وأصداف بحرية وقنافذ بحرية مما يدل على النشأة البحرية لهذه الصخور . غير أنه فى أجزاء أخرى من مصر تتكون الرواسب البليوسينية فى معظمها من رواسب نهرية وخليجية . ففى وادى النطرون مثلا تتكون هذه الرواسب من رمال وطين وجبس يحتوى على بقايا خرتيت وفيلة وزراف وغيرها من الحيوانات البرية ثم بقايا تماسيح وأسماك مما يدل على وجود مجرى مائى قديم كان يجرى غرب النيل الحالى ويصب فى هذه المنطقة ثم فى الجزء الأعلا من وادى النيل المصرى من بنى سويف جنوبا تتكون الرواسب البليوسينية من مجمعات وحصباء ورمال حملت إلى وادى النهر بواسطة روافده القديمة التى كانت تنحدر إليه من تلال البحر الأحمر . وكذلك فى الصحراء الليبية جنوب واحة سيوة وجد أن الرواسب البليوسينية عبارة عن حجر جيرى تكون فى مياه عذبة .

ويستدل من توزيع الصخور البليوسينية وصفاتها وارتفاعها على أنه فى أوائل هذا العصر بدأت حركة انخفاض كبيرة فى اليابس جعلت المستوى النسبى البحر يرتفع حتى وصل فى منتصف هذا العصر إلى ارتفاع ١٨٠ متراً فوق مستوى البحر المتوسط الحالى ، فأدى هذا إلى تراجع خط الساحل الشمالى نحو الجنوب حتى عرض

القاهرة ووادى النطرون ، وتوغلت مياه البحر المتوسط فى نهر النيل وحولت جزءا طويلا من واديه إلى خليج بحرى . وقد اتصل البحر الأحمر فى هذا العصر بالمحيط الهندى لأول مرة عن طريق باب المندب ومن الجائز أنه اتصل بالبحر الأبيض كذلك ، وبذلك أصبح الاتصال المائى موجوداً بين البحر المتوسط والمحيط الهندى عبر البحر الأحمر . (انظر شكل ٢٩)

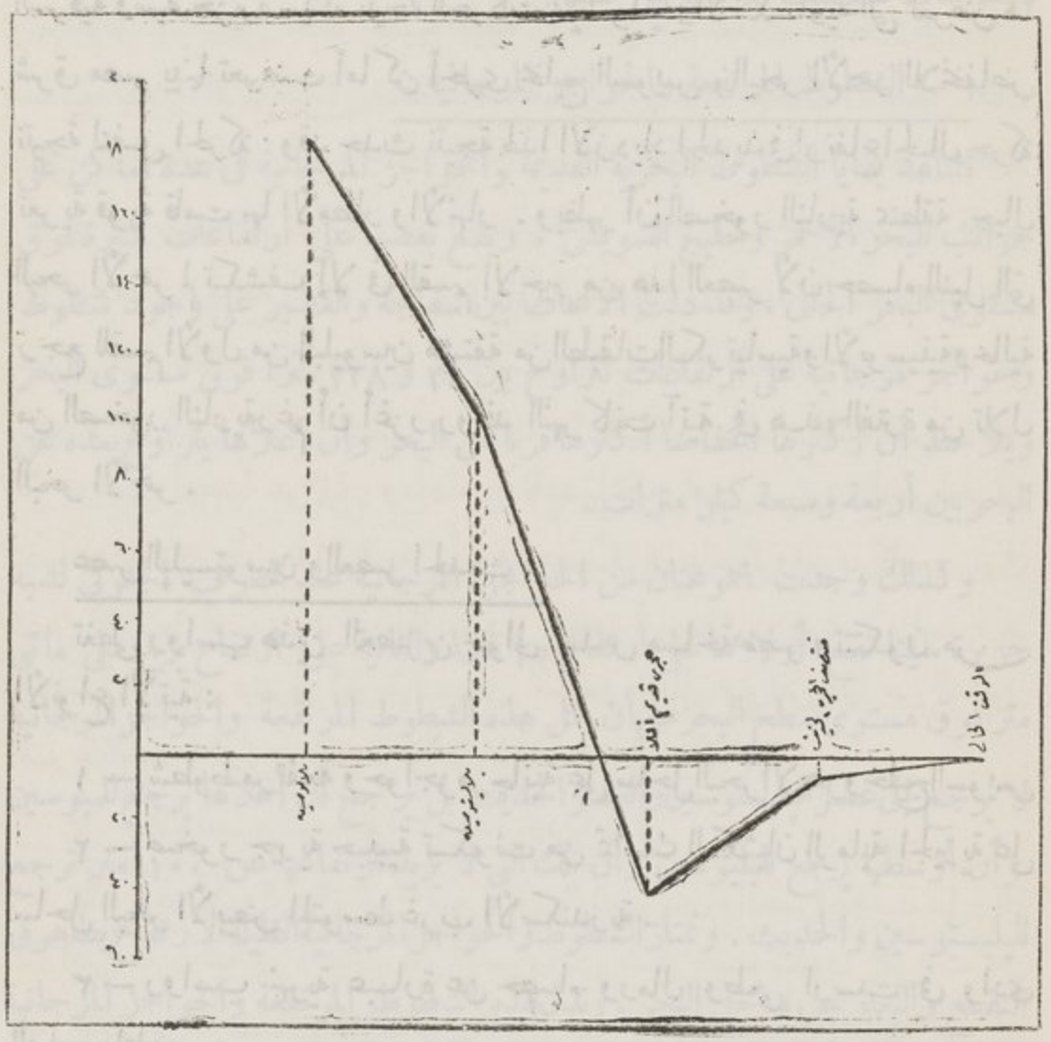

شكل ٢٩ — خط بيانى يوضح مستوى البحر القديم بالنسبة لمستواه الحالى

ثم فى أواخر هذا العصر وقف انخفاض اليابس وتلته حركة ارتفاع صحبت فى الجزء الشرقى من الإقليم بالتواء شديد وانكسار . ولقد كان خليج النيل ـ قبل أن تبدأ حركة الارتفاع الأخيرة ـ قد ملىء معظمه بالحصباء والرمال التى جلبتها المجارى والسيول

المنحدره من الصحارى التى على جانبى النهر ، فلما ارتفعت الأرض وتراجع ساحل البحر وردم الخليج بالرواسب أخذ النيل ينحت مجراه النهائى خلال هذه الرواسب المتراكمة فترك بذلك مراحل متعاقبة من مدرجات الحصباء تمثل مراحل نحته المتعاقبة كما تمثل أدوار مستوياته التى كان يجرى عليها والتى كانت آخذة فى الإنخفاض تدريجيا كلما انخفض مستوى البحر . وفى نفس الوقت ازداد ارتفاع جبال الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء نتيجة للحركات الإلتوائية والانكسارية التى تعرض لها شرق مصر بينما تعرضت أماكن أخرى بخليج السويس والبحر الأحمر للانخفاض نتيجة لنفس الحركة . وقد حدث نتيجة لهذا الازدياد الجديد فى ارتفاع الجبال حركة تعرية قوية قامت بها الأمطار والأنهار . ويظهر أن الصخور النارية بمنطقة جبال البحر الأحمر لم تكشف إلا فى القسم الاخير من هذا العصر لأن حصباء النيل التى ترجع للقسم الأول من البليوسين مشتقة من الطبقات الكرتياسية والأيوسينية وخالية من الصخور النارية رغم أن أغزر روافد النهر كانت آتية فى هذه الفترة من تلال البحر الأحمر .

عصر البليستوسين والعصر الحديث :

تغطى رواسب هذين العصرين حوالى سدس مساحة مصر وتتكون من الأنواع الآتية :

١ — شطوط مرتفعة وحواجز مرجانية على ساحل البحر الأحمر وخليج السويس

٢ — صخور جيرية حبيبية تكونت من تماسك الكثبان الرملية الجيرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب الأسكندرية .

٣ — رواسب نهرية عبارة عن حصباء ورمال وطمى ارسبت فى وادى النيل ودلتاه .

٤ — رواسب بحيرية وطمى نيلى بمنخفض الفيوم .

٥ — رواسب نهرية عبارة عن حصباء ورمال بمجارى الوديان والمنخفضات بالصحارى والسهول الساحلية .

٦ — طوفا جيرية بواحتى كركور والخارجة .

٧ — كثبان رملية ومجمعات هوائية أخرى بصحراء ليبيا والقسم الغربى من شبه جزيرة سينا .

ولما كان الإنسان قد ظهر لأول مرة فى عصر البليستوسين وارتبط تاريخه بهذه التكوينات فسنصف كلا منها على حدة :

١ — الشطوط المرتفعة والحواجز المرجانية :

تشاهد بقايا الشطوط البحرية القديمة والحواجز المرجانية فى عدة أماكن على جوانب البحر الأحمر وخليج السويس ، ويقع بعضها على ارتفاعات كبيرة فوق مستوى البحر الحالى ، وقد دلت الابحاث بين سفاجة والقصير على وجود شطوط وحواجز مرجانية على ارتفاعات تتراوح بين ٢٤ و ٢٣٨ مترا فوق مستوى البحر ويلاحظ أن أكثرها انخفاضا أكثرها قربا من البحر وأن أعلاها يتراوح بعده عن البحر بين أربعة وسبعة كيلو مترات .

وكذلك وجدت مجموعتان من الحواجز المرجانية عند الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سينا تقع أولاهما على ارتفاع ٢٥ مترا والثانية على ارتفاع يزيد على مائتى متر فوق مستوى سطح البحر على أن كل هذه الشطوط المرتفعة والحواجز المرجانية لا يرجع إلى عصر البليستوسين والعصر الحديث بل يرجح أن أعلاها يرجع للميوسين وأن أوسطها يرجع للبليوسين وأن تلك التى لا يزيد ارتفاعها عن ١٠٠ متر ترجع للبليستوسين والحديث . وتمتاز الشطوط والحواجز المرجانية القليلة الارتفاع بظاهرتى التقطع والبعد عن ساحل البحر . وتدل هذه الشطوط المرتفعة والحواجز المرجانية فى مجموعها على أنه منذ بدء البليستوسين حتى الوقت الحاضر تعرضت الأرض المطلة على البحر الأحمر وخليج السويس لحركة ارتفاع وصلت بمستواها إلى مائة متر فوق مستوى البحر الحالى أو أن البحر هو الذى انخفض بهذا القدر ، ويعزى لهذه الحركة انحسار الماء نهائيا عن برزخ السويس .

٢ — الحجر الجيرى الحبيبى :

من أهم الظواهر التى تستلفت الانظار على ساحل البحر المتوسط غرب الأسكندرية وجود ثلاث حافات من الحجر الجيرى الحبيبى يبلغ ارتفاعها ٢٠ مترا فاكثر تمتد موازية للشاطىء مسافات طويلة ، فأما الحافة الأولى فتمتد بقرب الساحل وأما الثانية فتسير موازية للأولى وعلى بعد بضعة كيلومترات منها ، وأما الثالثة فتقع بين الحافة الثانية وبين حافة الهضبة الليبية . وتشغل المستنقعات الملحة والرواسب الطفلية بعض الأماكن المنخفضة المحصورة بين هذه الحافات . ويقل سمك الرواسب الحبيبية عند قاعدة حافة الهضبة الليبية وترتكز فى هذه الناحية على الصخور الجيرية الميوسينية التى تتكون منها الهضبة نفسها . وأما من ناحية البحر فإن قاعدة الرواسب الحبيبية تقع تحت المستوى الحالى للبحر بحوالى ٤٣ مترا . ويستنتج من عدم وجود حالة طباقية حقيقية بهذه التكوينات ومن الانصقال الشديد لذراتها أن هذه الرواسب الحبيبية نشأت من تماسك الكثبان الرملية الشاطئية القديمة ، فهى إذا رواسب أرضية هوائية ، وما دامت قاعدتها تقع تحت مستوى البحر الحالى بمقدار ٤٣ مترا ، فأن هذا يدل على أنه فى بدء تكون هذه الرواسب كان مستوى البحر المتوسط تحت مستواه الحالى بمقدار ٤٣ متراً ، وهذا بدوره يجعل ساحله ابعد نحو الشمال بمقدار عشرة كيلومترات عن الساحل الحالى ويوافق هذا من العصور البشرية العصر الحجرى القديم الأعلى (الحضارة السبيلية) .

٣ — الرواسب النهرية بوادى النيل ودلتاه :

تظهر الحصباء والرمال التى ترجع لعصر البليستوسين والعصر الحديث على حافة الأراضى الزراعية فى أجزاء كثيرة من وادى النيل حيث تكون مجموعات من المدرجات على ارتفاعات مختلفة فوق قاع الوادى تمثل المستويات المختلفة التى كان يجرى عليها النهر فى الماضى ثم أخذ فى تعميق مجراه شيئا فشيئا تاركا على جانبيه هذه المدرجات . ولما كان العامل الرئيسى الذى دفع النهر إلى تعميق مجراه هو انخفاض مستوى البحر بالنسبة للأرض فإن هذه المدرجات تدل فى الوقت نفسه على المستويات القديمة للبحر .

وتدل هذه المدرجات على أنه بعد نهاية البليوسين استمر مستوى البحر فى الانخفاض ، واستمر النهر فى نحت مجراه خلال الرواسب البليوسينية حتى قرب نهاية البليستوسين أى حتى بعد ظهور الإنسان على مسرح الحياة بمدة طويلة . وحوالى منتصف الحضارة الموستيرية (أى العصر الحجرى القديم الأوسط وكان هذا فى أواخر البليستوسين) كان البحر المتوسط قد هبط إلى حوالى ١٢ متراً تحت مستواه الحالى ، كما هبط النيل — نتيجة للنحت — فى عرض القاهرة إلى حوالى ١٧ متراً تحت مستواه الحالى ووصل نمو الدلتا إلى خط تسعين كيلو مترا شمال القاهرة . ثم تنعكس الحركة ويأخذ البحر فى الارتفاع حتى إذا كانت نهاية الحضارة الموستيرية يكون قد ارتفع إلى مستوى ١٦ متراً فوق مستواه الحالى ، كما أن النهر فى عرض القاهرة ارتفع سبعة أمتار فوق المستوى الحالى بينما تراجع خط ساحل الدلتا إلى خط ٨٢ كم شمال القاهرة . ثم فى العصر الحجرى القديم الأعلا (السبيلى الأعلا) انعكست الحركة مره أخرى إذ انخفض البحر من جديد فوصل إلى أقصى إنخفاضه وهو ٤٣ متراً تحت مستواه الحالى ، كما انخفض النيل فى عرض القاهرة إلى ٣٣ متراً تحت مستواه الحالى وتقدم خط الساحل الشمالى حتى تجاوز حده الحالى بمقدار ١١ كم ثم بعد الحجرى القديم الأعلا تنعكس الحركة ويرتفع كل من البحر والنيل حتى أصبح مستواهما فى منتصف العصر الحجرى الحديث (٦٠٠٠ ق . م) أعلا من مستواهما الحالى بمقدار ثمانية أمتار ، وتبع هذا تراجع خط الساحل الشمالى نحو الجنوب حتى أصبح شمال الخط الحالى بحوالى ثلاثة كيلومترات فقط . ثم تستمر حركة الارتفاع حتى الوقت الحاضر وقد نتج عنها أن تراجع خط الساحل الشمالى نحو الجنوب إلى موقعه الحالى (أنظر شكل ٣٠) .

وخلال الفترة الطويلة التى تكونت فيها المدرجات النهرية فى وادى النيل كان النهر يلقى فى الخليج البحرى الذى يصب فيه شمال القاهرة مباشرة كميات كبيرة من الحصباء والرمال انتشرت فى الخليج على شكل دلتا . وأما الطين الذى يغطى فى الوقت الحالى سطح وادى النيل ومعظم دلتاه ، والذى يكون أرض مصر الصالحة للزراعة

فقد أرسب كله بواسطة مياه الفيضان خلال العصر الجيوليوجى الحديث وأصبح هذا الطمى يغطى الرواسب القديمة السابقة المؤلفة من الحصباء والرمال إلا فى أجزاء قليلة جداً تبرز فيها الرواسب القديمة على شكل جزر وسط السهل الفيضى ، ويبلغ سمك طمى النيل نفسه — أى الطبقة العليا من الرواسب — حوالى عشرة أمتار وهو مركب من مادة معدنية دقيقة التقسيم مع خليط قليل نسبياً من الرمل وقد أرسبت هذه الطبقة العليا خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة وما زال إرسابها مستمرا . ونجد تحت هذه الطبقة العليا المكونة من طمى النيل النقى طبقة أخرى سميكة مكونة من الرمل والطين أرسبها النهر فى فترة الانتقال من الحجرى القديم إلى الحجرى الحديث .

شكل ٣٠ — مراحل نمو الدلتا وتراجع الساحل

ويوجد فى جنوب مصر بين وادى حلفا ونجع حمادى رواسب سميكة علا جانبى النيل تتكون من طمى خشن يرجع للقسم الأول من الحجرى القديم الأعلا

(السبيلى الأسفل) ، وتتدرج هذه الرواسب من إرتفاع ٣٠ متراً فوق مستوى السهل الفيضى الحالى عند وادى حلفا إلى ستة أمتار فوق مستوى هذا السهل عند الأقصر ، ثم تصبح فى مستوى السهل عند نجع حمادى . وهذا الطمى الخشن — الذى لا يقتصر وجوده على وادى النيل بل يمتد مسافات بعيدة فى الصحراء — لا يمكن تمييزه فى معظم الأحيان عن طمى النيل الحالى ، ولكن ثبتت عراقة قدمه من العلاقات الطباقيه والآلات الحجرية التى يضمها . وتسد هذه الرواسب افمام وديان الصحراء الشرقية فى مصر العليا مما يدل على أن الظروف الصحراوية بدأت فى القسم الجنوبى من مصر فى نهاية الحجرى القديم الأوسط .

٤ — الرواسب البحيرية وطمى النيل بمنخفض الفيوم :

تغطى الحصباء والرمال ذات الأصداف العذبة التى ترجع لأواخر البليستوسين والعصر الحديث مساحات كبيرة من الجهات المحيطة بمنخفض الفيوم حيث تكون عدة مدرجات على ارتفاعات مختلفة يصل أعلاها إلى ٤٤ متراً فوق مستوى سطح البحر . وهذه المدرجات عبارة عن شواطىء قديمة لبحيرة داخلية عذبة كانت تستمد ماءها من النيل ولم يكن سطحها على مستوى واحد فى العصور المختلفة . وتدل دراسة هذه المدرجات على أن منخفض الفيوم تم تكوينه ووصل أقصى عمقه قبل أن يتصل بنهر النيل ، ثم تدفقت مياه النيل إلى هذا المنخفض فى القسم الأخير من الحجرى القديم الأسفل فملأته وكونت بحيرة على مستوى ٤٠ مترا فوق مستوى البحر الحالى أى أقل بمتر أو مترين من مستوى النيل فى ذلك الوقت فى عرض الفيوم . ومعنى هذا أن البحيرة شغلت المنخفض كله وكانت مساحتها تساوى مساحة بركة قارون الحالية أربع عشرة مرة ، كما كان حجمها يساوى حجم هذه البركة بأكثر من مائة مرة . ولكن حدث فيما بعد — بين الحجرى القديم الأسفل والحجرى الحديث — أن تعرض مستوى البحيرة ، وتبعاً لذلك مساحتها وحجمها ، إلى سلسلة من الذبذبات نتيجة لتغيرات مستوى النيل الذى كان على اتصال تام بها . وقد انتهى الأمر بانفصال البحيرة عن النيل .

وإذا انتقلنا إلى العصور التاريخية نجد هيرودوت يخبرنا بأن أحد ملوك الأسرة ١٢ أعاد الاتصال بين النيل والبحيرة فارتفع مستوى البحيرة حوالى ٢٠ مترا فوق مستوى البحر الحالى واستمر مستواها على هذا الارتفاع وهذا الاتصال بالنيل مدة الف عام من عهد هذا الملك . ثم تدل أقوال المؤرخين على أنه فى عهد بطليموس الثانى لم يكن هناك إتصال بين النيل والبحيرة إذ انخفض مستواها إلى ما دون مستوى البحر الحالى وربما كان ذلك نتيجة للتحكم فى مياه النهر ومنع انسيابها إلى البحيرة ، وكان انخفاض مستواها ضئيلا فى عهد البطالسة ، ثم استمر فى النزول إلى أن أصبح فى الوقت الحالى ٤٥ متراً تحت البحر .

وتغطى سطح منخفض الفيوم طبقة من الطمى لا تختلف فى نوعها ولا فى عمرها عن طمى وادى النيل ودلتاه . وتدل خطوط الارتفاعات المتساوية على أن طبقتى الحصباء والرمل اللتين ترجعان للعصر الحجرى القديم الأسفل والأوسط ثم طبقتى الرمل والطين اللتين ترجعان إلى ما بعد هذين العصرين أرسبت فى معظمها فى شكل دلتا بحيرية انتشرت على شكل مروحة إبتداء من النقطة التى دخلت منها مياه النيل إلى المنخفض .

٥ — الرواسب الطميية فى الوديان الجافة والمنخفضات بالصحراء والسهول الساحلية

تتكون قيعان الوديان الجافة المنصرفة من الصحراء الشرقية إلى النيل من مادة طميية منحوتة من جبال البحر الأحمر . وهذه المادة الطميية عبارة عن كتل وجلاميد بالقرب من رءوس الوديان ولكن كلما اتجهنا نحو مجراها الأدنى تتحول هذه الكتل إلى حصباء ورمال حتى إذا وصلنا إلى مجراها الأدنى نجد الطبقة السطحية من قيعان الوديان عبارة عن رمل ناعم وطمى خشن وهى طبقة رقيقة لا تلبث أن تتحول على عمق قليل إلى متراكمات سميكة من الحصباء والجلاميد ، ونجد أفمام كثير من هذه الوديان مسدودة برواسب الطمى الخشن الذى يرجع إلى العصر الحجرى القديم

الأعلا . وتوجد بهذه الوديان ـ ولا سيما أكثرها اتساعا ـ مدرجات شبيهة بتلك التى توجد على جانبي وادى النيل . وقد سجلت فى وادى قنا المستويات ٣٤ و ١٥ و ٣٩ متراً فوق قاع الوادى ودلت آلاتها الحجرية على أنها ترجع للحضارة الشيلية ثم للحضارة الموستيرية ومعنى هذا أنها تشبه فى مستوياتها ونوع آلاتها مدرجات وادى النيل ، وهذا دليل على أن وادى قنا كان متصلا بوادى النيل فى ذلك الوقت وعلى أن أمطار الصحراء الشرقية فى هذه الفترة كانت من الغزارة بحيث تمكن وادى قنا من الجريان حتى يصب فى نهر النيل . ثم ساد بعد ذلك عصر الجفاف وانقطع وادى قنا عن الجريان المنتظم ، وسدت الرواسب مصبه ولم يعد يستطيع الاتصال بنهر النيل . وبعكس الحال فى الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا نجد أن الصحراء الغربية لا تخترقها إلا وديان قليلة تنصرف شرقا نحو نهر النيل أو شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط ، وبعضها ينصرف إلى قلب الصحراء نحو المنخفضات المبعثرة فيها . على أن هذه الوديان كلها كانت من الضعف والقصر بحيث لم تستطع الوصول إلى نهر النيل أو البحر الأبيض المتوسط .

وكذلك توجد أشرطة طويلة من الأرض تحف بالبحر الأبيض المتوسط شرق دلتا النيل وغربها يغطيها الطفل ، وهى الأرض التى يزرعها البدو فى الوقت الحاضر وقد تكونت هذه الأشرطة من الرواسب التى جلبتها المجارى المائية المنحدرة من الصخور الميوسينية الرملية والجيرية والطينية ونثرتها فى هذه الجهات . وما زال تراكم الطفل مستمراً نتيجة لسقوط المطر الغزير بين حين وآخر فتسيل الأودية من التلال نحو السهول الساحلية حيث تنثر حمولتها من هذه الرواسب الطينية الخشنة .

٦ — الطوفا الجيرية فى الواحة الخارجة وواحة كركور :

سفح الحافة الشرقية لمنخفض الواحة الخارجة مغطى فى عدة أماكن برواسب سطحية من الطوفا الجيرية التى يدل وقوعها فوق الصخور الأقدم المكونة للحافة

نفسها على أنها أرسبت بعد تجوف منخفض الواحة ووصوله إلى العمق الحالى .

وهذه الطوفا نوعان يرجع كل منهما إلى عصر مختلف :

النوع الأول : وهو الأقدم مرتكز على صخور الحافة نفسها التى ترجع للزمن الثالث وهو عبارة عن تكوينات سميكة تتحول إلى لون أزرق غامق على السطح ، ويظهر أن أرساب هذه الطوفا سابق فى الزمن للعصر الحجرى القديم الإسفل .

النوع الثانى وهو الأحدث مرتكز على مجمعات وحصباء مجروفة من الحافة وهى ذات تركيب مسامى تتحول إلى لون أسود باهت على السطح وتحتوى على أوراق وفروع أشجار وعلى أصداف مياه عذبة . ويرجع تكوينها للعصر الحجرى القديم الأسفل والأوسط .

ويظهر أن كلا النوعين من الطوفا أرسبا فى مياه عذبة ، ولهذا تدل هذه الطوفا والبقايا النباتية المحتوية عليها على أن المناخ أثناء ارسابها كان أكثر رطوبة من الوقت الحاضر ، ولكن يدل قلة امتدادها على أن المطر المحلى لم يكن غزيرا .

وتوجد فى منخفض واحة كركور وحولها — وهو منخفض أصغر مساحة وأقل عمقا من منخفض الواحة الخارجة — رواسب طوفا مسامية شبيهة بطوفا الواحة الخارجة وربما ترجع لنفس العصر .

٧ — الكثبان الرملية والتكوينات الهوائية الأخرى :

تغطى الكثبان الرملية مساحات كبيرة من سطح الصحراء الليبية والقسم الشمالى من شبة جزيرة سينا ، وتتخذ من الأجزاء الشمالية والوسطى من الصحراء الليبية شكل خطوط طويلة من المجمعات الرملية يصل ارتفاعها فى بعض الأحيان بين ٣٠ و ٤٠ متراً ، ويتبع إتجاهها إتجاه الرياح السائدة وتمتد مسافات طويلة تبلغ أحيانا مئات الكيلو مترات دون أن تتخلله ثغرة واحدة . أما فى الأجزاء الجنوبية من الصحراء الليبية فتكون هذه المتراكمات الرملية المنقولة سهولا يغلب عليها الإستواء

وتتموج تموجاً قليلا فى بعض الأماكن . وكذلك تشغل هذه الكثبان فى شمال سينا مساحات واسعة تحف بساحل البحر الأبيض المتوسط وتبلغ ارتفاع الكثبان الليبية ولكنها أقل منها ترتيباً وتماسكا ، فالكثبان السينائية تحتوى غالباً على تجاويف تشغلها الآبار وغابات النخيل . وقد تكونت هذه الكثبان ـ سواء ما كان منها فى الصحراء الليبية أو فى شبه جزيرة سينا ـ فى البليستوسين والعصر الجيولوجى الحديث .

مدى ارتباط المدرجات النهرية بالتغيرات المناخية وتذبذب مستوى سطح البحر

ظل العصر المطير سائدا فى شمال شرق أفريقية من البليوسين حتى العصر الحجرى القديم الأعلا ولا سيما فى وادى النيل الأدنى حيث استمر المطر يسقط بانتظام إلى قبيل العصر الحجرى الحديث . ويمكن أن نرجع تتابع المدرجات فى وادى النيل إلى عامل رئيسى هو التغير فى مستوى سطح البحر كما يمكن الربط بين هذه المدرجات وبين شطوط البحر الأبيض المتوسط التى أشرنا إليها فى الفصل الأول على النحو الاتى :

أولا : المدرج : ٩٨ ـ ٨٠ مترا (٣٢٠ ـ ٢٦٥ قدماً) يقابل مدرج الجزائر ٣٥٥ ـ ٣٠٥ قدما الذى يعين مرحلة البحر الأبيض العامة المعروفة باسم المرحلة الصقلية (١٠٠ ـ ٩٠ مترا) وتعتبر هذه المرحلة أقدم مرحلة فى البليستوسين ومعنى هذا أن مدرج النيل المعاصر لها يعين بدء البليستوسين . وتدل الحالة بالدلتا فى هذه المرحلة على انخفاض مستمر فى مستوى البحر أدى إلى تكوين المدرجات مع وجود وقفات تشبه تلك المعروفة فى البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة .

ثانياً : المدرج ٣٠ مترا (١٠٠ قدم) ولهذا المدرج أهمية خاصة لاحتوائه على آلات من العصر الحجرى القديم الأسفل (شيلية وأشولية) وهو يعاصر المرحلة التيرانية من مراحل البحر المتوسط العامة (٣٥ ـ ٣٠ مترا أو ١١٥ ـ ١٠٠ قدم)

ثالثا : المدرج ١٥ مترا (٥٠ قدما) وحضارته أشولية وهو يقابل المستوى

الأساس من المرحلة الموناستيرية monastirian (٢٠ — ١٨ متراً أو ٦٥ — ٦٠ قدما)

رابعاً : المدرج ٩ متر (٣٠ قدما) ويقابل المستوى الأخير من المرحلة الموناستيرية (٨ — ٦ متر أو ٢٥ — ٢٠ قدماً) ويتطلب هذا أن نفرض أنه بين مرحلة الخمسة عشر متراً ومرحلة التسعة أمتار انخفض البحر عند مصب النيل تحت مستواه الحالى أو أن النهر هو الذى ارتفع بسبب حركة أرضية ، ويتفق هذا مع ماهو معروف عن المراحل العامة بالبحر الأبيض المتوسط . ويعاصر هذا المدرج حضارة العصر الحجرى القديم الأوسط (الموستيرى أو الليفالوازى) .

ولا بد أن ندخل فى حسابنا عاملا آخر أثر فى تكوين المدرجات وهو التغير المناخى وما يتبعه من تغير فى النظام المائى للنيل وما يتبع ذلك من تفاوت فى كمية المياه ونوع المواد التى يحملها النهر . فالمدرجات مكونة من مادة محلية جرفها إلى الوادى المطر المحلى ولا سيما مطر الصحراء الشرقية . وعلى هذا كان من الضرورى إدخال التغيرات المناخية فى حسابنا عند تفسير نشأة هذه المدرجات . وكانت التعرية تنشط فى تلال البحر الأحمر خلال الدور المطير وبذلك تزداد كمية المواد التى تحملها مجارى الصحراء الشرقية إلى النيل فإذا ما صادفت تلك المواد ظروفا ملائمة مثل ارتفاع مستوى البحر فأن هذا يساعد النهر على الاحتفاظ بهذه المواد ونشرها على جانبيه على هيئة مـــدرجات . وأما فى الدور غير المطير فأن مجارى الوديان تصبح محدودة وتبعاً لذلك يصبح مجرى النيل نفسه محدوداً وتكون وظيفته فى هذا الدور النحت وليس الأرساب . ولو فرض وارتفع مستوى البحر خلال فترة غير مطيرة فإن هذا لا يؤدى وحده إلى تكون مدرج لأن المادة غير موجودة .

ومعنى هذا أن تكوين المدرجات يرجع إلى اشتباك عوامل ثلاثة :

١ — التغيرات فى مستوى سطح البحر ٢ — التغيرات المناخية .

٣ — التغيرات فى نظام النيل المائى وما يتبع ذلك من تفاوت فى كمية المياه ونوع المواد التى يحملها النهر .

وتوجد بقايا المدرجات النهرية على طول جانبي النيل وهى عبارة عن حصباء وقد كون النهر هذه المدرجات فى مراحل متعاقبة من الانخفاض حينما كان يعمق مجراه بالتدريج منذ أواخر البليوسين ويوضح ذلك (شكل رقم ٣١) فى هذا الشكل نجد المدرجات الخمسة العليا المرموز لها بحرف د تقع على ارتفاعات ١٤٠

شكل (٣١) قطاع فى وادى النيل يوضح تعاقب المدرجات .

(ا) أحجار جيرية وطينية من عصرى الكريتاسى والأيوسين وقد حفر النهر واديه الصخرى خلالها فى عصر الميوسين .

(ب) كتل من الصخور الجيرية منزلقة وساقطة على جنبي وادى النهر الصخرى .

(ج) تكوينات من المجمعات والحصباء والرمال ملأت فجوات الصخور السابقة .

(د) مدرجا نهرية من أواخر البليوسين وأوائل البليستوسين .

(هـ) مدرجات نهرية من العصر الحجرى القديم الاسفل تضم آلات شيلية وأشولية .

(و) مدرجات نهرية من العصر الحجرى القديم الأوسط تضم آلات موستيرية .

(ز) طبقه سفلى من الطمى والرمال والحصباء ترجع للعصر الحجرى القديم الأعلا (العصر السبيلى)

(ح) طمى النيل الحديث وهو الذى يكون الاراض الزراعية والسهل الفيضى الحالى .

(ط) مجرى النيل الحالى .

و١١٥ و ٩٠ و٦٠ و ٤٥ متراً على الترتيب فوق مستوى السهل الفيضى الحالى . وهذه المدرجات لا تحتوى على أية مواد من مخلفات إنسان فجر التاريخ ويظن أن النهر كونها فى أواخر البليوسين أو أوائل البليستوسين ويمكن القول على التحديد أن المدرجين العلويين منها اللذين يقعان فى القسم الشمالى من الوادى يرجعان لأواخر البليوسين وأن الثلاثة الأخرى ترجع لأوائل البليستوسين ويمكن تتبعها على مسافات متباعدة على طول الوادى بين وادى حلفا والقاهرة .

وأما المدرجان التاليان المرموز لهما بحرف ه فيوجدان على ارتفاع ٣٠ و ١٥ متراً فوق مستوى السهل الفيضى الحالى ويمكن أيضاً تتبعهما على مسافات متباعدة بين وادى حلفا والقاهرة ، وهما يتبعان العصر الحجرى القديم الأسفل فيحتوى مدرج الثلاثين متراً على الألات الشيلية ومدرج الخمسة عشر متراً على الألات الأشولية . وأما المدرجان التاليان المرموز لهما بحرف و فيتبعان الحجرى القديم الأوسط فيحتوى أعلاهما على آلات من أوائل العصر الموستيرى ويمكن تتبعه على ارتفاع متساوى قدره تسعة أمتار فوق مستوى السهل الفيضى الحالى بين أسوان وأسيوط وأما شمال أسيوط فيظهر أن النعرية أزالت هذا المدرج . ويشمل المدرج الثانى آلات موستيرية صميمة ويمكن تتبعه على ارتفاع ثلاثة أمتار فوق مستوى السهل الفيضى الحالى بين أسوان والأقصر وأما شمال ذلك فيظهر أنه ينزل تحت مستوى السهل الفيضى الحالى ويختفى تحته . على أنه توجد بين نجع حمادى والقاهرة حصباء موستيرية على ارتفاعات تتراوح بين ٣ و ٨ متراً فوق مستوى السهل الحالى وتدل آلاتها على أنها ترجع لأواخر الموستيرى أى أنها أحدث من آلات مدرج ٣ متر الموجود فى جنوبها . ويستدل من ذلك على أنه خلال أواسط الموستيرى خفض النيل سهله الفيضى إلى المستوى الذى يكون فيه النهر فى الوقت الحالى عند الأقصر أثناء التحاريق وأقل من المستوى الذى يكون فيه النهر فى الوقت الحالى عند القاهرة أثناء التحاريق ثم فى أواخر الموستيرى رفع النيل سهله الفيضى إلى حوالى ٤ متر فوق مستوى السهل الفيضى الحالى عند الأقصر وحوالى ٨ متر فوق مستوى السهل الفيضى الحالى عند القاهرة .

وفى المنطقة بين وادى حلفا ونجع حمادى نجد مدرجات الحجرى القديم الأوسط — فى معظمها — مدفونة تحت رواسب الطمى الخشن silt السميكة التابعة للعصر الحجرى القديم الأعلا (السبيل الأسفلى) التى ترتفع إلى حوالى ٣٠ مترا فوق مستوى السهل الفيض الحالى عند وادى حلفا ثم يتناقص ارتفاعها تدريجيا كلما اتجهنا شمالا حتى تصبح ستة أمتار فقط عند الأقصر وتصبح فى مستوى

السهل عند نجع حمادى . ولقد اخترق النهر وروافده بعد ذلك هذا الطمى الخشن التابع للسبيلى الأسفل الذى لا يقتصر وجوده على وادى النيل بل يمتد مسافات بعيدة فى الصحراء عند وادى حلفا وأبو سمبل وفى سهل كوم امبو ولقد تكونت نتيجة لذلك مدرجات تضم آلات من السبيلى الأوسط على ارتفاع ٢١ مترا ـ فوق مستوى السهل الفيض الحالى ـ عند وادى حلفا و ١٢ مترا عند دراو . كما وجدت فى هذه الرواسب آلات من السبيلى الأعلا على ارتفاع ١٢ مترا — فوق مستوى السهل — عند وادى حلفا . كما وجدت حصباء بها آلات سبيلى أوسط فى مجرى النيل على مستوى ٣٩ مترا فوق مستوى البحر عند جزيرة شيبه على بعد ١٦ كم جنوب أبو قرقاص وعلى مستوى ٢٧ مترا فوق البحر عند الهيبة على بعد ٤ كم جنوب الفشن. ولا ترى الرواسب السبيلية فى وادى النيل شمال الفشن لأنها دفنت تحت الطمى الحديث ، ولكن وجدت رواسب من الحصباء وطمى النيل بها آلات سبيلى أسفل على جانبي ترعة الهوارة ـ المؤدية من وادى النيل إلى الفيوم ـ على مستويات تدل على أنه فى العصر السبيلى الأسفل كان سهل النيل الفيض بجوار بنى سويف أكثر ارتفاعا منه فى الوقت الحالى بمقدار ثلاثة أمتار . ولما كانت رواسب السبيلى الأعلا لم توجد فى أى مكان بوادى النيل شمال إسوان فقد يدل هذا على أنه فى هذا العصر السبيلى الاعلا كان سهل النهر الفيض فى القسم الشمالى من مصر يقع على مستوى أقل من مستواه الحالى بكثير .

ولم تكتشف بوادى النيل فى مصر آلات من فترة الانتقال بين الحجرى القديم الأعلا والحجرى الحديث ولا من الحجرى الحديث نفسه وهذا يدل على أن النيل فى هاتين الفترتين كان يجرى على مستويات أقل من مستوياته الحالية وأن مخلفات الإنسان الذى كان يعيش فى الوادى فى هاتين الفترتين قد دفنت تحت الطمى الحديث ولا يمكن الحصول على مخلفات هذا الإنسان إلا فى الشريط الفاصل بين الصحراء الصميمة وبين الوادى الخصيب حيث لم يستطع طمى النيل الحديث أن يغطيه .

وأما عن الصلة بين مصر من ناحية ، وبين أوروبا وآسيا من ناحية أخرى فى فترة ظهور الإنسان البدائى فيمكن أن نلخصها فيما يلى :

كان هناك ارتفاع تدريجى فى اليابس منذ أواخر البليوسين حتى منتصف الحضارة الموستيرية فى مصر وقد نتج عن هذا انخفاض نسبى فى مستوى البحر من + ١٢٩ متراً إلى + ١٨ متراً . وقد أخذ البحر فى هذه الفترة ينحسر عن برزخ السويس وقد تم هذا الانحسار نهائياً حينما كان البحر على مستوى + ٤٦ وقد كان هذا قبيل سكنى الإنسان الشيلى لوادى النيل . ولما وصل البحر إلى مستوى + ١٨ (وكان هذا فى منتصف الحضارة الموستيرية المصرية) أصبحت الممرات بين تونس وصقلية وبين صقلية ومالطة وبين صقلية وإيطاليا عبارة عن أراضى يابسة تصل بين افريقية وأوروبا فانقطعت كل صلة بين الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبين الحوض الغربى وتحول الحوض الشرقى إلى بحيرة مالحة أخذ مستواها فى الانخفاض نتيجة للبخر حتى وصل إلى — ١٢ مما أدى إلى سرعة جريان الأنهار نحوها . ولكن هذا العامل الأخير بدوره — وهو سرعة جريان الأنهار نحوها — ألقى فى البحيرة بكميات كبيرة من الماء عوضت ما فقدته بسبب البخر فارتفع مستوى البحيرة من جديد حتى وصل إلى + ١٦ فانغمرت المعابر الأرضية السابقة بالماء فيما عدا الذى بين مالطه وصقلية . وفى أواخر الحضارة الموستيرية أخذ اليابس فى الارتفاع قليلا ولذلك نجد أن الاتصال بين الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبين الحوض الغربى لايدوم ويتحول الحوض الشرقى إلى بحيرة مالحة مرة أخرى بسبب بروز المعابر الأرضية السابقة. ونتيجة للبخر المستمر فى البحيرة ينخفض مستواها إلى — ٤٣ متراً ثم أن هذا الانخفاض بدوره أيضاً يؤدى إلى زيادة انحدار المياه إلى البحيرة وتعويض ما فقدته من البخر وبذلك يرتفع مستواها ويعود الاتصال بينها وبين الحوض الغربى وتتلاشى المعابر الأرضية السابقة جميعاً وتصبح صقلية ومالطة جزيرتين منفصلتين . وتعاصر هذه

الحوادث الفترة الفاصلة بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث .

وليس من السهل أن نثبت أن مضيق جبل طارق كان فى فترة ظهور الإنسان برزخاً يصل بين شمال أفريقية وشبه جزيرة إيبريا ، وذلك لأن هذا المضيق أعمق نسبياً من المضايق الفاصلة بين تونس وصقليه ومالطة وشبه جزيرة إيطاليا . وبالفعل يرى بعض الجيولوجيين أن جبل طارق كان منذ أوائل البليستوسين مضيقا يصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى . ولكن الأدلة البشرية تحتم القول

شكل (٣٢) يبين حوض البحر الابيض المتوسط الغربى فى فترة فرم الجليدية .

أن هذا المضيق كان برزخا فى فترتين من فترات البليستوسين تعاصر الثانية منهما تقدم جليد بهل ، وذلك أنه قد انتقلت فى هاتين الفترتين حضارة من شمال أفريقية إلى أسبانيا ، وانتقال الحضارة فى هذا العصر المبكر معناه انتقال الإنسان معها ، ولم يكن هذا الإنسان فى مرتبة حضارية تسمح له باستعمال أى نوع من أنواع القوارب ، فلا بد من التسليم إذاً بأن جبل طارق كان برزخا أيضاً فى بعض فترات البليستوسين ، سلكته الجماعات البشرية البدائية من شمال أفريقية إلى أوروبا (أنظر شكل ٣٢)

ومعنى هذا أنه فى فترة ظهور الإنسان البدائى كان هناك طريق برى بين آسيا وأفريقية عبر برزخ السويس ثم بين أفريقية وأوروبا عبر جبل طارق ثم عبر الممر « تونس صقليه إيطاليا » وقد مكن هذا من انتقال الإنسان وحضاراته بحرية نسبية بين الأجزاء المتجاورة من هذه القارات الثلاثة .

جدول يبين العلاقة بين العصور الجيولوجية والعصور البشرية

العصر الجيولوجى	العصر البشرى	تواريخ تقريبية
العصر الحديث	العصر التاريخى	من ٣٤٠٠ إلى الوقت الحاضر
	عصر ماقبل الأسرات	« ٤٥٠٠ « ٤٣٠٠ ق . م
	الحجرى الحديث	« ٨٠٠٠ « ٤٥٠٠ ق . م
	الحجرى القديم الأعلا (السبيلى)	« ٢٠٠٠٠ « ٨٠٠٠ ق . م
البليستوسين	الحجرى القديم الأوسط (الموستيرى)	« ٥٠٠٠٠ « ٢٠٠٠٠ ق . م
	الحجرى القديم الأسفل (الشيلى والأشولى)	انتهى سنة ٥٠٠٠٠ ق . م
	عصر ماقبل الإنسان فى مصر	

الفصل الخامس

حضارات العصر الحجرى القديم فى مصر

أولا : الحجرى القديم الاسفل (الحضارتان الشيلية والاشولية)

مضى على الإنسان فى مصر - كما هو الحال فى سائر انحاء العالم القديم - حين طويل من الدهر قبل أن يعرف استعمال المعادن . ولما كان فى هذه الفترة يعيش على الصيد بأنواعه فقد صنع الالات اللازمة لذلك من الحجارة والخشب والعظم . وسرعان ما أدرك صلاحية حجر الصوان لصنع الالات إذ رغم أنه حجر صلب إلا أنه يسهل تشقيقه إلى رقائق تشبه الاسلحة فهو يفوق فى هذه الميزة أنواع الحجارة الاخرى . وكان يستخرج الصوان من عروقه الموجودة داخل كتل الحجر الجيرى أو بين مجمعاته فى مجارى الانهار ، ثم يشكله الانسان إلى آلات مختلفة بطرقه بمطرقة من الحجر نفسه هى عبارة عن حصاة كبيرة مستديرة الشكل .

وقد مر الإنسان فى مصر بنفس الأدوار التى مر فيها الإنسان الأوروبى ؛ فبعد فترة العصر الحجرى القديم أو عصر « تشكيل الحجارة » يصبح الإنسان المصرى راعياً وزارعاً ويتقدم فى صناعته بسبب مقتضيات الحرفة الجديدة . ويصنع من الطين المعجون أوانى كبيرة ويطحن الحبوب بين حجرين بدائيين ، ويفصل النصال والسهام بدقة كبيرة ، ويصقل حد فأسه بعناية كبيرة . وهذا العصر الذى زاد فيه إتقان الآلات الحجرية التى اخترعها السلف والتى ظهرت فيه مميزات جديده فى الصناعة يسمى « عصر الآلات الحجرية المصقولة » تمييزاً له عن العصر السابق الذى اقتصر على تشكيل الحجارة .

وبعد ذلك نجد فى مصر — كما وجدنا فى أوروبا — فترة الإنتقال المعروفة باسم الانيوليثية حينما ظهرت بواكير استعمال المعادن ولا سيما النحاس .

ثم عرف الإنسان عدة معادن أخرى كالذهب والبرنز والحديد ، وبذلك ينتهى فجر التيريخ ويبدأ العصر التاريخى .

ولقد امتاز العصر الحجرى القديم الأسفل فى شمال أفريقيا — كما هو الحال فى جنوب أوروبا — بمناخ حار رطب . وعلى هذا ننتظر أن نجد فى هذه المنطقة بقايا الحيوانات الدفيئة التى كانت تعيش وسط الغابات الكثيفة وعلى شواطىء المجارى المائية العظيمة الموجودة فى ذلك الوقت ، ومعظم هذه الحيوانات انقرض فى الوقت الحاضر وبعضها هاجر إلى المناطق الحارة فى الجنوب لما شعر باقتراب موجة البرد التى عمت هذه الأقطار فى الفترة التالية لذلك .

ولقد أدت الأبحاث التى أجريت بشمال أفريقيا إلى أن الوصف الذى ينطبق على جنوب أوروبا وسائر حوض البحر الأبيض المتوسط من حيث الحضارة ينطبق أيضاً على شمال أفريقيا ولا غرابة فى هذا فالاتصال البرى كان موجوداً بين شمال افريقيا وبين جنوب أوروبا عن طريق جبل طارق ثم عن طريق جزيرة صقليه .

وفيما يختص بوادى النيل : كان يتمتع أيضاً بنفس المناخ الحار ونفس الحيوانات والنباتات الكثيفة بدليل الأشياء التى كشفت فى مناطق متفرقة فى مصر .

والبقايا الحيوانية المستخرجة من الخليج القديم عند سهل العباسية تعطينا بعض المعلومات عن ذلك . فالرواسب فى هذه المنطقة تحوى بقايا تماسيح وفيلة وفرس الماء وغيرها . وكما أن الحال فى مصر كان يشبه جنوب أوروبا فى المناخ والنبات والحيوان فقد كان يشبه فى الحضارات أيضاً ، فالفأس اليدوية وجدت على حافات التلال المحيطه بالنهر والمجارى المتصله به وعلى المدرجات القديمه التى ابتعد النهر عنها الان ،وفى قاع الوديان الجافة الحالية وعلى جوانبها .

ومن الأماكن التى كشفت بها هذه الألات فى العراء منطقة بيبان الملوك الموجودة على سفح الجبل المحيط بطيبة — (أنظر شكلى ٣٣ و ٣٤) ووجدت أيضا فى أبيدوس وإسنا وفى الفيوم وفى ممفيس وفى منطقة أبو النور بالقرب من نجع حمادى وفى قنا ثم منطقة الجبل الأحمر بالعباسية حيث توجد آلات من الكوارتزيت .

ومخلفات العصر الحجرى القديم الأسفل لا توجد فى مصر على شاطىء النهر وإنما توجد فى مناطق منعزلة فى الصحراء مثل الغابة المتحجرة شرق القاهرة ، وفى مناطق متفرقة على طول الطريق بين الأقصر والخارجة وبين أبيدوس والخارجة وبين اسنا وكركور . وتوجد هذه الالات فى بعض الوديان التى تصب فى النيل شمال أسوان — حيث استخدم فيها الخراسان النوبى لصنع هذه الالات — وكذلك فى سائر الواحات المصرية .

شكل (٣٣) فأس شيلية من مصر العليا .

ولقد جمعت من المنطقة الواقعة شمال اهرامات الجيزة بعض آلات وجدت على السطح فى المناطق التى لم يطغ فيها الرمل على التربة القديمة . ومن ضمن هذه الآلات السطحية بعض آلات شيلية وأشولية وبعض آلات موستيرية عبارة عن شظايا وجدت بجوار النواة التى فصلت منها .

وإلى الشمال من ذلك نجد منطقة أبو رواش التى قال عنها دى مورجان أنها ترجع للعصر الحجرى الحديث ، ولكنها فى الغالب ترجع للعصر الحجرى القديم ، وتعتبر امتداداً للمنطقة الواقعة شمال أهرامات الجيزة . وفى الحق أنه لم تعمل حفائر بهذه الجهات وكل الآلات التى جمعت منها سطحية ولو عملت بها حفاير لأمكن التثبت من المعلومات الخاصة بالعصر الحجرى فى مصر .

شكل (٣٤) يبين فاسين مصريين من العصر الحجرى القديم الاسفل
(١) فاس شيلية (٢) فأس أشولية

ولقد أدى استخراج الحصى اللازم لأعمال البناء فى القاهرة من خليج العباسية الواقع شمال شرق القاهرة إلى قطع الطبقات فى هذه المنطقة إلى عمق يزيد على ٣٠ متراً ، وبدراسة هذه الطبقات وجد فى القاع الرمال التى كانت تكون قاع الخليج فى زمن البليوسين ، وفوق ذلك طبقة من الرواسب النيلية سمكها حوالى ١٠ متر . وبدراسة الحصى المستدير الموجود فى هذه الرواسب أمكن الاستدلال على تتابع الحضارات فى مصر ، فوجدت الحضارة الشيلية وفوقها الأشولية وتختلط كل منهما ببقايا الحيوانات المعاصرة (أنظر شكل ٣٥) .

وتوجد فى الأجزاء العليا من هذه الفجوات طبقات من الصوان المستدير من جميع المقاسات متبادلة مع طبقات من الرمل المختلط بالطفل كثيراً أو قليلا . ونظام الطبقات هنا غير منتظم بل كثير التموج بحيث يصعب تعيين المستويات المعاصرة لبعضها . أما عن نوع الرواسب فقد دلت الأصداف على أنها نهرية .

وعلى عمق حوالى عشرة أمتار تختفى طبقات الحصباء كما تختفى معها الآلات ، ولا يوجد بعد هذا العمق إلا طبقة سميكة من الرمال — ربما كانت رمالا بحرية —

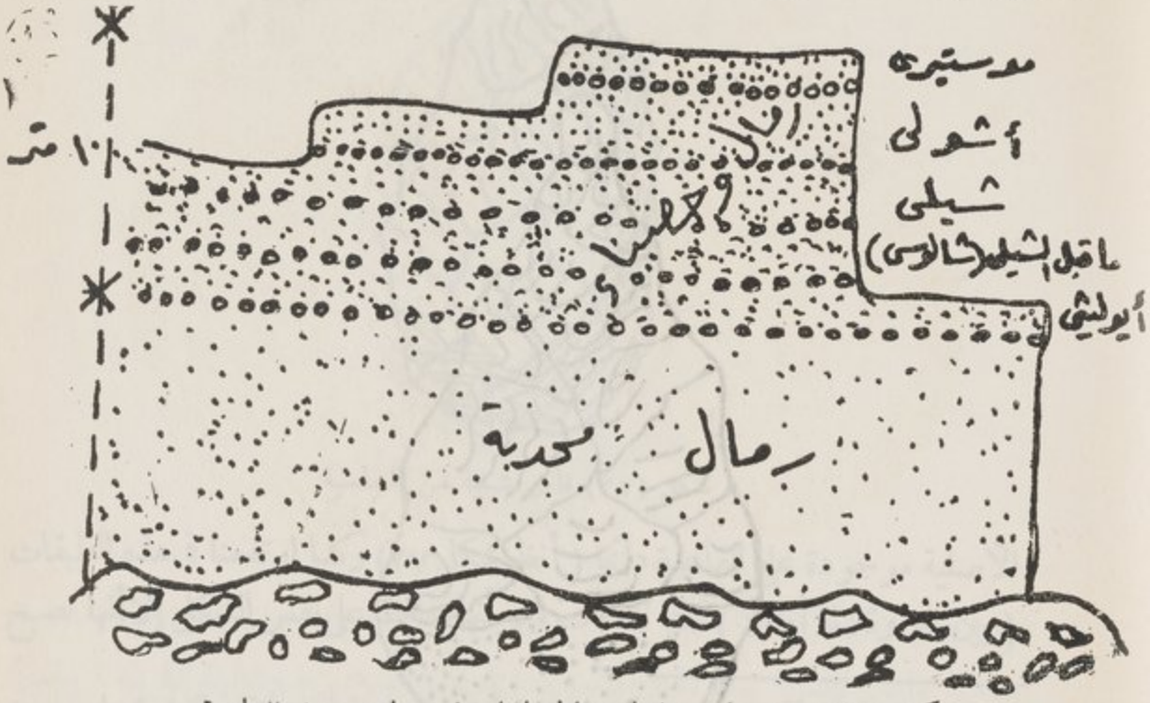

شكل (٣٥) يبين تتابع الطبقات والحضارات فى رواسب سهل العباسية

وهى ذات الوان مختلفة وخالية تماما من الالات التى من صنع الانسان . ونجد فوق هذه الطبقة المجدبه من الاثار البشرية مباشرة أقدم الالات التى صنعها الانسان ثم تتدرج فى الحداثة كلما ارتفعنا حتى نجد أحدثها على السطح . وعلى العموم نجد بكل الالات المستخرجة من هذه المستويات المختلفة علامات لا جدال فيها تدل على أنها منقولة من مكان بعيد فحافاتها مثلمه وسطحها ناعم . وقد صنعت هذه الالات من الحجر الرملى ومن الكوارتزيت وتوجد فى اعمق جزء من هذه الطبقات (أى على عمق عشرة امتار من السطح) آلات بدائية غير متقنة الصنع يمكن وضعها

فى المرتبة الأيوليثية . ثم تظهر الفؤوس فى الطبقة التى تعلوها ، وهى على نوعين :
النوع الأول : كله تقريباً من الصوان وآلاته بدائية جداً لا تتعدى كونها حصى مربعاً صغر حجمه من أعلا ببعض ضربات وابقيت القاعدة بحيث أصبح شكل الالة كالهرم الثلاثى واصبح عرضها كطولها ، وعمودها الفقرى متعرج وبدون تشذيب وهى ليست ذات سطحين كالفؤوس المعروفة فى محطتى شل وسنت أشيل بفرنسا ، بل ذات ثلاثةاسطح فهى أشبه بهرم ذى ثلاثة أوجه (أنظر شكل ٣٦) .

شكل (٣٦) فأس شالوسية من العباسية

أما النوع الثانى : فبعضه مصنوع من الصوان والبعض الاخر مصنوع من الحجر الرملى والنسبة بينهما متعادلة والشكل العام متقارب ولكنها أطول وارفع من النوع الأول ، وشكلها المثلث أكثر دقة ، وهى أيضا من غير تشذيب ومحتفظة بالقاعدة ومن المرجح أن الفؤوس التى من النوع الثانى أحدث من فؤوس النوع الأول لأنها

أكثر دقة ولو انه لا يوجد دليل طباقى على ذلك[١] .

ثم فى الطبقات العليا (من ٣ — ٥ متر) توجد فؤوس من الصوان ومن الكوارتزيت على حد سواء وتمثل هذه الفؤوس الشكل الشيلى الأصلى فهى مثلثة الشكل ولكنها مسطحة أى ذات وجهين بدلا من ثلاثة وحافاتها متعرجة والقشرة

شكل (٣٧) فاس شيلية من العباسية

الأصلية موجودة على القاعدة دائما (أنظر شكل ٣٧) وكلما ارتفعنا فى هذه الطبقات (بين متر وثلاثة أمتار) نجد الالات ولو أنها تحافظ على نفس الشكل إلا أنها تصبح

---

(١) وقد وجدت آلات هرمية الشكل شبيهة بالات العباسية فى منطقة سن الفيل بجوار بيروت ويرى دى مورجان أن الالات الهرمية أحدث من الشيلية ويضعها فى مرحلة حضارية خاصة يسميها الشالوسية . ويمكن أن نسمى الشالوسية عباسية أيضا .

ويرى بوفيه لابير أن المرحلة الشالوسية سابقة للشيلية لأنها أنل منها اتقانا ويؤيده فى ذلك Passemard نتيجة ابحاثه فى منطقة لاشالوس بفرنسا فقد وجد أن الات العباسية هى نفس الصناعة التى وجدت فى فرنسا ، وقد وجدت فى نفس الوضع الطبقى تحت طبقة الصناعة الشيلية مما يرجح أنها اقدم منها .

ويعترض الدكتور حزين على تسمية هذه الالات شالوسية ويقول أنها مجرد صناعة شيلية بدائية Pre - Chellean or Primitive Chellean بدليل وجودها تحت الطبقة الشيلية الحقيقية . وأما شكلها المثلث الذى دعا بوفية إلى اعتبارها صناعة مستقلة فانما نشا من انها صنعت من حصى مستطيل فى حين أن الشيلى صنع من حصى مستدير .

أدق تفصيلا كما تزداد فيها العناية بتشذيب حد الالة فيصبح كله أو بعضه مشذبا مما يعطى الالة الشكل المستقيم أحيانا والمنحنى أحيانا أخرى كما هو الحال فى حافات الالات الأشولية ذات الوجهين . وبعض هذه الالات يميل إلى الإستدارة ولكن الطرف دائما دقيق والقشرة الأصلية موجودة على القاعدة فى كل الأحوال. وبعض الالات الأشولية ذات مقاسات كبيرة . (أنظر شكل ٣٨)

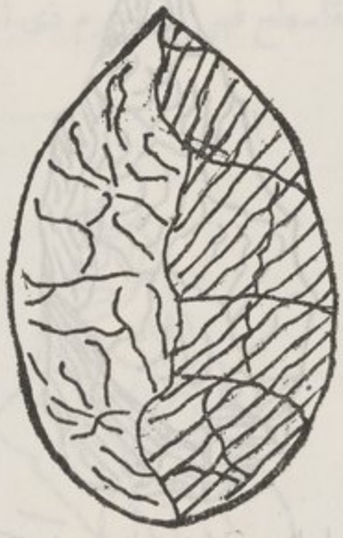

شكل (٣٨) فاس اشولية من العباسية

وأخيراً وجد فى الديسمترات العليا من هذه الطبقات مجموعة من الفؤوس الصغيرة طولها يتراوح بين خمسة سنتيمترات وسبعة ولها نفس الشكل العام المثلث المستطيل كالالات السابقة ولكنها تمتاز بأنها رفيعة خفيفة ولها حد مستقيم مشطوف بدقة . ويمكن اعتبار هذه الالات نوعا مصغرا للالات الموجودة تحتها مباشرة .

وقد وجدت هذه المجموعات المختلفة من الفؤوس مصحوبة بآلات عديدة من أشكال أخرى مختلفة منها المخارز المدببة الأطراف والأسلحة الكبيرة ذات الحدود غير المشطوفة (المتعرجة) أو المشطوفة (المستقيمة) ولكن المكاشط نادرة جدا

كل هذه الالات السابقة منقولة بواسطة المياه من مكان بعيد ثم دفنت فى هذا المكان بدون نظام وسط الحصى المستدير ، وقد جمعت عينات من الالات المصنوعة

من صخور مختلفة بقصد تحديد المصدر الذى جاءت منه هذه الالات ! فوجد أن بعضها مصنوع من الصوان المصرى وبعضها مصنوع من الكوارتز كما أن بها آلات من العقيق مع قطع مختلفة من الخشب المتحجر التى ربما يرجع جزء منها إلى الغابة المتحجرة بمنطقة القاهرة نفسها . كما وجدت بعض قطع من الصخر البللورى ربما جاءت من أقليم البحر الأحمر أو من مصر العليا . وقد لوحظ كثرة حجر السماق نسبيا بينما الجرانيت نادر مما يدعو إلى الاستنتاج بأن معظم هذه الالات والصخور جاء من منطقة تقع شمال الجندل الأول وأما قطع الجرانيت والسماق فقد جاءت من منطقة أسوان ومن جبال البحر الأحمر النارية . وقد لوحظ أن حافاتها متآكلة

شكل (٣٩) رأس حربة موستيرية من العباسية

بشدة مما يدل على أن التيار أدارها فى مجراه مسافة مئات من الكيلومترات . وأما الالات المصنوعة من الحجر الرملى فأقل تآكلا مما يدل على أنها لم تسافر مسافة طويلة ، ومن الجائز أن هذه الالات جلبتها السيول المنحدرة فى ذلك الوقت نحو النيل من المرتفعات المجاورة للغابة المتحجرة أو من الجبل الأحمر .

وأخيرا على سطح السهل وعلى عمق سنتيمترات قليلة توجد آلات من أنواع مختلفة ففيها محتات (محكات) ونوايا مشكلة بعناية بقصد الحصول على آلات مثلثة الشكل ، كما وجدت بينها عدد من الأسلحة المفصولة عن نواياها . وتدل هذه الالات فى مجموعها على أنها ترجع للمرحلة الموستيرية (أنظر شكل ٣٩) وقد حافظت هذه الالات على زواياها وقواعدها وليس بها أثر الاستدارة الموجود فى الالات

السابقة كما أن لونها كدر فهو رمادى مشرب بصفرة مختلف كثيرا عن اللون الذى رأيناه فى آلات الطبقات العميقة ، وكل هذه الأدلة تبعث على الاعتقاد بأن هذه الالات القريبة من السطح صنعت بنفس مكان وجودها (١)

وسهل العباسية ممزوج بعض الشىء فيه منخفضات ومرتفعات ، ثم هو يرتفع تدريجيا نحو الشرق إلى أن يستند على الهضبة الجيرية الواقعة فى شرقه . وقد لوحظ أن الصناعة الموستيرية تكثر فى المنخفضات بينما الصناعة الشيلية تكثر فى الثنيات المرتفعة كما تزداد فى أكثر جهات السهل ارتفاعا أى المجاورة لحافة الهضبة الجيرية .

وقد وجد بسهل العباسية كذلك آلات شيلية سطحية ، وتدل حالة هذه الالات على أنها صنعت بنفس المكان ، فالفؤوس مسطحة وزواياها حادة ليست مثلمة ، وليس بها آثار الاستدارة ولونها كدر شبيه بلون الالات الموستيرية التى قلنا أنها صنعت بنفس المكان . والتفسير الطبيعى لهذا هو أنه فى أواخر الفترة الشيلية كانت الأجزاء المنخفضة من السهل مازالت مغمورة بالمياه فلم تكن صالحة لسكنى الإنسان ولذلك لجأ هذا الإنسان إلى سكنى الثنيات المرتفعة من السهل ثم تراجع الماء فنتج عن ذلك بروز شريط من اليابس وبروز عدة جزر فوق سطح الماء ، فانحدر الإنسان الشيلى إلى هذه الاجزاء وسكنها ثم أصبح تراجع الماء تاما وبرز السهل كله فوق سطح الماء وسكنه قوم ذو صناعة موستيرية شغلوا الجهات التى سكنها الإنسان الشيلى من قبل ثم الجهات التى لم يسكنها هذا الانسان لانها كانت مغمورة بالمياه فى عهده ، وهذا يفسر وجود صناعة موستيرية صرفة فى بعض الاجزاء وصناعة موستيرية مختلطة بغيرها فى أجزاء أخرى .

وفيما عدا سهل العباسية توجد آثار إنسان العصر الحجرى القديم منتشرة على السطح فى الصحراء الواقعة شرق القاهرة بل أن هذه الاثار توجد فوق الهضبة الايوسينية نفسها الموجودة فى هذا المكان وجميع الالات التى جمعت من هذه

---

(١) يرى الدكتور حزين أن الالات التى يسميها بوفيه لا بيير موستيرية خالية من الحافات المشذبة المعروفة فى الصناعة الموستيرية الحقيقية ، ولهذا يفضل اعتبار هذه الالات ليفلوازيه .

الجهات سطحية فهى قليلة الاهمية من ناحية الدليل الطباقى ولكنها تمدنا ببعض المعلومات عن مدى انتشار إنسان العصر الحجرى القديم فى مصر وعن المناطق التى سكنها وعن نوع صناعته ودرجة حضارته .

من هذه المناطق منطقة « الجبل الاحمر » الذى هو مجموعة من النافورات القديمة حولت الرمال الموجودة فوق الحجر الجيرى الايوسينى إلى كتل متماسكة من الكوارتزيت الاحمر فاصبح عبارة عن سلسلة من المرتفعات أو القباب جاثمة فوق الهضبة ، ولذلك أطلق عليها لفظ « الجبل » . وقد وجد فى هذه المنطقة مصنع هائل تختلط فيه الصناعة الشيلية والاشولية والموستيرية . وجميع هذه الالات التى يبلغ عددها آلافا كثيرة مصنوعة من الحجر الرملى السيليسى فيما عدا آلات قليلة مصنوعة من الصوان . والحجر الرملى السيليسى ذو لون أحمر فى الغالب سهل التشكيل وسهل الكسر كالزجاج . والالات الشيلية نادرة نسبيا بهذا المكان ، أما الالات السائدة فهى ذات الوجهين الشبيهة بالصناعة الاشولية وهى آلات مشغولة بعناية وذات مقاسات أكبر من الالات الموجوده بسهل العباسية . ومن بين هذه الالات ذات الوجهين آلات مسطحة ومثلثة ذات حافات مشطوفة فى جميع الأحوال ، غير أنها ليست متناسبة فى كثير من الحالات فبعض جوانبها يكون أكثر تعرجا من الاخر

وقد وجدت هذه القطع مصحوبة بنوى شيلى (ذات الضربة الواحدة) وبنوى موستيرى (ذات الضربة المنشورية) . وبعض هذا النوى كبير الحجم لأن قطع الكوارتزيت ليست محدودة الحجم كقطع الصوان . كما وجد معها نصال عديدة طويلة فى بعض الأحيان ثم عدد كبير من المحتات وأنواع كثير من السكاكين والمكاشط والأقراص والألات المدببة الأطراف كالمثاقب . وأهم ما يميز هذه الصناعة وجود كتل كبيرة الحجم يبلغ طولها حوالى ٤٠ سم وتبلغ من الثقل بحيث لا يمكن حملها باليد الواحدة وربما كانت هذه القطع عبارة عن سنادين لأنها مطروقة بشدة فى نقط مختلفة من سطحها .

وإلى الشرق من الجبل الأحمر ، وقبل الغابة المحجرة ، توجد منطقة اخرى من

مناطق العيون تضم آلات حجرية أشولية ذات مقاسات كبيرة ، ويوجد مصنع ممتاز لهذه الألات فى جبل المقطم على فوهة إحدى العيون وعلى سفحها وهى العين المسماة بركان رينباوم Rennebaum وقد وجدت فى هذا المكان نفس الصناعة التى وجدت بالجبل الأحمر .

وانتشار الصناعة الحجرية فى هذه الجهات يدل على التغيير المناخى الذى طرأ عليها فهى الان صحراويه جافة ولكنها كانت قديما وفيرة المياه كثيرة الأشجار مما ساعد إنسان العصر الحجرى القديم على سكناها . ومما هو جدير بالملاحظة انه لم يكتشف بهذه الجهات آلات لاحقة للعصر الموستيرى فلا الحجرى القديم الأعلا ولا الحجرى الحديث يوجدان بهذا المكان مما يدل على أن هذه الجهات لم تصبح صالحة للسكنى بعد العصر الحجرى القديم .ولم توجد بقايا الهياكل البشرية الخاصة بأصحاب هذه الصناعة .

ثانياً : الحجرى القديم الأوسط (الحضارة الموستيرية)

امتدت الحضارة الموستيرية أيضا إلى شمال أفريقيا حيث توجد أدلة كثيرة تدل عليها . ولكن يلاحظ أن المناخ فى الحضارتين الشيلية والأشولية كان واحداً فى كل من شمال افريقيا وجنوب اوروبا ، ولكنه اختلف فى كل منهما اثناء الحضارة الموستيرية . فصحيح أن هناك آثار تشير الى وجود عصر جليدى فى جبال اطلس وفى جبال شبه جزيرة سينا والى استخدام كهوف الجزائر فى السكن ولكن فيما عدا ذلك تدل الاثار على أن المناخ الذى اصبح قاسيا فى برودته خلال الحضارة الموستيرية فى اوروبا لم يكن كذلك فى شمال افريقيا فى نفس هذه الفترة . ولا شك أن سبب ذلك هو الاختلاف فى خطوط العرض فى كل من الميكانين ، كما أن قلة ارتفاع الجبال فى شمال افريقيا لم يساعد على تكوين طبقات من الجليد فى عظم وكثافة الجليد الاوروبى فى فترة الفرم . وكذلك تدل بقايا الحيوانات المتخلفة من الحضارة الموستيرية فى شمال افريقيا على أن الحيوانات ولو أنها تغيرت قليلا الا

أنها ما زالت تحمل طابعها القديم وهو ملاءمتها للمناخ الحار فهى لا تحوى بقايا الماموث ولا غيره من الحيوانات الباردة التى كانت تعيش فى اوروبا فى الفترة الموستيرية .

أى أنه يمكن القول أن الظروف مع جميع نواحيها ظلت فى شمال أفريقيا كما كانت فى أثناء الحضارتين الشيلية والأشولية ،فظل الإنسان يعيش فى الهواء الطلق محافظاً على طريقة معيشته وهى معيشة الصياد المتجول . ولم تستعمل الكهوف إلا بالقرب من الجبال حيث كان الجليد محسوسا به أكثر من أى مكان آخر .

وفيما يختص بمصر لم تكشف كهوف كانت تستعمل للسكنى فى العصر الموستيرى بسبب عدم ارتفاع أرضها وإن كان يحتمل وجود بعض هذه الكهوف فى الجهات المرتفعة ولكنها لم تكتشف أوانها أخليت من محتوياتها فى العصر التاريخى حيث استعملت كاقبية جنائزية أو مقابر للحيوانات المقدسة .

وعلى العموم يمكن القول إن آثار الحضارة الموستيرية توجد فى مصر فى العراء وبعضها موجود فى نفس المحطات التى توجد فيها الآثار الشيلية والأشولية على طول وادى النيل وفى الصحراوات المحيطة به والتى كانت مسكونة فى هذا الوقت . وفى بعض الأحيان توجدا لالات الموستيرية مختلطة مع الفؤوس اليدوية التى ترجع للحضارتين السابقتين لها . ومثال ذلك ما يوجد على تخوم الصحراء وفى منطقة طيبة وفى منطقة الجبل الأحمر حتى إن البعض اعتبرها خطأ معاصرة لبعضها .

ولكن فى مناطق أخرى وجدت الالات الموستيرية منفصلة تمام الانفصال عن الالات السابقة لها فى الزمن ومثال ذلك ما وجد فى العباسية نفسها (على بعد مئات قليله من الأمتار عن الجبل الأحمر) فى منطقة العباسية وجد العصر الحجرى القديم الأسفل فى الطبقات العميقة ، وأما الحجرى القديم الأوسط فوجد على سطح الأرض .

ومثال ذلك أيضاً ماوجد فى مدرجات الفيوم حول بركة قارون ، وما وجد فى

مدرجات النيل فى مصر العليا حيث وجدت الالات الموستيرية فى المدرجات السفلى على ارتفاع قليل ، بينما المدرجات العليا تحوى الالات الأشولية والشيلية وسبب ذلك أن الناس كانوا يقتربون فى سكناهم من مجرى النهر كلما ابتعد عنهم بسبب تعميق واديه . (أنظر شكل ٤٠) .

شكل (٤٠) امثلة من الأسلحة الموستيرية
رقم (٣) موستيرى قديم . رقم (٤) موستيرى متوسط . رقم (٥) موستيرى حديث

ويلحق البعض بالحضارة الموستيرية فى افريقيا صناعتين هما العاطرية والسبيكة وهما تحملان الطابع الافريقى الصرف ، وقد وصلت آثارهما إلى اسبانيا شمالا وإلى مصر شرقا . ومثال آثار هاتين الحضارتين فى مصر ماوجد فى شمال شرق الاقصر وفى الواحه الخارجة .

ثالثاً . العصر الحجرى القديم الأعلا فى مصر

الاختلاف الذى رأيناه بين أوروبا وبين شمال افريقيه فى مظاهر العصر الحجرى القديم الأوسط يستمر فى العصر الحجرى القديم الأعلا كذلك . ففى أوروبا يستمر الانسان ملتجئاً إلى كهوفه حيث ترك طبقات أخرى من الرواسب وحيث ترك آثاراً تدل على فن حقيقى . وأما فى شمال افريقية فأن انسان العصر الحجرى القديم الأعلا ظل متمتعاً بالمناخ الدفىء الذى تمتع به سلفه الانسان الموستيرى . على أنه فى الأماكن الجبلية حيث المناخ أكثر برودة لجأ انسان هذا العصر إلى الكهوف التى كان يستخدمها الانسان الموستيرى ، وأما فى الأماكن المنخفضة والقليلة الارتفاع فقد سكن انسان العصر الحجرى القديم الأعلا العراء كما تدل على ذلك مخلفاته . وهذه المخلفات لا تدل على أن المناخ فى شمال افريقية كان أدفأ من أوروبا فحسب بل تدل أيضاً على أنه كان أجف منه فى أوروبا وأجف من مناخ الفترة الموستيرية فى شمال افريقية نفسه ، إذ قل نزول المطر فى شمال افريقية فى هذه الفترة فانخفض مستوى الماء فى الأنهار والبحيرات ، وقلت الحياة النباتية ، وسادت أنواع خاصة من الحيوانات التى تألف الجفاف كالنعام والغزال . على أن الحيوانات السالفة التى تألف الرطوبة كالفيل والزراف لم تكن قد هاجرت بعد إلى الجنوب فى هذا العصر ، وأما الانسان فقد تغيرت حياته تبعا لتناقص الماء فقل انتشاره وانحصرت مساكنه وترك إلى غير رجعة تلك المساحات الشاسعة التى أخذت فى التحول إلى صحراء قاحلة .

ولم يعرف شكل هذا الانسان الا من الآثار ، على أنه لم يكن من جنس نياندرتال [١] ولم يكن من جنس كرومانيون [٢] ، ثم أن الانسان الافريقى فى العصر الحجرى القديم الأعلا لم يترك آثاراً فنية تصل إلى مستوى الفن الذى أظهره الانسان المعاصر

---

(١) انسان العصر الحجرى القديم الأوسط فى أوروبا

(٢) انسان العصر الحجرى القديم الاعلا فى أوروبا

له فى أوروبا . وكذلك لانجد هذا العصر ينقسم فى شمال افريقية إلى الحضارات التى رأيناها فى أوروبا ، بل لا نجد فى شمال افريقية فى هذا العصر إلا حضارة واحدة هى الحضارة القفصية التى قلنا أنها أساس الأوريناسية الأوروبية أو منبع العصر الحجرى القديم الاعلا الأوروبى . ثم تتطور القفصية مباشرة فى شمال افريقية نحو الصناعة الحجرية الدقيقة (الميكروليثية) ونحو صناعة الالات ذات الاشكال الهندسية .

وأما فى مصر فقد كشف ڤنيار Vignard آثاراً عند نجع حمادى تقع فى مكان متوسط بين المدرجات الموستيرية وبين طمى النيل الحديث ولذلك وضعت هذه الاثار فى العصر الحجرى القديم الأعلا . ويرى مكتشفها بأنها أشبه بالأوريناسية الأوروبية منها بالقفصية الافريقية . على أن الحضارة الموستيرية فى مصر لم تنته فى نفس الوقت مع الموستيرية فى أوروبا بل استمرت موجودة حيث تسمى الموستيرية المصرية . ووجدت منتشرة فى كل مكان تقريبا على حافة الهضبة الممتدة على طول وادى النيل المصرى . وكذلك وجدت كيتن تمسون حضارة من هذا النوع فى الواحة الخارجة أطلقت عليها اسم « ما قبل السبيلية » أى أن مصر ظلت فى مرتبة العصر الحجرى القديم الأوسط بينما أوروبا كانت قد قطعت مرحلة فى العصر الحجرى القديم الأعلا . على أن هناك فرقا بين الموستيرى الحقيق والموستيرى المصرى (أو ما قبل السبيلى) ذلك أن الموستيرى المصرى يمتاز بصغر حجم الالات سواء ما كان منها مصنوعا من النواة أو الشظايا ولذلك يمكن اعتبار ما يسمى « الموستيرى المصرى » حضارة مبكرة من حضارات العصر الحجرى القديم الأعلا فى مصر .

وكذلك وجد جريس (Grace) أحد ضباط الطيران فى الجيش البريطانى سنة ١٩٤٠ منطقة غنية بالالات القزمية على بعد ١٧٠٠ متر شمال محطة سكة حديد أبو صوير والى الشمال الشرقى من المطار . ويسمى الدكتور حزين هذه الصناعة « الليڤلوازية الصغيرة » Diminutive Levalloisian ويعتبرها امتداداً للصناعة الليڤلوازية الأصلية التى ترجع للعصر الحجرى القديم الأوسط (الحضارة

الموستيرية) . وكذلك جمع منجين الأستاذ السابق بجامعة ڤيينا والجامعة المصرية آلات شبيهة بهذه فى وادى العنقبية جنوب طريق القاهرة السويس الصحراوى وشرق القاهرة بخمسة وعشرين كيلو مترا وتدل هذه الالات على تحول الصناعة الليڤلوازية الأصلية (الموستيرية) التى ترجع للعصر الحجرى القديم الأوسط نحو الصناعة القزمية فى العصر الحجرى القديم الأعلا [١] .

ويظهر أن أصحاب الحضارة القفصية غزوا مصر فى العصر الحجرى القديم الأعلا حيث وجدت آثارهم حول عيون حلوان وتمتاز هـذه الاثار بأن الالات من النوعى القزمى ذى الأشكال الهندسية وخصوصا الالات المثلثة الشكل . ومن الجائز أن الحضارة القفصية الصميمة وجدت فى جهات أخرى من مصر ، ولـكن معظم آثارها مدفون تحت طمى النيل الحديث، لأن الإنسان فى هذه الفترة كان قد اقترب من النهر بسبب قلة الأمطار ، فلا تظهر الاثار القفصية فى الوقت الحاضر إلا فى الأماكن البعيدة عن منال الفيضان كمنطقة حلوان ومنطقة وادى ميدامود بالقرب من الأقصر وبعض جهات الفيوم التى لا يصل إليها الفيضان . وكذلك وجدت هذه الاثار فى الجهات الصحراوية البعيدة مثل واحة سيوة وجبل العوينات وعلى سطح الهضبة الواقعة غرب الواحة البحريه وواحة الفرافرة . وقد وجدت فى كل هذه الجهات أثار قزمية شبيهة بالحضارة القفصية كالنصال والمحتات والأطباق المصنوعة من قشر بيض النعام .

أما عن حيوان العصر الحجرى القديم الاعلا فى مصر فقد دلت الاثار العظمية التى جمعها ڤنيار من كوم امبو والتى جمعها برنتون من قاو على أن الحيوان كان فى هذا العصر فى مصر شبيها بحيوان شمال أفريقيا فى هذه الفترة .

أما عن إنسان هذا العصر فى مصر فقد اختفى إنسان نياندرتال فى هذه الفترة من مصر كما اختفى من أوروبا وربما وجد الإنسان الطويل القامة فى بدأ الحضارة

---

(١) مجموعة الالات المكتشفة فى ابو صوير ووادى العنقبية محفوظة بقسم الجغرافية بجامعة فؤاد الأول .

القفصية ثم أصبح الجنس السائد هو القصير القامة Pygmoids نتيجة اختلاط جماعات من الاقزام Pygmies بهذا الجنس الطويل القامة . وهذا يفسر صغر حجم الالات وتحول الحضارة إلى حضارة ميكروليثية. وقد حدث هذا أيضا فى أوروبا إذ ظهر إنسان جريمالدى الذى يقل طوله عن ١٦٠ إسم فى منتونى Mentone بإيطاليا وهو نتيجة اختلاط أقزام أفريقية بجنس أوروبى طويل القامة من نوع كرومانيون أو كوم كابل . وقد حدث هذا الاختلاط فى الغالب فى شمال أفريقيا ثم انتقل النتاج المتقزم إلى أوروبا .

ولقد نتج من وجود الحضارة الموستيرية المصرية والحضارة القفصية فى وقت واحد فى مصر حدوث اختلاط بين الحضارتين أنتج مايسمى الحضارة السبيلية نسبة إلى بلدة سبيل بالقرب من كوم امبو . وتعتبر الحضارة السبيلية حضارة شبه قزمية أو نصف قزمية لأن آلاتها لم تبلغ الصغر الذى بلغته الحضارة القفصية الحديثة وسنذكر فيما يلى أهم مميزات الحضارتين القفصية والسبيليه .

الحضارة القفصية (١) :

ليست هذه الحضارة إلا نوعا من حضارة العصر الحجرى القديم الأعلا أو هى فرع من حضارة المحتات خاص بشمال أفريقية فهى معادلة لحضارات وسط أوروبا وغربها فى هذا العصر كالأورينياسية والسولترية والمجدلينية (أنظر شكل ٤١) وتقسم الحضارة القفصية إلى مراحل ثلاثة : قديمة ووسطى وحديثة .

أما القفصية القديمة فهى شبيهة بالأورينياسية وتوضع معها فى الزمن وهذا أمر طبيعى لأنهما من أصل واحد . فنجد فى القفصية القديمة أسلحة صوانية كالنصال والمكاشط شبيهه بالأسلحة الأورينياسية ، كما نجد فيها آلات عظمية ولاسيما المثاقيب وأما القفصية الوسطى فتوضع فى الزمن مع الحضارة السولترية الخاصة بوسط أوروبا . ولكنهما يختلفان فى نوع الصناعة لأننا لا نجد فى شمال أفريقية أسلحة

(١) تنسب هذه الحضارة إلى بلدة قفصة فى اقليم قسطيلة شمال شط الجريد فى تونس .

من هذا العصر تشبه الأسلحة التى على شكل ورق الصفصاف والتى تعتبر أهم مميزات الحضارات السولترية بأوروبا . وأهم ظاهرة فى القفصية الوسطى تضاؤل حجم الأسلحة الحجرية فهى تتدرج نحو ما يسمى حضارة الالات الحجرية القزمية (Microlithic) . وكذلك تظهر فى هذه مفترة الالات ذات الأشكال الهندسية فبعضها على شكل قوس ، والبعض الاخر على شكل مثلث وهكذا . وقد وجدت

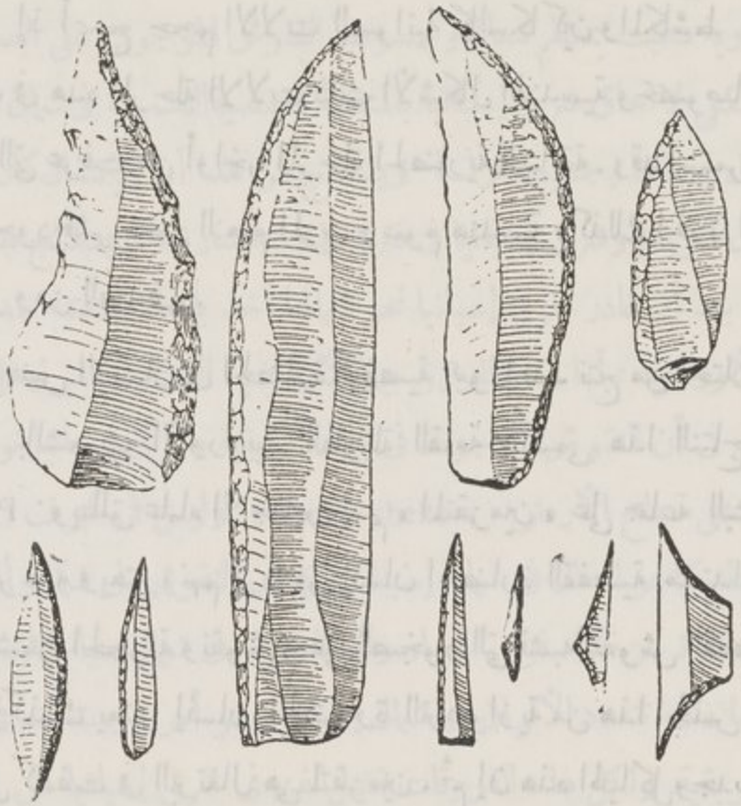

شكل (٤١) أسلحة صوانية من الحضارة القفصية

فى هذه الحضارة أيضاً أوانى مصنوعة من قشر بيض النعام ومزينة برسوم هندسية وكذلك عرف أهل هذه الحضارة تأليف العقود من حبات الخرز المختلفة . وبالإضافة إلى العناصر الحضارية التى جدت على القفصية الوسطى تستمر فيها المقومات الحضارية المعروفة من القفصية القديمة . وقد ظهرت فى أواخر القفصية الوسطى صناعة السهم الصوانى الذى على شكل شبه المنحرف .

ويظهر أنه فى أواخر القفصية الوسطى خرجت من شمال أفريقية هجرتان أحداهما وصلت إلى أوروبا حيث انشأت الحضارة التردنوازية التى ستعاصر القفصية

الحديثة فيما بعد ، بينما وصلت الهجرة الثانية إلى جنوب أفريقية حيث أسست هناك حضارة شبيهة بالقفصية الحديثة كذلك ، وما زالت هذه الحضارة قائمة حتى الوقت الحاضر عند جماعات البشمان فى جنوب أفريقية الذين مازالوا فى مرتبة حضارية شبيهة بالحضارة القفصية الحديثة .

وأما الحضارة القفصية الحديثة فهى حضارة الآلات الحجرية القزمية بمعنى الكلمة ، إذ أصبح حجم الالات الصوانية كالسكاكين والمكاشط صغيراً جدا كما كثرت فى هذه المرحلة الالات ذات الأشكال الهندسية وخصوصا ماتشبه شبه المنحرف التى عرفت من أواخر المرحلة الحضارية السابقة . وقد استمر فى القفصية الحديثة وجود قشر بيض النعام المزين برسوم هندسية وكذلك الخرز المصنوع من هذا القشر ومن الصدف .

وأما جنس الإنسان فى الحضارة القفصية عموما فقد نتج من اختلاط الأقزام الافريقية بالشعوب الاوروبية الطويلة القامة ويسمى هذا النتاج بالمتقزمين Pygmoids . ويطلق علماء الأجناس إسم « المتقزمين » على جماعة البشمن الحالية بجنوب أفريقية ويعتبرونهم فرعا من إنسان الحضارة القفصية مستدلين على ذلك بآلات البشمن الحجرية ونقوشهم على الصخور التى تشبه النقوش القفصية فى شرق إسبانيا . وكذلك يعتبر إنسان الحضارة النردنوازية من هذا الجنس . فالهياكل البشرية التى كشفت فى البرتغال هى لمتقزمين ، ثم إن هذه الهياكل وجدت مع آلات الحضارة القفصية الحديثة . وكذلك وجد فى أحد الكهوف بألمانيا هياكل قصيرة القامة ومعها آلات تدل على تأثير قفصى . وكل هذه أدلة على أن الإنسان القفصى هاجر من شمال أفريقية فى اتجاهات ثلاثة . الإتجاه الأول وصل به إلى جنوب القارة الأفريقية عبر الصحراء الكبرى حيث أسس حضارة قفصية ما زالت قائمة حتى الوقت الحاضر ، والاتجاه الثانى أدى به إلى مصر حيث اختلط بالحضارة الموستيرية المصرية فنشأت نتيجة لذلك الحضارة السبيلية التى سنعرفها فيما بعد ، والإتجاه الثالث وصل به إلى شرق إسبانيا حيث أسس حضارة قفصية صميمة ثم

استمر فى هذا الإتجاه حتى جنوب فرنسا وغرب أوروبا عموما حيث ظهرت الحضارة القفصية بمظهر جديد تحت إسم الأورينياسية التى تتشابه مع القفصية من بعض الوجوه وتختلف عنها من وجوه أخرى كثيرة . ويستند العلماء إلى الفن فى تقرير العلاقة بين الحضارة القفصية فى شمال أفريقية وشرق إسبانيا وشمالها وجنوب فرنسا . ومع أنه لا يعرف من الفن القفصى بشمال أفريقة إلا القليل لأن الظروف الصحراوية ذهبت بمعظم معالمه وخصوصا النقوش الموجوده على الصخور ، فإن هذا القليل يكفى لإلحاق شرق إسبانيا بالمنطقة القفصية الصميمة فى شمال أفريقية وفصله عن شمال إسبانيا وجنوب فرنسا . ويستنتج من هذا أن الإنتقال كان حراً وميسراً بين شمال أفريقية وشرق إسبانيا فى فترة هذه الحضارة ، كما يستنتج منه أن الإنسان القفصى بعد أن غادر شرق إسبانيا نحو شمالها أخذ بأساليب فنية جديدة أملتها عليه حياته الأوروبية . أما هذه الفروق بين الأساليب الفنية فى شرق إسبانيا وشمالها فتتلخص فى أن النقوش الموجودة فى شمال أفريقية وشرق إسبانيا توجد فى ملاجىء صخرية على سطح الأرض (Rock - shelters) وليس فى كهوف (Caves) تحت هذا السطح كما هو الحال فى شمال إسبانيا . كما أن النقوش فى شمال أفريقية وشرق إسبانيا عبارة عن طلاء فوق الجدار وأما النقوش فى شمال إسبانيا فمنحوتة فى الجدار . وفيما عدا ذلك تتعدد الألوان فى شمال إسبانيا وهو أمر لم يستخدم فى شرقها ولا فى شمال أفريقية . ولكل هذه الفروقات فصل الفن فى شرق إسبانيا عن شمالها وألحق بالفن القفصى الأفريقى .

وقد كشفت بمصر أيضا نقوش على الحجارة فى المناطق الصحراوية تدل على مقدرة فنية كبيرة وتشبه ماوجد على جدران الكهوف المجدلينية فى أوروبا وتوضع معها فى زمن واحد ، وان كان بعض هذه النقوش يشك فى نسبته لهذا العصر القديم ويظن أنه من عمل الإنسان الحديث .

وقد قسمت النقوش المصرية حسب مميزات فنية خاصة إلى قديمة وحديثة . فأما القديمه فتوضع فى العصر الحجرى القديم الأعلا وأما الحديثة فتوضع فى العصر الحجرى

الحديث وفى العصر التاريخى . وهذه النقوش عموما شبيهة أيضا بنقوش جماعة البشمن فى صحراء كلهارى بجنوب أفريقية . ومن أمثلة النقوش الصخرية المصرية ما وجد فى جبل العوينات وفى أسوان وفى وادى ميدامود بالقرب من الأقصر .

وأما عن حياة الإنسان القفصى فقد كان صياداً يتجول وراء الحيوانات التى كان شمال أفريقية غنيا بها فى هذه الفترة ، فالحضارة القفصية تقع فى النصف الأخير من العصر المطير الذى كانت فيه الأقاليم الصحراوية بوديانها المختلفة مزدحمة بالسكان والحيوان وخاصة شمال أفريقية لقربه من منطقة أعاصير البحر الأبيض المتوسط. غير أن شمال أفريقيا كان فى أثناء هذه الحضارة سائراً نحو الجفاف ونحو الظروف الصحراوية عموما ، وهذا يفسر الهجرات التى أشرنا إليها فيما سبق نحو وادى النيل وجنوب أفريقية وجنوب أوروبا ، فأن الإنسان القفصى لما شعر بدنو الظروف الصحراوية هاجر إلى جهات تكون فيها موارد الرزق — وعلى الأخص الصيد — متوفرة . وكان من ضمن الأشياء التى يقتات بها الإنسان القفصى — إلى جانب صيد الحيوانات — القواقع التى كانت وديان شمال أفريقية عامرة بها فى ذلك الوقت . وتوجد فى الوقت الحالى فى شمال أفريقية فى جهات غير صالحة حاليا للاستيطان البشرى أكوام القواقع التى خلفها الإنسان القفصى ومعها آلات صوانيه مدببة كان يستخرج بواسطتها مايوجد داخل قشرة القوقعة الصلبة من مادة طرية صالحة للأكل وكذلك وجد فى هذه الأكوام بعض عظام الحيوانات التى كان يصطادها إنسان هذه الحضارة .

وقد أشرنا فيما سبق من فصول إلى أنه وجد فى شماله أفريقية ـ عدا الحضارة القفصية ـ الحضارة العاطرية . وهذه الحضارة قريبة الشبه فى شظاياها من الموستيرية الأوروبية ومثال ذلك الآلة ذات العنق . والحضارة العاطرية ـ على مثال الحضارة الموستيرية المصرية ـ تبدأ فى الزمن مع الحضارة الموستيرية الأوربية ولكنها تستمر بعد انتهاء هذه الحضارة فتعاصر العصر الحجرى القديم الأعلا . وقد وجدت هذه الحضارة فى مصر فى الواحة الخارجة وبعض جهات مصر العليا . ويقال كذلك أن

الحضارة الكمبينية ربما دخلت مصر فى أواخر العصر الحجرى القديم الأعلا وتوغلت حتى طيبة حيث وجدت آلات صوانية تشير إلى ذلك .

الحضارة السبيلية :

امتاز تاريخ فجر التاريخ فى مصر فترة من الوقت بخلوه من آثار مكتشفة ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأعلا حتى ظن دى مورجان أن الإنسان الموستيرى ظل مقيما على جانبي وادى النيل المصرى إلى أن ظهر العصر الحجرى الحديث ، ومعنى هذا أن مصر لم تمر فى العصر الحجرى القديم الأعلا بل انتقلت من العصر الحجرى القديم الأوسط إلى العصر الحجرى الحديث ، غير أن هذا الظن لم يلبث أن تلاشى بفضل أبحاث العالم الأثرى أدمون ڤنيار Edmond Vignard الذى كشف عن عدة مواقع أثرية من العصر الحجرى القديم الأعلا فى نجع حمادى وكوم امبو. أما منطقة نجع حمادى فقد سبقت الأشارة إليها وأما منطقة كوم امبو فهى أهم المنطقتين حيث أجريت بها حفائر منظمة كشفت عن الحضارة الهامة المعروفة باسم «الحضارة السبيلية» نسبة إلى قرية سبيل بالقرب من كوم امبو .

ويشغل سهل كوم امبو صحن بحيرة قديمة واسعة كانت تتلقى مياهها من النيل فى أوائل الزمن الجيولوجى الرابع (عصر البليستوسين) من فتحة فى واديه شمال جنادل اسوان بعشرين كيلو متراً . كما كانت هذه البحيرة تتلقى قدرا من مياه الأمطار الساقطة على جبال البحر الأحمر وذلك بواسطة واديين كانا يجريان من هذه الجبال نحو البحيرة بمياه الأمطار الغزيرة فى ذلك الوقت ، وقد استحالا فى الوقت الحاضر إلى واديين جافين . ويحد السهل من الشمال جبل السلسلة . وهذه المياه التى كان يجلبها نهر النيل من الجنوب والواديان من الشرق كانت تحمل معها كميات كبيرة من الحصى والرمل والطين وتلقى بها فى البحيرة إلى أن امتلأت بها . والطبقة العليا من هذه الرواسب طميية يبلغ سمكها حوالى العشرين مترا . وهذه هى الطبقة التى تضم آثار العصر الحجرى القديم الأعلا والتى كشف فيها ڤنيار عن آثار الحضارة السبيلية

وقد استند ڤنيار على عاملين فى القول بوجود ثلاثة مراحل حضارية فى هذه الطبقات . أما العاملان فهما (١) شكل الآلات (٢) المستوى الذى وجدت عليه الآلات، فقد وجدت فى مدرجات ذات ارتفاعات مختلفة تدل على المستويات المتعاقبة للبحيرة التى كانت تجف بالتدريج. وأما المراحل الحضارية الثلاثة فى :

١ — المرحلة القديمة وهى ذات آلات شبيهة بالالات الموستيرية .

٢ — المرحلة الوسطى وهى ذات آلات متوسطة الاتقان - Le niveau inter mediaire de perfectionnement

٣ — المرحلة الأخيرة وهى ذات آلات قزمية Le nivean a microliths

وقد وجد بهذه الحضارة أنواع مختلفة من الالات الحجرية كالسكاكين والمثاقب والأسلحة ذات الأسنان ولكن لم توجد بها محتات شبيهه بالمحتات الأوريڤياسية أو المجدلينية فى أوروبا . ومن أهم الالات السبيلية الشظايا المثلثة الشكل المشطوفة من الجانبين . وكذلك وجدت بهذه الحضارة أكوام من فضلات المطبخ كما وجدت بها آثار مواقد القوم . ولم يعثر بقرية سبيل القديمة على أى أثر يدل على أن القوم عرفوا صناعة الآوانى الفخارية . ولقد خلفت مواقد السبيليين تحتها رقائق من الطين المحروق تؤذن بقرب اختراع صناعة الفخار . غير أن هذا الاختراع لم يتم إلا فى العصر التالى لعصر هذه الحضارة .

وبدراسة الآلات بأشكالها المختلفة وعلى مستوياتها المختلفة أمكن ملاحظة التدرج من الصناعة الموستيرية إلى الصناعة القزمية وذات الأشكال الهندسية (انظر شكل ٤٢) غير أنه يلاحظ على تقسيم ڤنيار لهذه الحضارة إلى قديمة ووسطى وحديثة أن السبيلية القديمة ليست شيئا آخر غير الموستيرى المصرى ولا تستحق اسم سبيلية وأما الوسطى والحديثة فمع أنهما يكونان حضارة مختلفة عن الموستيرى المصرى إلا إنهما لا يختلفان فيما بينهما اختلافا بينا يبرر التفرقة بينهما ، فالفرق الوحيد بين السبيلية الوسطى والسبيلية الحديثة أن آلات الأخيرة أصغر حجما . ومن هنا كان الأفضل تقسيم

طبقات قرية سبيل إلى قسمين : قسم يضم آثار الحضارة الموستيرية المصرية والقسم الاخر يضم الحضارة السبيلية .

شكل (٤٢) أمثلة من الأسلحة السبيلية
رقم ٦ سبيلى قديم رقم ٧ سبيلى متوسط رقم ٨ سبيلى حديث

ولقد عثر ساندفورد وآركل فى جهات مختلفة من وادى النيل على آلات يمكن نسبتها إلى الحضارة السبيلية .

الفصل السادس

حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر

قصة الكشف عن حضارات هذا العصر فى مصر .

نجد فى مصر فى العصر الحجرى الحديث أنواع الحياة الثلاثة التى يمتاز بها هذا العصر وهى : (١) حياة الرعى فى الصحراء المحيطة بوادى النيل (٢) حياة الزراعة فى الوادى نفسه (٣) حياة المدن فى النقط الهامة على طول مجرى النهر .

ولا بد عند تأريخ العصر الحجرى الحديث فى مصر من التفرقة بين الوجهين البحرى والقبلى . فالوجه البحرى - ويطلق عليه أيضا مصر السفلى أو الدلتا - منطقة مكشوفة كانت كثيرة المستنقعات وكان الاتصال ميسراً بينها وبين جيرانها فى الغرب (ليبيا) وفى الشرق (فلسطين وسوريا) وفى الشمال (البحر المتوسط) . وأما الوجه القبلى — ويطلق عليه أيضاً مصر العليا أو الصعيد — فعبارة عن شريط طويل ضيق تحيط به من الجانبين هضبة صخرية تخترقها وديان كانت تجرى بالمياه فى العصر المطير ولاسيما من الجانب الشرقى . وقد اتخذت هذه الوديان بعد انتهاء العصر المطير طرقا للقوافل بين وادى النيل وساحل البحر الأحمر أو بينه وبين سلسلة الواحات فى الغرب .

وإذا كانت المنطقة الواقعة جنوب القاهرة غير ممطرة فى الوقت الحالى فأنها فى العصر المطير لم تكن كذلك ، بل أن وديانها الصحراوية الجافة حالياً كانت عامرة بالمياه وكانت شواطئها مزدهرة بالحشائش وربما بالحبوب البرية أيضاً : وكان يعيش على هذا العشب البرى قطعان من الحيوانات البرية كالحمير والأغنام والغزلان والزراف وبعض الحيوانات المتوحشة كالأسود والفهود . وقد ظلت صور هذه المناظر الطبيعية مطبوعة فى أذهان المصريين يتوارثونها جيلا بعد جيل حتى وجدناهم

يصورونها فى العصر التاريخى على جدران مقابرهم . هذا فى الصحراء المحيطة بالوادى وأما فى الوادى نفسه فكانت المستنقعات الكثيرة تنتشر حول النهر، وكانت توجد فى هذه المناطق المستنقعية الفيلة والخنازير البرية والخرتيت والتماسيح . ويمكن أن نقول بصفة عامة أن البيئة المصرية فى العصر الحجرى الحديث كانت شبيهة ببيئة السفانا الحالية بوسط أفريقية أو بمنطقة السدود فى أعالى النيل .

ولقد كان الصيادون منذ العصر الحجرى القديم الاسفل ينحدرون من الهضبة العالية على الجانبين إلى الوادى حيث يصطادون تلك الحيوانات كما دلت على ذلك آلاتهم الموجودة بالمدرجات على جانبى النهر . وبعد انتهاء رحلة الصيد يعود هؤلاء الصيادون أدراجهم إلى مناطق سكناهم فوق الهضبة حيث يكونون بمأمن من هذه الحيوانات . ثم جاء إلى هذا الوادى أصحاب الحضارة القفصية واختلطوا بالمصريين الذين كانوا ما زالو فى مرحلة الحضارة الموستيرية ونتج عن ذلك الحضارة المكتشفة فى قرية سبيل بالقرب من كوم امبو والمكتشفة على طول القنوات المؤدية إلى الفيوم ثم فى جهات أخرى من القطر المصرى . فلما ازداد الجفاف بالصحراء ازدادت هجرة الناس إلى الوادى وتجمعهم فيه واستقرارهم به ، وقد هداهم هذا إلى اختراع الزراعة وبذلك تمت مقومات العصر الحجرى الحديث وانتقلت مصر من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار .

واذا كانت الحبوب البرية كالقمح والشعير قد وجدت فى مصر فى ذلك الوقت فمن الجائز أن اختراع الزراعة حدث فى هذه البلاد . فقد كان الفيضان السنوى للنيل يسبب نمو هذه النباتات بعد فصل الخريف من كل عام دون تدخل الإنسان ، ثم يأتى قيظ الصيف وجفافه فيميتانها ، ثم يحييها النيل مرة أخرى بعد فصل الخريف وهكذا . فمن الجائز أن هذه العملية المتكررة استرعت انتباه أحد أذكياء المصريين فى ذلك العهد الغابر فاخترع فكرة الزراعة وبذر البذور بمعرفة الإنسان .

ولدينا بالوجه القبلى خمس حضارات تمثل العصر الحجرى الحديث بما فيها الفترة الأخيرة من هذا العصر التى توضع فى مرحلة حضارية خاصة يطلق عليها اسم

« عصر ما قبل الأسرات »

أما هذه الحضارات فهى مرتبة من الأقدم إلى الأحدث .

(١) دير تاسا (بالقرب من البدارى)

(٢) البدارى .

(٣) العمرة (بمصر الوسطى) .

(٤) جرزة (بين بنى سويف والواسطى) .

(٥) سماينة (بالقرب من نقادة) .

فأما الحضارتان الأولى والثانية فهما اللتان تمثلان العصر الحجرى الحديث الصميم.

وأما الحضارات من الثالثة إلى الخامسة فتمثل عصر ماقبل الأسرات ويطلق عليها مجتمعة اسم « حضارة نقادة » كما سنعرف تفصيله فيما بعد .

إذا انتقلنا إلى الفيوم نجد عندنا حضارتين هما (١) حضارة الفيوم الأولى (فيوم ا) (٢) حضارة الفيوم الثانية (فيوم ب) وتوضع الأولى منهما فى العصر الحجرى الصميم وتوضع الثانية فى عصر ما قبل الأسرات .

وأما بالوجه البحرى فلدينا أربع حضارات هى كما يأتى مرتبة من الأقدم للأحدث:

(١) حلوان الأولى (حلوان ا أو حضارة العمرى) بالقرب من مدينة حلوان

(٢) مرمدة بنى سلامة بالقرب من الخطاطبة فى غرب الدلتا .

(٣) حلوان الثانية (حلوان ب) بالقرب من مدينة حلوان .

(٤) المعادى شرق مدينة المعادى الحالية .

وتوضع الحضارتان الأولتان فى العصر الحجرى الحديث الصميم وتضع الحضارتان الثالثة والرابعة فى عصر ما قبل الأسرات .

ويمكن الربط بين الحضارات المصرية عموما فى هذا العصر ربطا زمنياً على النحو الاتى :

التاريخ	الوجه البحرى والفيوم	الوجه القبلى
٣٢٠٠ قبل الميلاد	الأسرة الفرعونية الأولى	الأسرة الفرعونية الأولى حضارة سماينة
٤٠٠٠ « «	حضارة المعادى	
	« حلوان الثانية (حلوان ب)	« جرزة « العمرة
	« الفيوم الثانية (فيوم ب)	« البدارى
٥٠٠٠ « «	« مرمدة بنى سلامة	« ديرتاسا
	« الفيوم الأولى (فيوم ا)	
٦٠٠٠ « «	« حلوان الأولى (العمرى أوحلوان ا)	

ويمكن القول أن العصر الحجرى الحديث فى مصر يبدأ حوالى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد . وقد استطاع الانسان المصرى فى هذا الوقت المبكر أن يستأنس الحيوان ويعيش على الرعى وأن يكتشف الزراعة ويشيد المساكن وينظم الجماعة على أساس المصلحة المشتركة كما تمكن من صنع الأوانى الفخارية والآلات الصوانية المتعددة الاشكال تبعا لتعدد الغرض من صنعها . ثم دخل هذا الانسان فى الدور الذى نسميه عصر ما قبل الاسرات . وما يميز هذا الدور الأخير عن الدور السابق له هو أنه فى عصر ما قبل الأسرات كثر استعمال النحاس فى صناعة بعض الالات ، هذا فضلا عن الرقى الملحوظ فى مظاهر الحضارة المختلفة .

ولا تدل قلة الحضارات المكتشفة بالدلتا على أنها كانت فى هذا العصر أقل

حضارة من الصعيد ، بل العكس هو الصحيح . فقد كانت الدلتا فى العصر الحجرى الحديث اكثر تقدما من الصعيد أذ توفر لها من مقومات الحضارة مالم يتوفر للصعيد . فأرضها الزراعية اكثر اتساعا ومناخها اكثر اعتدالا ، وصلاتها الثقافية ميسرة بجيرانها فى الشرق والغرب والشمال . ولهذا كان عدد سكانها اكبر ومدنها أعظم . غير أن غرين النيل غطى معظم آثار هذا العصر بالدلتا بسبب استواء سطحها وقرب مستوى أرضها من مستوى ماء النهر ، فى حين أنه لم يستطع أن يفعل ذلك بالصعيد لأن قرى الصعيد كانت تبنى فى أماكن مرتفعة بعيدة عن منال الفيضان . ولا نستطيع أن نعثر فى الوقت الحاضر على آثار العصر الحجرى الحديث بالدلتا ألا عند اطرافها بالقرب من حافة الصحراء حيث توجد بعض الأكمات التى قامت عليها قرى مرتفعة من هذا العصر .

ويطلق على الحضارات الثلاثة الأخيرة بالصعيد (العمرة وجرزة وسمانية) اسم حضارة نقادة نسبة إلى بلدة نقادة بالقرب من الأقصر فقد دلت الآثار المكتشفة من هذه الأماكن ومن أماكن أخرى سيرد ذكرها فيما بعد على أنها لحضارة واحدة متدرجة نحو الرقى . وقد قام فلاندرز بترى بالحفر فى نقادة وإليه يرجع الفضل فى الكشف عن معالم هذه الحضارة وفى تعريف الناس بها رغم أنه أخطأ فى معرفتها فى بادىء الأمر ووضعها فى عصر غير عصرها الصحيح . وقد حفر دى مورجان أيضاً فى هذه المنطقة وكشف عن كثير من آثار حضارة نقادة إلا أنه سماها باسم مختلف هو حضارة طوخ نسبة إلى قرية طوخ بالقرب من قرية نقادة . وأطلق على هذه الحضارة اسم « مخلفات المطبخ فى طوخ » Kjoekkenmoeddings de Toukh وإذا كان مانشره دى مورجان عن هذه الحضارة لم يصل من حيث التنظيم العلمى إلى مستوى مانشره بترى عنها ، فإن الفضل فى تحديد عصر هذه الحضارة يرجع إلى دى مورجان فقد وضعها بحق فى عصر ما قبل الأسرات فى حين أخطأ بترى فى مبدأ الأمر ووضعها فى عصر الانتقال بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى . ثم لم يلبث بترى أن عاد وأخذ برأى دى مورجان .

أما حضارة البدارى فقد أخرج آثارها بترى وبرنتون . ثم كشفت بعد ذلك حضارة أقدم من البدارى هى ديرتاسا وقد عمل فيها برنتون وسامى جبره .

إذا تركنا الصعيد وانتقلنا إلى الفيوم نجد أن مس كيتون تمسون تبحث منحدرات الفيوم وتوفق إلى كشف آثار حضاره تابعه للعصر الحجرى الحديث نسميها « حضارة الفيوم » . وقد ازدهرت هذه الحضارة حينما كانت بحيرة قارون على ارتفاع ستين متراً فوق مستواها الحالى . وكان سكان العصر الحجرى الحديث يعيشون حول شواطىء هذه البحيرة وينحدرون مع هذا الشاطى كلما أخذ مستوى البحيرة فى الإنخفاض .

وأما فى منطقة حلوان فقد وجد أمين العمرى على بعد ثلاثة كيلومترات شمال حلوان محلة بها أسلحة تشبه أسلحة العصر الحجرى الحديث بالفيوم . كما وجد بالمكان مواقد مما يدل على أنه كان قرية من قرى هذا العصر ، وعلى بعد مئات من الأمتار من مساكن القوم وجدت مجموعة من المقابر بها عظام بشرية وحبتان من العقيق . وقد أدركت مصلحة الاثار المصرية أهمية هذا الكشف فعهدت إلى بوفييه لابيير بالأشراف العلمى على حفائر تجرى بهذا المكان ، يساعده أمين العمرى . ولكن العمرى لم يلبث أن انتقل إلى جوار ربه بعد البدء بالحفر بقليل ، فأطلق بوفييه إسمه على هذه الحضاره تخليداً لذكراه واعترافا بفضله .

بعد ذلك قام الأستاذ هرمان يونكر — مدير المعهد الألمانى والأستاذ السابق بجامعة فؤاد الأول — بأبحاثه على حافة الدلتا الغربية يعاونه نخبة من العلماء الألمان . وقد أدت أعمال الحفر إلى الكشف عن حضارة مرمدة بنى سلامة . وقد حال قيام الحرب الأخيرة دون أتمام البحث فى هذه المنطقة ، ولعل أحداً من المصريين يتم ما بدأه العلماء الألمان .

ثم فى سنة ١٩٣١ بدأت الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول حالياً) أعمال الحفر بالصحراء الواقعة شرق مدينة المعادى تحت اشراف الأستاذين مصطفى عامر وأزوالدمنجين ، ثم استقل الاستاذ مصطفى عامر بالعمل فى هذه المنطقة منذ سنة ١٩٣٤

ومع أن أعمال الحفر مازالت مستمرة حتى الوقت الحاضر بسبب اتساع المدينة ووفرة آثارها ، إلا أن ما ظهر من نتائج يكفى لرسم صورة واضحة عن حضارة الدلتا عامة وحضارة المعادى خاصة فى عصر ما قبل الأسرات . وستتم هذه الصورة بشكل رائع — يوم أن تتم أعمال الحفر بالمعادى وتنشر نتائجها النهائية — بسبب النظام العلمى الدقيق الذى يسير عليه العمل فى هذه الحفاير .

وفى سنة ١٩٤٣ أذنت مصلحة الآثار المصرية للمسيو دى بونو بالحفر فى منطقة حلوان فى نفس المنطقة التى أخرجت منها آثار حضارة العمرى أو بالقرب منها . وقد نتج عن أعمال الحفر بهذا المكان إخراج مجموعة من الآثار القيمة وضعها دى بونو فى مرتبة حضارة العمرى وسماها فعلا بهذا الإسم . ولكن الأستاذ مصطفى عامر يرى بناء على فحصه لمجموعة الاثار التى أخرجها دى بونو أن هذه الاثار تمثل حضارة أرقى من حضارة العمرى وأحدث منها فى الزمن حتى لتقترب فى زمنها من حضارة المعادى نفسها ولذلك فهو يفضل التمييز بين حضارتى حلوان، فتعتبر العمرى حضارة حلوان الأولى أو حلوان ا وتعتبر مجموعة دى بونو ممثلة لحضارة أخرى يطلق عليها حضارة حلوان الثانية أو حلوان ب على مثال ما اتبع فى الفيوم إذفرق العلماء بين الفيوم ا والفيوم ب

وقد شملت أبحاث هذا العصر كذلك بلاد النوبة السفلى فى منطقتى اسوان ووادى حلفا . فنتج عن ذلك الكشف عن حضارة من العصر الحجرى الحديث تشبه حضارة نقادة ولذلك تقسم مراحلها ألى نفس المراحل التى قسمت اليها نقادة وهى العمرة وجرزة وسمانية . ويطلق الأستاذ يونكر على حضارة النوبة السفلى فى هذا العصر اسم حضارة الكوبّانية .

ويجدر بنا فى هذا المقام ألا نغفل جهود الدكتور سليمان حزين الأستاذ بجامعة فاروق الأول . فهو بسبب خبرته التامة بصناعة الالات الحجرية القديمة قد ساهم فى اكثر من مكان فى خدمة هذا العصر وتعريف الناس بآثاره ، ولاسيما بدراسة الالات الحجرية بمنطقتى أرمنت والفيوم .

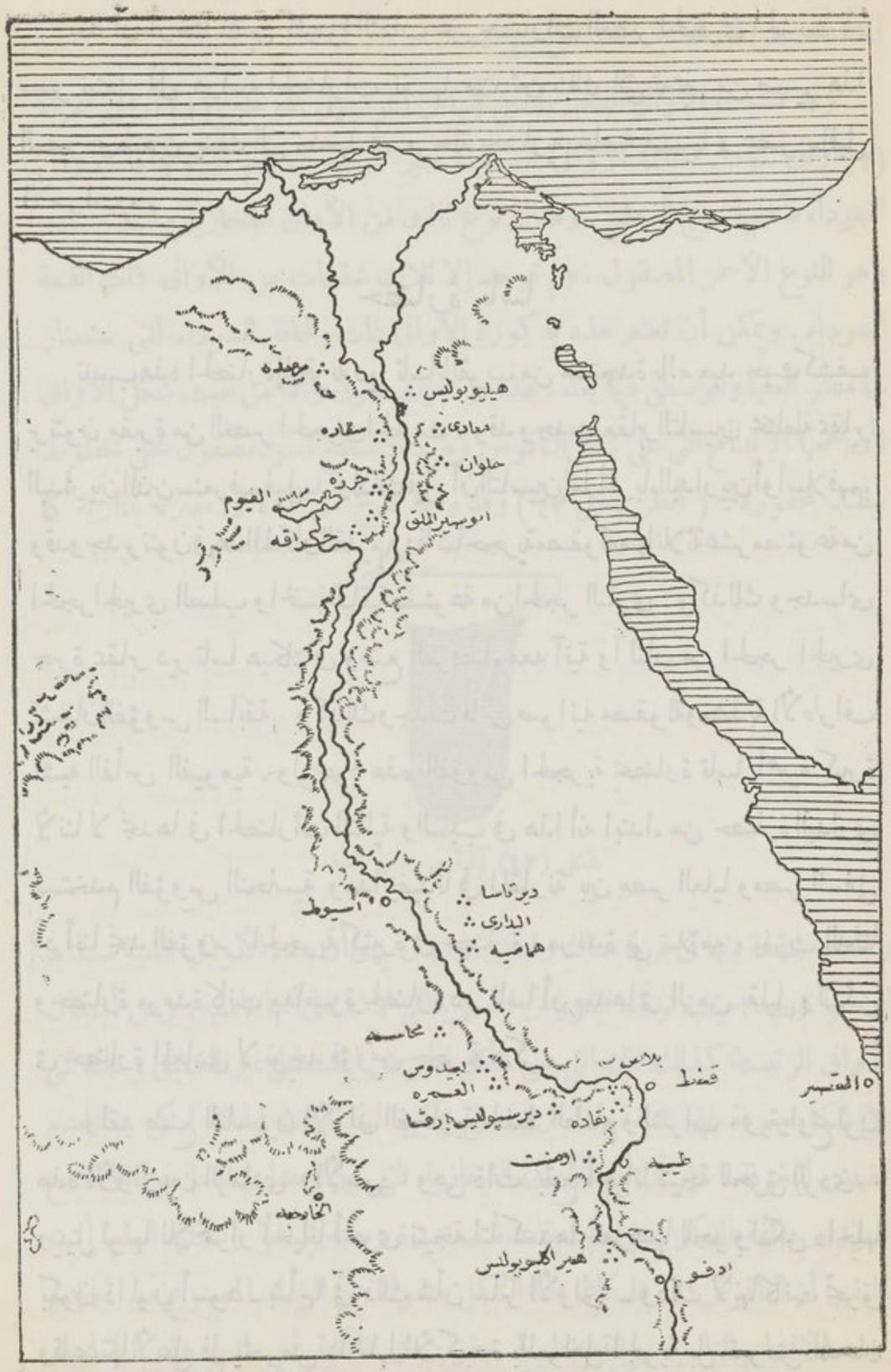

شكل (٤٣) خريطة تبين اهم المواقع الأثرية

بعد أن أرخنا للذين كشفوا النقاب عن حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر ننتقل ألى دراسة الحضارات نفسها مبتدئين بتلك التى تعتبر من صميم هذا العصر ومتبعين بتلك التى نضعها فى مرحلة حضارية خاصة نسميها « عصر ماقبل الأسرات ».

حضارة تاسا

تنسب هذه الحضارة إلى قرية دير تاسا بالقرب من مستجدة بالصعيد حيث كشف برنتون مقبرة من العصر الحجرى الحديث . وقد وجدت مقابر التاسيين مختلطة بمقابر البداريين الذين سنعرفهم فيما بعد ولذلك قيل أن التاسيين إما أقرباء البداريين أو أسلافهم. وقد وجد برنتون فى هذا المكان القديم ١٨ فأسا حجرية مصقولة منها ثلاثة عشر مصنوعة من الحجر الجيرى الصلب والخمسة الباقية مصنوعة من الحجر النارى . وكذلك وجد سامى جبرة بمقابر دير تاسا هيكلا فى وضع القرفصاء معه آنية وآلتان من الحجر الجيرى تشبهان الفؤوس السابقة . وكذلك وجدت فأس صوانية مصقولة ومشذبة الأطراف تشبه الفأس الفيومية . ولوجود هذه الفؤوس الحجرية بحضارة تاسا أهمية كبيرة لأننا لا نجدها فى الحضارات التالية والسبب فى هذا أنه ابتداء من حضارة البدارى تستخدم الفؤوس النحاسية وهذا يفيدنا فى المقارنة بين مصر العليا ومصر السفلى أذ أننا نجد الفؤوس الحجرية كثيرة فى حضارة « مرمدة بنى سلامه » بغرب الدلتا وحضارة مرمدة كانت معاصرة لحضارة دير تاسا أو بعدها فى الزمن بقليل ولكن فى حضارة المعادى لا توجد فؤوس حجرية تذكر .

ولقد صنع التاسيون الأوانى الفخارية لحفظ الطعام والشراب ، ويتراوح لون هذه الأوانى بين الرمادى والأسود ، وهى ذات بقع أحيانا نتيجة للحرق الردىء ، ويميل لونها للاحمرار أحيانا أخرى نتيجة لتأكسدها بتعرضها للجو ولكن داخلها يكون ذا لون أسود ـ شأنها فى ذلك شأن سائر الأوانى ـ وذلك لأنها كانت تحرق وقاعدتها لأعلى فلم يتعرض داخلها للأكسدة بالعوامل الجوية بل تعرض للدخان

المتصاعد من الموقد مما ساعد على سواده .

وقد قسمت الأوانى الفخارية على أساس اللون إلى مجموعتين (١) أوانى سمراء (٢) أوانى سوداء فأما الأوانى السمراء فغير مموجة السطح عادة وأما الأوانى السوداء فأغلبها مموج السطح . وهناك نوع ثالث من الأوانى الفخارية ولكنه نادر وهو النوع الأحمر المصقول . ولم توجد إلا ثلاث شقفات من الأوانى ذات القمة السوداء . ويمكن أن تعتبر هذه باكورة الأوانى ذات الحافة السوداء التى ستمتاز بها مصر العليا والوسطى فيما بعد . هذا من حيث اللون وأما من حيث شكل الأوانى فأن أهمها الأقداح التى على شكل الناقوس وهى ذات سطح اسود مصقول محلى بخطوط بيضاء محفورة . (أنظر شكل ٤٣) وقد وجد قدح من هذه فى مقبرة بدارية كما

شكل (٤٣) آنية من دير تاسا

وجدت شقفة منها فى قرية هناك ولكن برنتون يرى أن هذه الأوانى تاسية مستنداً إلى أنها توجد حيث توجد الفؤوس الحجرية التى لاشك فى أنها تاسية . ومن أشكال الأوانى الرئيسية كذلك تلك التى على شكل الحوض المستطيل غير العميق وتلك التى على شكل مغرفة غير عميقة ولها بروز على شكل لسان عند الحافة لكى يستخدم كمقبض للمغرفة . على أن أهم الأوانى الفخارية التى تميز حضارة تاسا هى الأقداح السوداء سالفة الذكر وهى ذات قاعدة مستديرة وحافة براقها وشكلها العام أشبه بالنفير أو الناقوس وربما كان هذا الشكل منقولا عن الوعاء المصنوع من الجلد . وهذه الأقداح التاسية مزينة بخطوط حفرت فى الآنية ثم ملئت هذه الخطوط

بطلاء أبيض . ورسوماتها الدائرية ربما كانت منقولة عن شكل الأسبته . وما زالت الأسبتة التى من نفس الشكل والرسم تصنع فى بعض جهات افريقية إلى اليوم .
ومما زاد فى أهمية هذه الأقداح التاسية ظهور آنية مماثلة لها فى غرب أوروبا مما يبعث على الظن بأن الأقداح الأوروبية مأخوذة عنها . كما وجدت أوانى شبيهة بها أيضاً فى منطقة الفرات .

ومن آثار هذه الحضارة التى تسترعى الانتباه اللوحات المرمرية فقد عثر فى ثلاث من مقابرها على لوحات ليست من الاردواز كمعظم لوحات فجر التاريخ المصرى وأنما من المرمر (الألباستر) أو الحجر الجيرى . وتفيدنا هذه اللوحات فى المقارنة بين حضارات الدلتا والصعيد إذ أن لوحات المرمر توجد بحضارة المعادى كما أنها تنتشر بعد ذلك فى مصر فى العصر التاريخى . على أنه من الجائز أن الأصل فى اللوحات أن تصنع من الأردواز وأن اللوحات المرمرية أو الجيرية كانت توجد حيث يصعب الحصول على الاردواز ، ومع ذلك فقد وجدت لوحة من الاردواز ـ ولكنها وحيدة ـ فى دير تاسا .

شكل (٤٤) سنارة لصيد السمك من دير تاسا

ومن آثار هذه الحضارة كذلك المنشار المصنوع من الصوان الذى يمتاز ببعد المسافات بين أسنانه والمشط ذو الحز فى ظهره الذى يشبه أمشاط مرمدة . وكذلك عرفو صناعة السنانير لصيد السمك (أنظر شكل ٤٤) .

مقابر القوم : كان التاسيون يدفنون موتاهم فى حفر كبيرة يضعون فيها الهيكل فى وضع مقرفص . وتختلف مقابر تاسا عن مقابر البدارى فى أمر واحد ، ذلك أنه يوجد ببعض مقابر تاسا طاقة محفورة فى الجانب الغربى للمقبرة يوضع فيها ما يمكن أن نسميه

أثاث المقبرة وهى الأدوات التى توضع مع الميت لاستخدامها فى الحياة الأخرى . وقد دل شكل الهياكل على أن معظم القوم من أصحاب الرءوس المستطيلة وعلى أن بعض الجماجم أعرض وأقوى كما أن الوجه أعرض من وجوه أقوام عصر ما قبل الأسرات فى مصر العليا والوسطى وهى الأقوام الأحدث زمناً من التاسيين. ولذلك قيل بأن التاسيين جنس بشرى مختلف عن الجنس الذى سكن مصر من بعدهم . ولا يعرف بالضبط عمر المقابر التاسية ولكن يمكن وضعهم على رأس مجموعة المقابر الأحدث زمنا التى تضم هياكل المصريين من عصر ماقبل الأسرات . ويمكن أن نرجع التاسيين إلى نفس جنس الهدندوة الحاليين — أى أنهم حاميون — واعتبارهم من الزراع .

المرتبة الحضارية لأهل تاسا :

حضارة تاسا هى أقدم حضارات العصر الحجرى الحديث بالصعيد وقد كان أهلها يدفنون موتاهم فى جبانات مستقلة عن مساكن الأحياء وكانت مقابرهم عبارة عن حفر مستطيلة ولبعضها طاقات يوضع فيها أثاث المقبرة . وهذا يدل على أن المرتبة الحضارية لأهل تاسا كانت أعلا من أهل مرمدة رغم أن الأخيرين أحدث فى الزمن ، فإن أهل مرمدة كانوا كأسلافهم من أهل العصر الحجرى المتوسط مازالوا يدفنون موتاهم داخل المساكن بالقرب من المواقد. ولسنا نعرف شيئاً عن مساكن أهل تاسا كما لا نعرف شيئاً عن المواد التى كان يستعملها الأحياء ألا ماوجد فى مقابرهم. فأما صناعتهم الصوانية فكانت عبارة عن صناعة نواة غير راقية يستخدم فيها الصوان المحلى . وكانوا يستعملون فؤوسا مصنوعة من أنواع مختلفة من الحجارة وكان للفأس حد قاطع . وقد سبق أن ذكرنا أن أوانيهم الفخارية فيها الأسمر والأسود وبعضها مموج السطح ، وأنهم كانوا يعرفون صناعة الآنية الحمراء المصقولة . وقد وجد بهذه الحضارة نوع من الأوانى الفخارية مخروطى الشكل مزدوج. وليس هناك مايثبت أو ينفى أصالة الآنية ذات الحافة السوداء بدير تاسا غير أنه يلاحظ أنه حتى الدولة الحديثة كان أهل النوبة يفدون إلى مصر ومعهم أوانى فخارية ذات قمة سوداء

شبيهه بأوانى فجر التاريخ المصرى. وقد يبعث هذا على الظن بأن أصل هذه الأوانى نوبى لا سيما وأن هناك شبها كبيراً بين النوبة ومصر فى أدوات فجر التاريخ كالآلات الصوانية والفؤوس الحجرية والأوانى الفخارية. كما أن هذا يؤيد رأى القائلين بأن سكان مصر الأقدمين وفدوا من الجنوب.

ونحن إذا نظرنا إلى حياة القبائل الحامية الحالية كالهدندوة نجد أنهم ظلوا حتى القرن الماضى يعيشون فى الصحراء الشرقية كرعاة رحل ولكنهم كانوا يحتفظون بقرى ثابتة إلى حد ما بالقرب من السهول الفيضية وكانوا يبذرون حبوب الدخن فى الأرض بعد انحسار الفيضان عنها ثم ينتظرون المحصول. فمثل هذه الجماعة التى تعيش جنوب نطاق الجفاف الشديد تمثل نوع الحياة المعزوة إلى الأسلاف المباشرين للبداريين الذين هم أقدم الزراع الذين وصلوا إلى علمنا نتيجة للبحوث الأثرية فى وادى النيل. فهذه الصورة التى كوناها عن الهدندوة تنطبق على الصورة التى كوناها عن جماعة تاسا من المخلفات الأثرية المكتشفة فى قرية دير تاسا وغيرها من الجهات الواقعة على شاطىء النيل الشرقى بجوار البدارى.

وكان التاسيون يعرفون الزراعة بدليل الحبوب التى وجدت بمقابرهم غير أنهم لم يكونوا يعيشون معيشة استقرار تامة بدليل ندرة مقابرهم وشدة تفرقها. وكانوا إلى جانب الزراعة البدائية يمارسون صيد البر وصيد النهر وكان رأس الدبوس من أسلحتهم إذ وجدت آلة القتال هذه فى إحدى مقابرهم ولكن من الغريب أنها مقبرة إمرأة. وكانت الأسماك تصاد بسنانير من الصدف أو عظام القرون.

وفى عهد التاسيين كانت مساحات كثيرة من الوادى ما زالت مغطاة بالمستنقعات وكانت الأشجار الضخمة مازالت تشغل قاعدة الهضبة بالقرب من حدود السهل الفيضى وقد صنع التاسيون الفؤوس الحجرية لقطع هذه الأشجار. ولعل اختفاء هذه الفؤوس من مصر العليا والوسطى فيما بعد سببه أن ازدياد الجفاف أفنى الأشجار فلم تعد هناك حاجة لصنع هذه الفؤوس.

وتوجد بقايا ضئيلة للمنسوجات التاسية ولكننا لا نعرف شكل الزى. ونستنتج من وجود اللوحات أنهم عرفوا الزينة كطلاء الوجه بالألوان وقد قلنا أن هذه اللوحات كانت تصنع من المرمر المصرى (الألباستر) وكانت

سميكة وقائمة الزوايا ومختلفة فى شكلها عن اللوحات الأحدث . وكذلك كان التاسيون يلبسون الحلى فمن مخلفاتهم أصداف البحر الأحمر المثقوبة والخرز الأسطوانى الشكل المصنوع من العظم أو العاج وقد وجد كذلك خلخال من العاج.

حضارة البدارى

وجدت حضارة البدارى فى الهمامية بالقرب من مدينة البدارى حيث كشفت المساكن والمقابر . وحينما استقر أصحاب هذه الحضارة فى هذه المنطقة كان المطر مازال يسقط بانتظام على القطر المصرى من ساحل البحر الأبيض حتى أسيوط وكانت تنمو عند قاعدة التلال الجافة بالوادى أشجار طويلة لا نجد لها مثيلا فى مصر التاريخية ولا فى الفترة الأخيرة من فجر التاريخ . وتوجد جذور تلك الأشجار فى الوقت الحاضر بين الأكواخ والمقابر التى تمثل هذا العصر .

وقد استندت مس كيتون تمسون إلى أن البداريين كانوا يستعملون الحصى السطحى فى صناعتهم الصوانية رغم وجود انواع جيدة من حجر الصوان فى تلال الحجر الجيرى القريبة منهم فى القول بأن موطنهم الأصلى كان خارج هذه المنطقة المحاطة بالحجر الجيرى وأنهم كانوا يجهلون وجود الصوان الجيد بها . وتنتهى الطبقات الجيرية فى الصحراء الشرقية جنوب خط عرض ٢٥° بانتهاء الطبقات الأيوسينية وبدء الطبقات الكريتاسية وأما فى الصحراء الغربية فأن الخط الفاصل بين الطبقات الجيرية والكريتاسية أكثر بعداً نحو الجنوب ، ومن ناحية أخرى تمتد صخور الزمن الثالث الجيرية بلا انقطاع من منطقة البدارى حتى البحر الأبيض المتوسط بل تستمر فى الامتداد نحو الشمال الشرقى حتى فلسطين . فإذا سلمنا بجهل البداريين بمناطق الحجر الجيرى حيث الصوان الجيد فلا بد من القول أنهم وفدوا من الجنوب . وتعزز الأدلة الأثرية الأخرى هذا الفرض .

ولقد صنعت الآلات الصوانية محليا بدليل الكمية الكبيرة من فضلات الحصى

التى وجدت بالمكان . وكانت طريقتهم فى صناعة الأسلحة الصوانية طريقة التشظية بواسطة الضغط ، وقد صنع بهذه الطريقة السهام الحادة قلنسوية الشكل أو ذات الجناحين والأسلحة الرفيعة التى على شكل ورق الصفصاف ، والمكاشط الحادة والسكاكين والأسلحة ذات الأسنان كالمنجل والمنشار، وهى مشطوفة من الوجهين ومن أهم آلات البدارى الصوانية تلك المسماة بالشظية ذات الضربة الجانبية وهى شظية مقوسة عادة .

ويلاحظ أن أغلب هذه الأسلحة الصوانية من أدوات النجار بسبب كثرة الغابات فى منطقتهم فى ذلك الوقت ، ولم تلبث هذه الغابات أن اختفت فى القسم الأخير من عصر ما قبل الأسرات بسبب زيادة الجفاف . وأما المكاشط فكانت من أدوات دباغ الجلود . وتعتبر السهام — سواء ما كان منها ذا جناحين أو على شكل ورق الصفصاف — مثلا حسنا للصناعة البدارية (أنظر شكل ٤٥) .

شكل (٤٥) آلة صوانية على شكل ورق الصفصاف من البدارى

وقد امتاز البداريون على أسلافهم بمعرفة النحاس ولذلك اعتبروا فى مرحلة حضارية أرقى وأحدث من التاسيين كما يرجح أنهم استعاضوا بالفأس النحاسية عن الفأس الحجرية التى عرف بها التاسيون .

وكان عند البداريين آلات عظمية مدببة الطرفين ربما كانت تستخدم كسهام ، كما كان عندهم من أدوات القتال — بخلاف القوس والسهم — العصى القاذفة Boomerang المصنوعة من الخشب ثم القرص Mace المصنوع من الحجر الصلب وهو مثقوب

من الوسط لكى يركب فى قطعة من الخشب ويستخدم فى الضرب ، ويطلق البعض على هذه الأداة اسم رأس الدبوس . وكذلك عرف البداريون صناعة السنانير .

أما الأوانى الفخارية ولا سيما التى صنعت لوضعها فى المقابر فقد بلغت درجة من الاتقان والرقة لم تبلغها حضارة مصرية أخرى قبل البداريين أو بعدهم . ويمكن أن نميز فى صناعة البدارى الفخارية بين الأنواع الآتية :

١ — أوانى حمراء ذات حافة سوداء لأنها غطيت بطلاء من مادة حديدية وكانت تحرق مقلوبة بحيث يكون جزء الآنية الأسفل معرضا للهواء الطلق وبذلك يكتسب لونا احمر نتيجة لتأكسده بينما تكون حافة الآنية سوداء كما يكون داخلها ذا لون

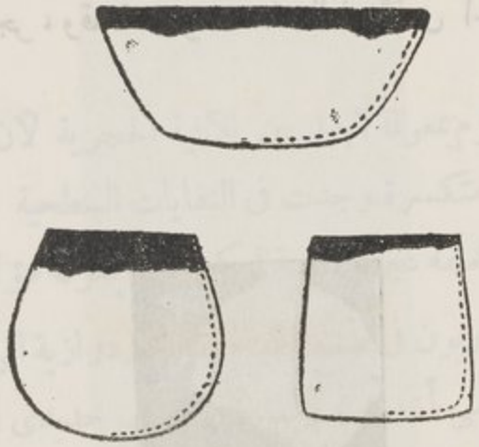

شكل (٤٦) أوانى سوداء القمة من البدارى

اسود كذلك . ومن الأوانى المصنوعة بهذه الطريقة الجفان وهى ذات جوانب عمودية غالبا ومقعرة أحيانا . وهذه الأوانى شديدة الرقة صقلت قبل ادخالها الموقد (الفرن) كما تتصف بتموج السطح وهذا هو ما يميزها عن أوانى حضارة نقادة التى من نوعها فأنى الأوانى المموجة السطح لا توجد بعد حضارة البدارى . (انظر شكل ٤٦)

٢ — أوانى سوداء مزينة برسوم بيضاء ، وهذه الرسوم عبارة عن مثلثات وخطوط مرصوصة فى صفوف . وهذه الأوانى ذات شكل واحد هو « القدح الذى على شكل الناقوس » وهو تقليد لصناعة الأسبته (أنظر شكل ٤٧) .

٣ — أوانى خشنة رديئة الاحتراق وتحتوى على قش كثير رغم أن أشكال هذا النوع متقنة ومتنوعة (أنظر شكلى ٤٨و٤٩) .

شكل (٤٧) أوانى سوداء مزينة برسوم بيضاء من حضارة البدارى

وبعض الأوانى البدارية مزين من الداخل برسوم ، وهى رسوم بسيطة معظمها على شكل فروع الشجر ، وقد استمرت هذه الطريقة فى الحضارات التالية مثل حضارة نقادة .

شكل (٤٨) انية غير جيدة الاحتراق من البدارى

وقد لوحظ على الصناعة الفخارية بالبدارى أن تميز الآنية بعلامة خاصه تدل على الملكية أو غير ذلك من الأمور النادرة . كما لوحظ أنه رغم كثرة الأوانى فأن صناعة اصلاح المكسور منها كانت موجودة ، وذلك بواسطة عمل ثقوب على كلا جانبي الكسر ثم وصلها بخيط من العشب .

إذا تركنا صناعة الأوانى الفخارية وانتقلنا إلى صناعة الأوانى الحجرية نجد هناك رأيين رأى يقول أن البداريين عرفوا تجويف حجر البازلت وتشكيله إلى أوانى مخروطية الشكل ذات حافة مشطوفة والرأى الثانى يشكك فى صحة الرأى الأول

شكل (٤٩) انية غير جيدة الاحتراق من البدارى

ويقول أنه لا يمكن الجزم بمعرفة البداريين للآنية الحجرية لأن كل ما كشف بالمنطقة كان عبارة عن قطع متكسرة وجدت فى النفايات السطحية ولا بد من العثور على قطع كاملة فى طبقات عميقة غير سطحية لكى نجزم بمعرفة هؤلاء القوم لهذه الصناعة

ولقد تفوق البداريون فى صنع اللوحات الأردوازية التى كانت تستخدم لطحن الملاشيت (تراب نحاسى أزرق) والمغرة (تراب حديدى أحمر) وكانت هاتان المادتان تستخدمان فى طلاء العين والوجه بقصد التزين ، كما وجدت بعض لوحات من المرمر. وقد عرف البداريون صناعة التماثيل فقد وجد بمقابرهم ثلاثة تماثيل نسائية صغيرة ذات أشكال مختلفة، أحداها من الطين المحروق (من الفخار الأحمر المصقول) والثانى من الطين الغير محروق والثالث من العاج . فأما التمثال الأول فهو لا مرأة صغيرة السن يلاحظ عليه حرية فى الحركة لم تعرف فى الفن المصرى الصميم ، وهو من غير رأس كما أن جزءاً من الرجلين مفقود . وأما التمثال الثانى فهو لا مرأة صغيرة السن كذلك وهو أقل اتقانا فى تشكيله . كما أنه كامل إلا من الصدر فهو مكسور ولم تصنع له رجلان فى الأصل وأنما قام على قاعدة مدببة كما أنه لم تصنع له ذراعان .

وقد وجد مثل هذا النوع فى المقابر المصرية فى الحضارات التالية ، كما وجد شبيه له من بعض الوجوه فى بعض جهات شرق البحر الأبيض المتوسط . وأما التمثال الثالث فيمثل امرأة أكبر سنا وذات رأس ضخمة وعيون واسعة وأنف كبير وصدر بارز . (أنظر شكل ٥٠)

(شكل ٥٠ تمثال من البدارى)

وفيما عدا التماثيل كان البداريون يصنعون أشياء فنية أخرى فكانوا يصنعون من العاج القوارير والملاعق والامشاط والدبابيس وبعض الأوانى الأسطوانية الشكل . كما كانوا يشكلون حبات الخرز من حجارة الكوارتز والفلسبار ، وكانوا يشكلون الأقراص من قشر بيض النعام ، ويصنعون من أصداف البحر منظومة فى شكل عقود وأحزمة وأساور .

وقد دلت جبانة البداريين على أنهم كانوا يدفنون الميت فى وضع مقرفص فى حفرة غير عميقة مكسوة بالحصير أو جلد الماعز وأحيانا تكون مغطاة بأغصان الأشجار . كما دلت على أن البداريين كانوا قصار القامة نحاف الجسم ، وكانت رأسهم صغيرة ضيقة فهم فى هذا شبيهون بسكان مصر فى القسم الأخير من عصر ما قبل الأسرات غير أن الصفات الزنجية فى البداريين واضحة ، فهم يقتربون فى بعض النواحى من الأجناس الهندية القديمة كالدراڤيديين فى الهند والڤدا فى سيلان . وليس معنى هذا أنهم ينتمون للجنس الزنجى بل كل ما فى الأمر أن فيهم صفات زنجية طفيفة ، فهم حاميون عليهم مسحة زنجية . وكذلك دلت محتويات مقابرهم على أنهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى ، وكانت لهم طقوس جنائزية . ولما كانت التماثيل الثلاثة التى كشفت بهذا المكان وجدت كلها فى مقابر فلا بد أن لها دلالة دينية أو سحرية .

وكذلك وجد بالبدارى مدافن خاصة للحيوانات ، هذا بالأضافة إلى الحيوانات المدفونة مع الميت ، ولهذا وذاك دلالته الدينية . فقد وجد فى منطقة ثلاث مقابر لنوع من الأبقار ، ووجد فى منطقة أخرى مقبرة لحيوان يشبه الكلب أو ابن آوى ووجدت كذلك مدافن للغنم والماعز . وعلى هذا يمكن القول كذلك أنه كان هناك تعدد فى الحيوانات المعبودة فهذا يعبد ابن آوى وذاك يعبد البقرة وهكذا .

أما عن حياتهم الاقتصادية ، فقد كان البداريون زراعا ولكن لا يعرف أنواع أنواع الحبوب التى كانوا يزرعونها ولا نوع الألياف التى كانوا يغزلونها ، وأما زيتهم فكان زيت خروع مستخرج من النباتات البرية .

ومن المرجح أن البداريين وصلوا إلى مرحلة الاستقرار التام فى قرى ثابتة منظمة وأنهم لم يكونوا نصف زراع أو نصف رحل كبعض الجماعات الحالية التى تزرع الأرض ثم تتجول بأغنامها على أطراف الصحراء ولا تعود للوادى الا لكى تجنى المحصول ، فلا شك أن وادى النيل الخصيب الغزير الانتاج أغرى البداريين بالاستقرار التام ماداموا قد عرفوا اختراع الزراعة .

ولقد كان للبداريين قطعانهم من الماشية والأغنام والماعز . ولما كانت الأغنام والماعز ليستا من الحيوانات الوطنية بشمال افريقية ، إذ ليس لها أجداد برية فى هذا الجزء من العالم ، فلابد أنها استؤنست فى الجهات التى كان فيها — وما يزال بها — أنواع برية من هذه الحيوانات أى فى غرب آسيا . وربما كان أقدم جنس من الأغنام عرف فى شمال أفريقيا قصير الذيل ذا المعرفة ، وموطنه الأصلى بلاد فارس ومازال يوجد حتى الوقت الحالى فى وسط افريقية . والجنس الثانى من الأغنام — وهو أحدث هجرة إلى أفريقيا — ذو أقدام طويلة ، وموطنه الأصلى الجزء الشرقى من غرب آسيا . وتدل رسوم الأغنام على الأوانى الفخارية بحضارة نقادة — التى سنعرفها فيما بعد — على أن الجنس الثانى هو الذى كان موجوداً بمصر فى عصر نقادة ، ولكن لا يوجد مايدل على أنه وجد قبل ذلك .

وقد قلنا أن صناعة الصوان بالبدارى محلية بدليل أنها كلها من الحصى السطحى الموجود بالمنطقة ، ومثل هذا يمكن أن يقال على معظم الصناعات البدارية . وأما العاج الذى استعمله البداريون فى صناعتهم فقد كان من الفيلة المحلية فى الغالب وإن كان من الجائز أن يكون مستورداً من الجنوب . أما النحاس والتركواز فلا يعرف المكان الذى جلبهما منه البداريون فربما كان من الصحراء الشرقية أو شبه جزيرة سينا أو هما معا . وأما الأصداف فهى من النيل والبحر الأحمر ولم يستعملوا أصداف البحر الأبيض .

يتبين لنا من هذا الوصف أن البداريين من الناحية الثقافية لم يكونوا أرقى من القفصيين الصيادين فحسب ، بل كانوا أرقى من أية جماعة من جماعات العصر الحجرى الحديث فى أوروبا . إذ كانو يعيشون فى قرى منظمة يزرعون الحبوب ويرعون الحيوانات المستأنسة ، هذا بخلاف صيد البر وصيد النهر . وكان يلبسون ملابس مصنوعة من الألياف النباتية أو من جلود الحيوانات . وكانوا مهرة فى صقل الحجارة وفى الغزل والنسيج وفى صناعة الاسبتة والاوانى وفى نحت الخشب والعظم

والعاج . أى أنهم كانوا مهرة فى كل الصناعات التى ندخلها تحت اسم « العصر الحجرى الحديث » .

وقد وجدت بينهم وبين سكان ساحل البحر الاحمر وشبه جزيرة سينا علاقات تجارية فاستمدوا من الاول الاصداف لصنع العقود ، ومن الاخيرين الملاشيت لطلاء العين .

حضارة الفيوم

فى نفس الوقت الذى انحدر فيه البداريون إلى منطقتهم فاستوطنوها بل ربما قبل ذلك وصلت جماعة أخرى شبيهة بالشعب البدارى إلى شواطىء بحيرة الفيوم فاستقرت عليها . وكانت البحيرة فى هذا الوقت تملأ المنخفض إلى ارتفاع ستين مترا فوق مستوى البحيرة الحالى . وكان شعب الفيوم يزرع الحبوب كالشعير ويرعى القطعان كالثيران ، هذا فضلا عن الحرف القديمة كصيد السمك وصيد الحيوانات .

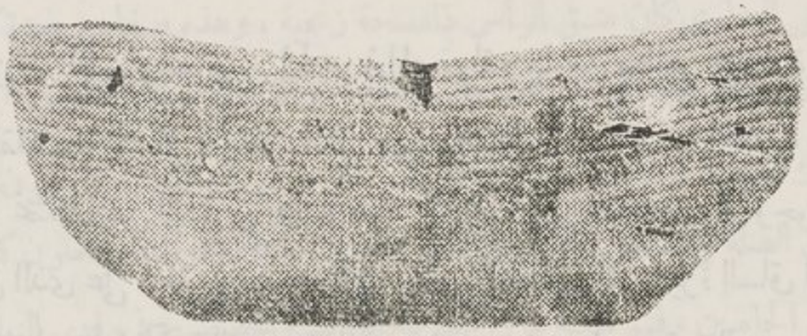

شكل (٥١) سبت من الفيوم

وكانوا يخزنون حبوبهم فى مخازن خاصة . وقد عرفوا صناعة الأسبته (أنظر شكل ٥١) كما كانوا يعرفون معظم الفنون التى رأيناها فى البدارى فيما عدا النحاس والخرز وجلبوا بواسطة التجارة الأصداف من البحرين الأبيض والأحمر . ولا نجد هنا بعض المظاهر الهامة التى رأيناها فى البدارى مثل الأوانى الفخارية الجميلة ، ومثل

السنانير ومثل العاج المشغول ومعظم الحلى. ولكن يلاحظ أنه لم تكتشف مقابر بالفيوم ، وربما يؤدى كشف المقابر إلى ظهور أشياء جديدة .

(شكل ٥٢ سهم قلنسوى الشكل ومنشار من الفيوم)

وتوجد بالفيوم الفؤوس الحجرية المصقولة وبها من مظاهر حضارة البدارى السهام القلنسوية الشكل (أنظر شكل ٥٢) والشظايا ذات الضربة الجانبية والهراوة ولكنها تختلف عن البدارى فى وجود السهام ذات القاعدة وفى وجود رأس الدبوس الذى على شكل قرص ، وفى وجود الحراب المستديرة الساق التى تخرج منها شوكاتها . أما الآنية الفخارية بالفيوم فهى من نوع غير متقن الصنع ، فعجينتها رديئة وحرقها غير جيد .

ويدل توزيع الآلات الصوانية على أن شعبا شبيها بشعب الفيوم والبدارى كان يعيش فى الواحات والمجارى المائية الصحراوية وينتشر فى القسم الجنوبى من مصر من وادى النيل حتى الواحة الخارجة وفى قسمها الشمالى من حلوان حتى سيوة . وتدل المناطق التى وجدت فيها هذه الآلات على أن سكانها اختاروا مناطق صالحة للزراعة وصيد

الأسماك . ويظهر أن هذه المناطق هى المنبع الذى استمد منه جنوب تونس والجزائر حضارته فى العصر الحجرى الحديث : فى هذه المحطات الغربية نجد بعض مظاهر حضارة الفيوم ممثلة مثل السهام القلنسوية الشكل . وتظهر هذه الآلات الفيومية كعناصر شاذة وسط مظاهر الحضارة الجتولية (الليبية) ذات الأسلحة الحجرية القزمية الصرفة .

يقول السير فلندرز پترى أن البـــداريين واقربائهم الفيوميين أتوا من جهات القوقاز ، ويقول أنهم فرع من العائلة التى هاجرت إلى أوروبا وأسست بها الحضارة السولترية ، مستندا فى ذلك إلى التشابه الموجود فى الصناعة الصوانية بين الحضارتين . ولكن الحقيقة أن هذا التشابه سطحى لا يؤدى إلى هذا الرأى الخطير ، ثم أننا لم نجد حضارة سوليترية فى آسيا أو القوقاز . والأقرب من هذا أن نقول أن أوراق الصفصاف البدارية مستعارة من السبيكية الأفريقية . وقد قيل فى تأييد النظرية القوقازية أن بعض أسماء الأماكن القوقازية والأرمينية وجدت فى كتاب من سوريا إلى مصر . ولكن تقوم عقبة كبيرة فى سبيل هذه النظرية وهى أن الجنس البدارى كان ضيق الرأس ذا مسحة زنجية ، وهذه صفات بعيدة كل البعد عن الرءوس العريضة التى خرجت من منطقة القوقاز وارمينيا (الجنس الألبى) .

هناك لفيف آخر من العلماء يتألف من برنتون وكيتون تومسون وينكر يوجدون الصلة بين الشعب البدارى الفيومى وبين سكان النوبة ، ويجعلون كل هؤلاء شعبة من الحاميين ، فهم شعبة من المجموعة القفصية تخصصت فى وادى النيل .

أما وجود الصفات الزنجية فى الهياكل البدارية فقد أدى إلى ظهور نظرية غريبة مضمونها أن جنسا زنجيا لم تتمكن منه الصفات الزنجية تمام التمكن ـ لأنه كان سابقا فى الزمن للجنس الزنجى الحقيقى ـ انتشر شمالا حتى البرتغال وشمال أيطاليا فى أواخر البليستوسين وأوائل العصر الجيولوجى الحديث . ويستشهد أصحاب هذه النظرية بهيكل إنسان جريمالدى فى Mentone وأكوام الأصداف عند مصب التاجة

بأسبانيا والتماثيل ذات العجز الضخم التى ترجع للعصر الحجرى القديم فى فرنسا وشمال إيطاليا والنمسا وروسيا . ومثل هـذه التماثيل وجدت فى العصر الحجرى الحديث فى مالطة وكريت وتراقية (ويلاحظ أن العجز الضخم معتبر من علامات الجمال عند المرأة فى شعب الهوتنتوت .) . وفى هذه الأجزاء من أوروبا نجد أقدم أنواع الفخار الأسود ذى الخطوط الذى على شكل القرعة ، وقد وجدت مثل هذه الأوانى فى البدارى وظلت موجودة فى بلاد النوبة وهى تتفق اتفاقا غريبا مع أقدم أوانى الطونة .

ويمكن القول أن هذه الظواهر الأنثروبولوجية والثقافية ترجع إلى مخلفات جنس أوروبى أفريقى قديم انتشرت فروعه شمالا وجنوبا بسبب الجفاف الذى حل بدياره . وهذا يفسر التشابه الموجود بين أفريقيا وجنوب أوروبا .

وعلى أى حال لم تفد الحضارة المصرية القديمة إلى هذه البلاد من الخارج ، بل هى أصيلة فى وادى النيل . أما أجداد البداريين فليسوا الجيتوليين الصيادين الذين كانوا يسكنون صحراء ليبيا بل هم جماعة كانوا فى المستوى الثقافى للهد ندوة أى أنهم نصف رحل أو نصف مستقرين . ثم انتشرت الحضارة البدارية بعد ذلك فاثرت فى الصيادين الجيتوليين ووصل تأثيرها إلى بلاد أطلس ثم عبرت مضيق جبل طارق على أن تزايد الجفاف أدى إلى انتقال بعض العناصر الجيتولية من الغرب ووصولها إلى وادى النيل . وقد نتج من اختلاط هذه العناصر الجديدة مع البداريين قيام الفترة الأولى من عصرما قبل الأسرات تلك الفترة التى تعرف مظاهر حياتها من المحطات الأثرية العديدة الممتدة على طول الوادى من البدارى شمالا إلى النوبة السفلى جنوبا .

حضارة العمرى

(أو حضارة حلوان الأولى)

تحيط حافة الهضبة الغربية بمدينة حلوان من الشرق . ولقد كانت هذه الحافة عبارة عن شاطىء النهر فى عصر البليوسين ، وقد حفر النهر حينذاك خلال صخور الحجر الجيرى الأيوسينية وادياً متسعا لا يشغل فى الوقت الحالى من هذا الوادى ألا قاعه . وتوجد ثغرة كبيرة فى هذه الحافة فى منتصف المسافة بين حلوان والمعصرة، هذه الثغرة عبارة عن مصب وادى حوف أحد الوديان العديدة الجافة حاليا والتى كانت فى الماضى تجرى بالمياه حتى تصب فى النيل كما كانت تقطع الهضبة إلى أجزاء متفرقة .

وتقع محلة العمرى بالضبط عند الطرف الجنوبى للخليج وعند قاعدة بروز صخرى فى حافة الهضبة يسمى رأس الحوف على بعد ثلاثة كيلوا مترات شمال مدينة حلوان وعند نهاية سكة حديد المحاجر .

وقد دل فحص المحلة على أن مساكن القوم أو أكواخهم التى يربو عددها على المئات مبعثرة فوق هضبة صحراوية تمتد من الجنوب للشمال نحو وادى صغير محفور فى رواسب الخليج القديم ، وهو موقع ملائم من عدة وجوه فهو يجعل القوم فى مأمن من خطر السيول التى كانت كثيرة الحدوث فى تلك الفترة الوفيرة الأمطار كما يجعلهم على حذر من عدوهم - إنسانا كان أو حيوانا - بإشرافهم من تلك الربوة العالية على الجهات المحيطة بهم .

وتنتهى الهضبة من الجانب الجنوبى المواجه لحلوان بقطع رأسى لا يزيد عمقه عن متر نتج عنه حفرة واسعة الصحن قليلة العمق ، جدرانها من حصى الهضبة الأصفر . ويغلب على الظن أن هذه الحفرة نتجت حديثا عن الأعمال الخاصة بمد سكة حديد المحاجر . وقد وجدت الحفرة ممتلئة بالطين الأسود المختلط بالشقف

والعظم المكسور أو المحروق ، وبشظايا الصوان المتأثر بالنار كثيراً أو قليلا . ويرى بوفييه لاپيير أن هذه الحفرة عبارة عن موقد يتوسط أحد مساكن القوم القديمة وأن المسكن ذو شكل مستدير على مثال الكثير من مساكن فجر التاريخ .

وجميع مواقد القوم الأخرى عبارة عن حفر صغيرة مستديرة يملأها الشقف وشظايا الصوان . وقد خرب الكثير من هذه الحفر بفعل السباخين أو الباحثين عن الكنوز فى المناطق الأثريه .

ومساكن القوم مجمعة فوق سطح مهد خصيصا لذلك ونقى مما فيه حصى ، ويظهر الفدق واضحا بين لون هذا السطح الفاتح الممهد بيد الإنسان ولون السطح الداكن المجاور له الذى مهدته العوامل الطبيعية من جوية وغيرها . وقد وجدت جميع المواقد مجمعة فوق هذا السطح الممهد فيما عدا موقد أو اثنين ، ويعتبر بوفييه لاپيير هذه الحالة تنظيما بدائيا لتخطيط المدن فى هذا العصر المبكر . ويمكن تتبع حدود القرية فى خط متعرج يضم فى داخله جميع المساكن المتطرفة عن قلب القرية .

ويوجد حولى محيط هذه القطعة من الأرض الممهدة التى كانت تشغلها المساكن قديما - فيما عدا الجانب الجنوبى الذى غيرت من معالمه المحاجر - شريط من الأرض لم تشغله المساكن وإنما تغطيه شظايا الصوان التى لا حصر لها . وكذلك يكثر بهذا المكان النوى وهو كتل الصوان الأصلية التى فصلت عنها هذه الشظايا كما تكثر المطارق التى استخدمت فى فصل الشظايا عن النواة . ويرى بوفييه أن هذا هو المصنع الرئيسى بهذه القرية حيث كانت تصنع فيه الأسلحة من فؤوس وسكاكين ورؤوس سهام وغير ذلك . وقد دل فحص الأسلحة التى جمعت من هذا المصنع على أنها ترجع لمرحلة قديمة من مراحل العصر الحجرى الحديث .

وكذلك جمعت من منطقة السكنى قطع كثيرة من الأوانى الفخارية المكسرة ويدل بعض هذا الشقف أنه كان لقدور كبيرة . كما وجد رحى من الحجر الرملى كان يستخدم لطحن الحبوب . وكذلك عثر على عظام حيوانات كثيرة بعضها مكسور

والبعض الآخر محروق، وعلى صدفة بحرية وأسلحة من الصوان مشطوفة، وإحدى هذه الأسلحة ذو أسنان، هذا بخلاف الشظايا الأخرى الكثيرة والنوى العديد وقطعة من مطرقة حجرية. والعثور على هذه الأدوات داخل المساكن يدل على أن صناعة الآلات الصوانية كانت تجرى داخل الأكواخ أيضا فضلا عن المصنع العام للقرية.

ولما كان سطح المواقد والمسافات الفاصلة بينها مغطاة بهذه القطع العديدة من الشقف ومن الأسلحة الصوانية، هذا بالإضافة إلى أحجار الرحى، فيمكن من مجموع ذلك تكوين صورة عن محتويات المسكن أو أثاثه. وأما شكل المسكن فقد كان فى الغالب مستديراً يتوسطه الموقد وكان للمسكن باب أو أكثر ثم كوة فى أعلاه لتصريف دخان الموقد. وفى الغالب كانت تبنى الأكواخ من جذوع الأشجار تتخللها فروعها ثم تطلى بالطين.

ويوجد دَرْبان يؤديان من القرية إلى جبانتها يؤكد بوفييه قدمهما ويرجح أنهما مهدا خصيصا لتيسير الانتقال بين مساكن الأحياء ومساكن الموتى.

وإلى الشمال من القرية يوجد تل على شاطىء الوادى الأيمن به كثير من شظايا الصوان ثم من الشقف والعظم المحروق ورماد المساكن الأسود وربما تمثل هذه الآثار ضاحية من ضواحى القرية أو تمثل مخلفات المطبخ Kjokkenmodding أو مكانا للعبادة تقدم فيه الضحايا. ومما يعزز الغرض الأخير وجود طريق يؤدى من هذا التل إلى مجموعة من المقابر.

أما عن صناعة القوم الحجرية فأغلبها من الصوان. وتوجد فيها الشظايا والأسلحة المختلفة مختلطة بالنوى وهى كتل الصوان الأصلية التى منها فصلت الشظايا ثم المطارق وهى كتل مستديرة من الحجر استخدمت فى فصل الشظية عن النواة أو كتلة الصوان الأصلية. وكانت هذه المطارق من حجر الصوان ومن الخشب المتحجر المنتشر فى هذه المنطقة. ومن ضمن آلاتهم كذلك المكاشط ذات الأشكال المختلفة

التى كانت تستخدم فى اعداد جلود الحيوانات للملبس أو للأغراض الأخرى . وقد وجدت أيضا أسلحة عديدة على هيئة مثلث متساوى الضلعين ربما كانت تستخدم رءوس حراب . وهى تستعيد بوجهها المشكلين بعناية الطريقة السولترية فى صناعة الأسلحة . وقد استخدمت نفس الطريقة فى اعداد نوع آخر من الأسلحة هى السكاكين العريضة المسطحة الوجـــه المشغولة من الوجهين وذات جانب أكثر تقوسا من الآخر . وربما كانت هذه السكاكين باكورة صناعة « سكاكين الضحية » التى ستعرف فى عصر ما قبل الأسرات .

ومما تمتاز به محلة العمرى ـ شأن كل محلة أخرى من العصر الحجرى الحديث ـ السهام والفؤوس المصقولة . ومن بين السهام ما يشبه سهام الفيوم ذات القاعدة التى على شكل هلال . وأما الفؤوس فالقليل منها ما صقل صقلا كليا ومعظمها لم يصقل إلا عند حدها القاطع ثم فى جزء من السطح ، والجزء الأكبر من هذه الفؤوس كان معداً للصقل ولـكن ذلك لم يتم .

وأما عن صناعة القوم الفخارية فهى تسترعى الأنظار لأول وهلة بحالتها البدائية . فعجينتها غير مصنوعة بإتقان كما أن تشكيلها غير منتظم وحرقها غير جيد . ولم تجمع من المساكن إلا قطع من شقف هذه الآنية ومن ثم لا يمكن الحـكم على شكلها حكما صحيحاً . على أنه يمكن القول أن بعضها ذو أحجام صغيرة وسمك قليل ، وذو شكل بيضاوى وقاعدة مسطحة . وأن البعض الآخر ذو أحجام كبيرة وجدران سميكة ، ربما كانت قدور الطبخ مستديرة الحافة أو مواجير عميقة كبيرة الحجم .

وأما عن مقابر القوم فأن المجموعة الأولى من هذه المقابر تقع على بعد مئات من الأمتار شمال شرق قرية الأحياء ، وفى وادى صغير متصل بخليج وادى حوف . ولقد كانت السيول تطغى على هذه المنطقة بكثرة فتخلفت عنها طبقة سميكة من الرواسب التى أرسبت فى عصر سابق لاستخدام هذا المـكان للدفن بدليل الآلات الحجرية التى جلبتها هذه السيول والتى ترجع للعصر الحجرى القديم الأسفل . فلما انقطع

تدفق هذه السيول بسبب الجفاف الذى ساد البلاد اتخذ أصحاب حضارة العمرى من مدرجات هذا الوادى مدافن لموتاهم . وأول جزء فحص من الجبانه كان عبارة أكمة قليلة الارتفاع ملئت بكتل من الحجر الجيرى من كل المقاسات، القيت فى هذه الحفرة الواسعة — التى يبلغ قطرها سبعة أمتار — بدون أى نظام معين ، وترك منتصف الحفرة خاليا من الحجارة . وفى هذا الجزء الخالى كانت توضع الهياكل البشرية التى لم يعثر لها على أثر بسبب لصوص الآثار الذين ينبشون المقابر بحثاً عن الكنوز . ولا شك أنهم — على حد تعبير بوفييه لا پيير — فجعوا لما شاهدوه من فقر هذه المقبرة بعد المجهود الذى بذلوه فى فتحها .

أما طريقة الدفن فقد لوحظ عليها أن الميت كان يوضع فى المقبرة منثنياً بمعنى أن ركبتيه تكونان قريبتين من ذقنه كالجالس القرفصاء . ولم يكن أصحاب حضارة العمرى يعنون بوضع الرأس فى إتجاه معين ، وكانت توضح مع الميت أنية فخارية أو أكثر بقصد التزود للحياة الآخرة .

وكذلك تدل المقابر على تباين الناس فى الثروة فى ذلك الوقت المبكر ، فبعض المقابر عبارة عن حفرة بسيطة بها قطعة من الحجر فوق أرض المقبرة ، والبعض الآخر عبارة عن مدفن أعد بعناية ، ووجد كذلك مدفن لطفل معه آنية فخارية وليس على سطح المقبرة أية علامة تدل عليها . وقد وجد بمنطقة المقابر آثار مواقد مما يشير إلى وجود طقوس دينية خاصة بالميت .

وكذلك وجدت دوائر صغيرة من الحجر منتظمة قليلا أو كثيرا ، بعضها بجوار مقابر معينة والبعض الآخر ليس له علاقة بالمقابر ، وربما كانت لهذه الدوائر أيضاً علاقة بتقديم التقدمات والعطايا إلى الميت ، ومن الجائز كذلك أن لها علاقة بمراسيم الدفن .

وقد وجد بالقرب من مجموعة أخرى من المقابر — على مدرجات وادى يقع إلى الشمال الشرقى من المجموعة السابقة — مساحة دائرية الشكل من الأرض، مهدت بعناية وسطحت بدقة ونقيت مما بها من حجر، ولكن بها قطع من الأوانى الفخارية

المكسرة (شقف) وبعض الأسلحة الصوانية من نفس الأنواع التى توجد بالقرية وربما لهذه الأرض دلالة دينية خاصة فلعلها مكان عبادة أو مكان لتخليد ذكرى الميت أو لغير ذلك من الأغراض .

وخلاصة القول فى محلة العمرى أنها قرية من العصر الحجرى الحديث ليس بها من الآثار ما يدل على أنها أحدث من هذا العصر غير أن المكان لم يفحص بدقة ، ولم تجر فيه الحفائر بطريقة علمية منظمة ، وسيبقى التقدير الصحيح لمنزلة هذه الحضارة من فجر التاريخ المصرى معلقاً ، كما سيبقى ترتيبها الزمنى بالنسبة لسائر الحضارات المصرية فى هذا العصر مشكوكا فيه إلى أن يتم حفر المكان بعناية .

حضارة مرمدة بنى سلامة

وجدت هذه الحضارة فى مرمدة بنى سلامة . وهذه البلدة أفضل مكان تتمثل فيه هذه الحضارة كما أنها أحسن مكان بحث . وكذلك وجدت هذه الحضارة على الحافة الشمالية للفيوم وخصوصاً فى منطقة قصر الصاغة وهى ما يسمى حضارة فيوم ب . أما حضارة فيوم ا فقد سبق الكلام عليها . كما وجدت هذه الحضارة فى منطقة العمرى شمال حلوان وقد سبق الكلام عليها كذلك . ولقد كان المرمديون زراعا يزرعون القمح ويربون الثيران والأغنام والخنازير والكلاب وربما الماعز أيضاً . وتكثر هنا تربية الخنازير بينما لم يكن هذا الحيوان منتشرا فى مصر العليا فى ذلك الوقت . كما كان المرمديون يقومون ببعض الصيد فى البر والنهر ، كما كانوا يصطادون فرس الماء والـ Beaver والحيوان الأخير انقرض من مصر منذ مدة وكان يعيش فى المستنقعات ويقتات على الأسماك .

صناعة الصوان : كان الشطف ذو الوجهين سائدا سيادة تامة فى مرمدة كما هو الحال فى الحضارات القديمة بمصر العليا : وقد عرف المرمديون كذلك صقل

الصوان ولكن بقلة . وأهم الآلات الصوانية بمرمدة المناجل الحجرية التى تصنع بوضع أسنان من الحجارة فى يد خشبية . كما وجدت بمرمدة المكاشط والسكاكين والسهام القلنسوية الشكل ، وحافاتها إما مدببة أو مربعة (أنظر شكل ٥٣) وتندر

شكل (٥٣) سهم قلنسوى الشكل من مرمدة

فيها السهام ذات القاعدة . كما تكثر بمرمدة الفؤوس وهى على نوعين : نوع مصنوع من الصوان بتهذيبه وصقلة ، ونوع مصنوع من الحصى من أنواع مختلفة من الحجارة. وأحيانا لا يقتصر الصقل على الحافات بل يشمل سطح الآلة كله . وشكل هذه الفؤوس يميل للإستدارة ، وهى من مجموعة الفؤوس الإسطوانية (أنظر شكل ٥٤)

شكل (٥٤) آلة عظمية (على اليمين) وفاس حجرية (على اليسار) من مرمدة

صناعة الفخار : تختلف صناعة الفخار بمرمدة اختلافا تاما عن صناعة مصر العليا ، فالاوانى ذات الحافة السوداء نادرة جدا ، وكذلك الأوانى المصقولة السوده والحمراء نادرة . واوانى مرمدة ذات لون كدر أو رمادى باهت ذى بقع سوداء .

ومن اوانيها الكثيرة البيضاوية والمخروطية وكذلك التوأمية والملاعق (انظر شكل ٥٥) وحجم الاوانى غير كبير فلا نجد بها اوانى يزيد ارتفاعها عن نصف متر ، ولكن بها مواجير كبيرة . ومما يستلفت النظر هنا كثرة الاوانى ذات القواعد الحلقية ، بينما هذا النوع نادر بمصر العليا .

الاوانى الحجرية : الاوانى الحجرية نادرة بمرمدة ، ولكن بعضها جيد الصنع ، واهم اشكالها ما كان متسع الحافة ضيق القاعدة ، والحجارة المستعملة هى البازلت والجرانيت .

شكل (٥٥) أوانى فخارية من مرمدة

على اليمين ملعقة . فى الوسط جفنة . على اليسار آنية توأمية أو مزدوجة تشبه الملاحة .

الآلات العظمية : وجدت بمرمدة حراب وسنانير وابر ومثاقب كلها مصنوعة من العظم .

ادوات الزينة : ادوات الزينة تكاد تقتصر على بعض خرز من العظم وخواتم واساور من العظم كذلك واصداف مثقوبة . ويلاحظ انه لم يكتشف النحاس مطلقا بحضارة مرمدة وهذا مهم للغاية لانه يحدد لنا تاريخ هذه الحضارة ويجعلنا نضعها فى اوائل العصر الحجرى الحديث بمصر .

المساكن : أهم أنواعها مساكن بيضاوية مبنية من الطين كالأنواع التى تبنى بالطين فى القرى فى الوقت الحاضر . وكان ارتفاع الجدران حوالى متر واحد . ويظهر أنه لم يكن لها سقف وكان طولها حوالى متر أو مترين ولكن بعضها كان حوالى أربعة أمتار . أما المنازل الطويلة فكانت تستخدم للسكن وأما الصغيرة فلا يعرف الغرض

منها . وكذلك وجدت فى مرمدة المساكن المقامة على أعمدة وشكلها فى هذه الحالة مستدير .

مخازن الغلال : كانت تخزن الغلال فى أسبته كبيرة يصل قطرها أحيانا ثلاثة أمتار وهذه الأسبتة كانت مصنوعة من الغاب على مثال اسبته الفيوم الموضحة فى شكل ٥١ .

أما فى الفيوم ب والعمرى فلم يكتشف مثل هذه المساكن مما يبعث على الظن أنه يوجد اختلاف بين مرمدة من ناحية وبين هاتين الحضارتين من ناحية أخرى فى نوع الحضارة ودرجتها وزمنها .

وتمتاز حضارة مرمدة بظاهرة غريبة هى أن المقابر توجد غالبا داخل المساكن وهذه عادة غير مصرية ولم تعرف إلا فى هـذا المكان . وكانت تدفن الهياكل فى الشكل المنثنى على هيئه الجالس القرفصاء ، وكانت الرأس توجه عادة نحو الجنوب . وتدل مساكن مرمدة بنى سلامة وكذلك الحضارة المعاصرة لها فى الفيوم ، على أن اتساع هذه القرى كان كبيرا ، وهذه ظاهرة من ظاهرات قرى الدلتا على وجه العموم أما فى الصعيد فمساحة القرية كانت أصغر بكثير .

وتمتاز حضارة الفيوم ب بظاهرة غريبة هى ان مخازن الغلال المصنوعة من الغاب لم تكن توضع بالقرب من المساكن بل فى مكان خاص بعيد عن القرية ، ونجدها مركزة فى مكان واحد مما يبعث على الظن بوجود نوع من الأشتراكية عند هذه الجماعات .

وأما الفن فقد كان فقيرا فى هذه الحضارة وقد وجد تمثال لأنثى مصنوع من الفخار .

الفصل السابع

حضارات الوجه القبلى

فى عصر ما قبل الأسرات

كانت مصر فى العصرين الحجريين القديم والحديث فى مستوى حضارى يعادل المستوى الذى كان عليه كثير من بلدان العالم المعمور حينذاك ، ولكنها بعد ذلك تنفرد بالتفوق الحضارى وتتميز بالتخصص الثقافى ، وبذلك تمهد للحضارة العظيمة التى ستظهر فى عصر الأسرات . ولهذا نوضع مصر فى هذه الفترة فى مرحلة حضارية خاصة يطلق عليها « عصر ما قبل الأسرات » فلم يعد تعبير العصر الحجرى الحديث يلائم هذه الحضارة الجديدة التى يكثر فيها استعمال المعادن وترقى فيها الصناعة الفخارية والحجرية والعظمية وتتأصل فيها المعتقدات الدينية وتظهر فيها الرسوم التى ستصبح حروف الكتابة فيما بعد .

كما لم يعد من الملائم للباحث أن يتناول مصر بالدراسة كوحدة فى هذا العصر لأنها فى الواقع لم تكن كذلك ، فأن الحدود السياسية قامت منذ هذه الفترة بين الدلتا والصعيد ، وسار كل منهما فى تياره الحضارى الخاص الذى تمليه عليه بيئته الطبيعية وعلاقته بجيرانه . والبيئة الطبيعية والجيران مختلفان فى كل من الدلتا والصعيد ولهذا اختلفت مظاهر الحضارة فى كل منهما ، بل اختلفت الأمزجة ووجدت الخصومة السياسية ، وحاول كل منهما قهر خصمه واخضاعه لنفوذه . وأدرك الزعماء فى كل من شطرى الوادى ألا غنى لأحد الشطرين عن الآخر ، ولكن كلا منهما يريد الأمرة لنفسه ولا يقبل الاتحاد إلا تحت زعامته . فأغار أهل الدلتا على الصعيد معتزين بقوتهم وتفوقهم المادى والثقافى وتمكنوا من توحيد البلاد تحت إمرة

حاكم واحد من أهل الدلتا . إلا أن هذه الوحدة لم تلبث أن فصم عراها ، وانقسمت البلاد من جديد إلى قسمين — وادى ودلتا — وقضت فى هذا الانقسام فترة أخرى من الوقت قام بعدها أهل الصعيد منادين بوحدة شطرى الوادى تحت حكمهم وتمكنوا من ذلك بزعامة الملك مينا أول ملك لمصر الموحدة .

ولهذا سنخصص هذا الفصل لدراسة عصر ما قبل الأسرات فى الصعيد ثم نتبعه بفصل آخر ندرس فيه نفس العصر بالدلتا .

ولقد كشف الأثريون عن ثلاث حضارات بالصعيد ترجع لعصر ما قبل الأسرات هى « العمرة وجرزة وسمانية » . وفى بعض الأحيان تعتبر هذه الحضارات ثلاث مراحل حضارية متتابعة لحضارة واحدة أطلق عليها بترى اسم حضارة نقادة نسبة إلى بلدة نقادة التى أخرجت تربتها بعض آثار هذا العصر .

ولقد قسم بترى الأوانى الفخارية التى تمثل هذه الحضارات الثلاثة — بحسب شكلها ودرجة اتقان صنعها — إلى ٦٩ قسما متتابعاً يمثل كل قسم منها مرحلة حضارية خاصة — ومن ثم يمثل مرحلة زمنية خاصة — تبدأ بالمرحلة رقم ٣١ وتنتهى بالمرحلة رقم ٩٩ . وجعل توزيعها بين الحضارات كالآتى :

حضارة العمرة تبدأ بالمرحلة ٣١ وتنتهى بالمرحلة ٣٨

« جرزة « « ٣٩ « « ٦٠

« سمانية « « ٦١ « « ٩٩

و أما الأرقام السابقة للمرحلة ٣١ فقد تركها بترى للأنواع السابقة فى الزمن لحضارة نقادة . واعتبر بترى حضارة العمرة ممثلة للفترة الأولى من عصر ما قبل الأسرات وأطلق عليها اسم حضارة نقادة الأولى ، كما اعتبر حضارة جرزة ممثلة للفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات وأطلق عليها اسم حضارة نقادة الثانية . وأما حضارة سمانية فتمثل نهاية عصر ما قبل الأسرات والأسرتين الأولى والثانية وتخصص الأرقام من ٦١ إلى ٧٠ لنهاية عصر ما قبل الأسرات ، والأرقام من ٧١

إلى ٩٩ للأسرتين الأولى والثانية . ويطلق على هذه السلسلة كلها تاريخ بترى التتابعى (Sequence dating) .

وسنتناول فيما يلى كل حضارة على حدة :

أولا : حضارة العمرة

حضارة العمرة أو « حضارة نقادة الأولى » نسبة إلى بلدة العمرة بالصعيد جنوب أبيدرس (العرابة المدفونة) بقليل . وتدل آثار هذه الحضارة على أنها أحدث من حضارة البدارى وعلى أنها تطور محلى من حضارات مصر السابقة مع بعض المؤثرات الخارجية من الغرب . وقد قال بعض الباحثين أن هذه الحضارة وفدت إلى مصر مع شعب جديد دخل مصر من الجنوب ، ولكن هذا قول منقوض من أساسه لأن المسحة الزنجية التى كانت ظاهرة بين المصريين فى حضارة البدارى تختفى فى حضارة العمرة ويعلل ذلك بكثرة اختلاط المصريين بالليبيين فى غربهم وهم من دم حامى . وقد لوحظ فى الهامية تخريب فى الطبقة الفاصلة بين حضارة البدارى وحضارة العمرة مما يبعث على الظن بأن هذا التخريب من فعل غزوة خارجية ولكن هذا غير ضرورى ، فقد يكون هذا التخريب ناشئا من المنازعات المحلية بين القبائل المتجاورة . ولعل الأقرب إلى الصواب أن نقول بأن هذه الحضارة نتيجة تطور محلى من الحضارات السابقة بالأضافة إلى عناصر حضارية جديدة وفدت مع مهاجرين جدد من الغرب وليس من الجنوب كما يريد بعض الباحثين أن يقول. ولعل تدرج الصحراء نحو الجفاف دفع ببعض الجماعات الحامية إلى وادى النيل من الصحراء الغربية وربما من الصحراء الشرقية كذلك فغذى سكان الوادى القدماء بدماء جديدة أخفت ما كان فيهم من مسحة زنجية أيام البداريين .

على أن صلات المصريين بالجنوب لم تنقطع فى هذه الفترة ، ولكنها اقتصرت على الصلات الثقافية والروحية ، ولم تتعداها إلى الصلات الجنسية ، اللهم إلا إذا كانت بلاد النوبة والسودان قد تخلصتا من العناصر الزنجية فى هذه الفترة وأصبحت

الغالبية فيها للحاميين . أما صلات المصريين بالجنوب فيعززها أن المصريين فى العصر التاريخى كانوا يشيرون دائما الى أن أصلهم من الجنوب . ويعززها كذلك أنه فى العصر التاريخى كانت تغير على مصر شعوب من الجنوب ذات حضارة شبيهة بحضارة مصر فى عصر ما قبل الأسرات . وإذا كانت قد اتخذت الاحتياطات فى العصر التاريخى لصد هذه الاغارات ، فأن مثل هذه الاحتياطات لم تكن موجودة فى فجر التاريخ لأن البلاد لم تكن قد وحدت بعد ولم تكن لها حكومة منظمة تعنى بحراسة الحدود . وقد دلت حفائر الأستاذ يونكر ببلاد النوبة على أن حضارات الصعيد الثلاثة فى عصر ما قبل الأسرات ممثلة فى بلاد النوبة مما يدل على أنه لم تكن هناك فواصل ثقافية أو سياسية بين الصعيد وبلاد النوبة فى ذلك الوقت . وإذا نظرنا إلى صناعة الآلات الصوانية نجد أن مميزات حضارية واحدة كانت تسود فى هذه الفترة وادى النيل والفيوم والصحراء الغربية وبلاد النوبة

وحضارة العمرة إذاً عبارة عن تطور فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه حضارة البدارى . وقد أمكن معرفة الصفات الجنسية لأهل هذه الحضارة من هياكلهم البشرية وتماثيلهم الصغيرة التى خلفوها فى المقابر ، فقد عرفنا من هياكلهم أن طول قامتهم كان حوالى ١٦٠ سم وأنهم كانوا نحاف الجسم أصحاب رأس ضيقة وتقاطيع دقيقة ، ويقترب شكلهم من شكل جماعات البيجا فى شرق السودان . وأما التماثيل فتصور انسان هذا العصر حليق الرأس واللحية ذا أنف بارز أشم وجبهة عالية . وكان النساء يحلقن رءوسهن ثم يلبسن شعراً مستعاراً . والقوام النحيف هو الغالب بينهن ، ولكن يظهر عند بعضهن تضخم الأرداف . ويمكن القول أن هذه الجماعة من بقايا الجنس الأوروبى الأفريقى ذى المسحة الزنجية ولكن أخذت تزداد فيهم نسبة الدماء الحامية بسبب موجات الحاميين التى أخذت تفد بكثرة إلى أفريقيا من بلاد العرب عن طريق بوغاز باب المندب

وقد جاءت معظم معلوماتنا عن هذه الحضارة من حفائر پترى فى نقادة وديو سپوليس پارفا ثم بدرجة أقل من حفائره فى قفط . وكذلك أخرجت حفائر دي مورجان الأقدم من حفائر پترى مادة من نفس الحضارة من بلدة طوخ سميت

باسم حضارة طوخ . وقد أخرجت حفائر نقادة محتويات ٢٢٠٠ مقبرة وقد حفر كويبل فى جبانة بلدة البلاص فى نفس الوقت الذى كان فيه پترى يحفر فى نقادة فأخرج من البلاص محتويات ٩٠٠ مقبرة . والآثار التى كشفت من نقادة والبلاص شديدة الغزارة ، على أن نقادة أهم المدينتين ، وهى التى ستعرف فيما بعد باسم « نوبت » مدينة الأله ست . وقد أقيم بهذه المدينة معبد للأله ست فى العصر التاريخى عند فم أحد الوديان الذى يفد من الصحراء وينتهى عند هذه البلدة ، ومن الجائز أن هذا المعبد التاريخى سُبق بمعبد لنفس الأله ونفس العبادة فى فجر التاريخ . وعلى بعد قليل من المدينة فى الاتجاه الجنوبى الغربى وعلى سهل آخذ فى الارتفاع تمتد جبانة نقادة العظيمة التى ظلت أجيالا طويلة مدفنا للموتى من أهل مدينة نوبت وإلى الشمال من نقادة تقع البلاص حيث كانت تقوم مدينة أخرى تتبع هـذه الحضارة . والآثار المستخرجة منها أقل بكثير من المستخرجة من نقادة ، فبينما يتحدث پترى عن تلال الانقاض بالمدينة الجنوبية نجد الطبقة الأثرية بالمدينة الشمالية لايزيد عمقها عن قدم واحد . ويعتقد كويبل أن مساكنها كانت تبنى من فروع الأشجار كما لاحظ أن مدافن الأطفال توجد داخل المساكن . وقد وجد بالمدينة الجنوبية افريز من الطوب ظنه پترى سور المدينة ، ويعرف شكل أسوار مدن فجر التاريخ من قطعة من الفخار وجدت فى مقبرة ببلدة الأبعادية ظهر فيها سور المدينة ومن خلفه المحاربون .

وفيما يختص بصناعة الآلات الصوانية نجد فى حضارة نقادة الأولى عدداً كبيرا من النماذج المعروفة فى الفيوم وكذلك عدداً من الفؤوس المعروفة فى أرمنت (انظر شكل ٥٦) وقد قال پترى أن الفؤوس الصوانية كانت اهم آلة عند شعب نقادة وكذلك قال حزين عن فؤوس أرمنت الصوانية ما قاله پترى عن فؤوس نقادة من أنها أهم آلة عند هذا الشعب . ولكن يظهر أن فؤوس أرمنت تتبع حضارة نقادة الثانية أكثر من تبعيتها لحضارة نقادة الأولى . وتكثر فى هذه الحضارة صناعة الآلات ذات الأسنان كالمناشير والمناجل ، كما توجد بها النصال والسهام . وكانت

السهام أما قلنسوية الشكل أى ذات قاعدة مقعرة وأما مثلثة الشكل أى ذات مقبض. ومن الأسلحة التى تشتهر بها هذه الحضارة تلك التى تشبه ذيل السمكة بحيث يمكن تثبيتها فى مقبض من الخشب أو العاج . وكذلك توجد بها السكاكين التى تشبه شكل

شكل (٥٦) فاس من الصوان من حضارة العمرة

المعين الهندسى . وكانت آلة القتال فى هذه الفترة عبارة عن قرص من الحجر حاد الحافة مثقوب من الوسط بحيث يمكن تثبيته فى عصاة من الخشب ، وفى بعض الأحيان تكون قطعة الحجر مدببة .

ومن الآلات الصوانية بحضارة نقادة الأولى التى تشبه آلات الفيوم الفؤوس الصوانية (انظر شكل ٥٧) والسهام المثلثة الشكل المجنحة (القلنسوية) . والأسلحة التى على شكل ورق الشجر ثم الآلات المسننة وكلها مشطوفة من الوجهين بنفس الطريقة التى كانت متبعة فيما مضى فى حضارة الفيوم .

وقد ثبت أن جميع آلات حضارة نقادة الأولى مشطوفة من الوجهين . ويلاحظ أنه لا تتوفر فى منطقة نقادة مادة خام من الصوان لعمل الأسلحة الكبيرة فلا بد من التسليم بأن هذه الأسلحه لم تصنع من الصوان المحلى أى من الحصى الذى يمكن التقاطه من الصحراء المجاورة ، بل كانت تصنع فى مكان بعيد حيث توجد

كتل الصوان الكبيرة كعروق فى صخور الحجرى الجيرى ، ثم تورد كأسلحة مصنوعة إلى أهل نقادة . وهذا أفضل من القول بأن أهل نقادة كانوا يستوردون كتل الصوان الخام ويحولونها ألى أسلحة فى منطقتهم ، لأن هذا يكلفهم كثيرا من الجهد بسبب ثقل كتل الصوان وصعوبة استيراد كميات كبيرة منها ، والأرجح أنهم كانوا يستوردون الآلات تامة الصنع فهى أخف فى الحمل . ولهذا الأمر أهميته العظيمة لأن معناه قيام حرف ثلاثة هى التعدين والصناعة والتجاره . وكانت المصانع

شكل (٥٧) أسلحة صوانية مختلفة من حضارة العمرة من اليمين . منشار . سهمان قلنسويا الشكل فاس . سهم قلنسوى الشكل

تقوم بجوار المحاجر حيث تشكل كتل الصوان ألى الآلات المطلوبة ثم تصدر إلى المدن المختلفه . وتدل دقة الآلات وتشابهها على أنها نتاج عمال أخصائيين فى هذه الصناعة قاموا بعملها بقصد التجارة . ولقد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة فى حياة المصريين ، فالصناعة تحتاج ألى اسواق وتتطلب الانتشار خارج الحدود المحلية . كما أن الصناعة مصدر ثراء لطبقة خاصة ترفعهم فوق مستوى طبقة الزراع والرعاة . كما أن تصريف المصنوعات يتطلب نوعا من التنظيم السياسى يتعدى الحدود المحلية

لمنطقة المصانع . وسنرى فيما بعد أن نشأة الدويلات الصغيرة فى مصر تعزى فى الأصل ألى الحاجة إلى تنظيم الانتفاع بماء النيل وتنظيم الوسائل لاتقاء فيضا ناته الخطيرة ، ولكن هذه الخطوة لم تأت ألا بعد أن جفت الصحراء جفافا شديدا وأصبح اعتماد السكان على النهر اعتماداً كليا وهو أمر لم يحدث الا فى حضارة نقادة الثانية . وأما فى فترة نقادة الأولى فكانت الأمطار مازالت تسقط وكانت تخوم الوادى الصحراوية حاليا مازالت عامرة بالأشجار والحشائش . ولهذا يمكن القول أنه أذا ظهر نوع من التنظيم السياسى فى حضارة نقادة الأولى فأن مرجعه إلى ظهور الحرف الثلاثة السابقة ـ التعدين والصناعة والتجارة ـ والحاجة ألى تنظيم النقل وتأمين التجارة وتبادل المنفعه .

شكل (٥٨) أوانى ذات قمة سوداء من حضارة العمرة

وأما الأوانى الفخارية فى هذه الحضارة فيمكن تصنيفها كما يأتى :

١ ـ الأوانى ذات القمة السوداء Black -Topped

٢ ـ الأوانى الحمراء المصقولة Red - polished

٣ ـ الأوانى السوداء ذات الخطوط المحفورة Black - incised

٤ ـ الأوانى الحمراء ذات الخطوط المرسومة البيضاء white cross -lined

والنوع الأول هو أكثرها وجوداً وهو يشبه أجود أنواع البدارى فى اكسدة قاعدته نتيجة لطلائها بمادة حديدية ، ولكنه غير مموح كأوانى البدارى . (انظر شكل ٥٨) وكذلك هذا النوع من أوانى العمرة أقل من أوانى البدارى فى دقة الصنع

وفى درجة الذوق الفنى . وأشكال هذا النوع متعددة فمنه مايشبه القوارير و الجفان ومنه الاقداح ذات القاعدة والأوانى المزدوجة (التوأمية) . وكذلك كان النوع الثانى من أوانى العمرة — وهى الأوانى الحمراء — كثير التداول فى هذه الفترة . أما النوع الثالث فهو من الأوانى الرئيسية ببلاد النوبة وهو قريب الشبه بالاقداح البدارية وهو تقليد لصناعة الأسبتة . (انظر شكل ٥٩)

شكل (٥٩) أوانى سوداء ذات نقوش بيضاء

غير أن أبرز أوانى العمرة النوع الرابع أى الأوانى الحمراء المنقوشة برسوم بيضاء . وواضح من اسمها أن سطح الأوانى أحمر وأن النقوش التى عليها باللون الأبيض . وأما شكل هذه النقوش فنوعان النوع الأول عباره عن مجرد خطوط مستقيمة ربما كانت تقليداً لصناعة الأسبتة بل يمكن القول أن الأوانى نفسها تقليد للأسبتة . والنوع الثانى عبارة عن صور بشرية وصور حيوانات ربما كان لغرض السحر ، وقد حاول الرسام بث الحياة فيها ولكنه لم يفلح . وتظهر هذه الأوانى بين الرقمين ٣١ و ٣٥ من تاريخ پترى التتابعى ، على أن الرسوم التى عليها لها مقدمات قبل ذلك إذ وجدت رسوم أقل منها اتقانا على الأوانى الحمراء والأوانى ذات القمة السوداء (النوعان الأول والثانى من أوانى هذه الحضارة) وتعطينا صور الحيوانات

التى على هذه الأوانى — كالفيلة وفرس الماء والزراف والأغنام البرية والعقارب — فكرة عن الحياة الحيوانية بوادى النيل فى هذه الفترة .

ومعظم أوانى حضارة العمرة عبارة عن تطور للأوانى البدارية فيما عدا النوع الرابع الذى ظهر حوالى التاريخ التتابعى رقم ٣١ فهو نوع جديد . وقد أطلق عليه بترى اسم الأوانى ذات الخطوط البيضاء White cross — lined وهذه أولى الأوانى الفخارية المنقوشة المعروفة خارج آسيا وسطحها ذو لون أحمر مصقول ، والرسوم التى عليه هندسيه فى معظمها على مثال الأوانى الأسيوية القديمة على أنه توجد على بعض الأوانى رسوم تدل على مصريتها كرسوم الرجال والحيوانات التى تحمل الطابع المصرى فى الفن. فقد قلنا أن هذه الرسوم خالية من الحياة والحركة وأن الفنان حاول أن يبعث فيها الحياة فلم يفلح. كما أن الرسوم المنقوله عن الطبيعة مصرية صرفة ، نرى فيها رسوم الحيوانات المصرية ولا سيما فرس الماء الذى يصور فى حالة وقوعه فى الشرك والرجال من حوله يحاولون القبض عليه أو يكرر رسمه فى دوائر حول محيط الآنية . وأكثر الحيوانات ظهوراً على الأوانى فرس الماء والغزال والوعل. وقد عرفنا من الرسوم أنه كان يستعان على صيد الغزلان والوعول بالكلاب التى يظهر أنها كانت تربى لهذا الغرض ؛ فقد وجد على إحدى الأوانى رسم رجل يقود أربعة كلاب بواسطة حبال مثبتة فى أطواق رقابها . ويقال أن أحداها كلب صيد ليبى من فصيلة مازالت تستخدمها القبائل الحامية بوسط أفريقية

وقد وجد على آنية أخرى رسم حيوان قال عنه العالم الأثرى « شارف » فى مبدأ الأمر أنه يمثل الحيوان الذى سيتخذ فيما بعد رمزاً للأله ست أله الشر عند قدماء المصريين . غير أن شكل الرأس والفم ثم الآذان المدببة المستقيمة شككت « شارف » فى صحة هذا الفرض ، ثم لاحظ أخيرا أن ذيل الحيوان غير مرفوع كما هى العادة فى تمثيل الأله ست فى العصر التاريخى ، ولذلك عدل نهائيا عن رأيه وقال أن هذا الرسم يمثل جحشا عاديا ، فأذا صح هذا الفرض الأخير تكون هذه أول صورة لجحش فى الفن المصرى .

ووجد على احدى أوانى هذه الحضارة المكتشفة بجبانة نقادة رسم بارز قال عنه جان كاپارت أنه عبارة عن رأس رجل معلقة على حامل يمثل جسم هذا الرجل ، وأما الخطان البارزان اللذان يمتدان من قمة الحامل فقال انهما الذراعان، وأما الخطان الآخران اللذان يمتدان من اسفل الحامل فيمثلان الرجلين. وتتفق الباحثة الأثرية « باوم جارتل » مع كاپارت فى أن الرأس رأس رجل ولكنها ترى أن ما قال عنه كاپارت أنه يمثل الذراعين ما هو ألا قرنا بقرة ، وأن ما رآه كاپارت ممثلا للرجلين ماهو ألا الثديين ، وأن الصورة بهذا التفسير الجديد تشير ألى بدأ عبادة حاتحور ألهة الأخصاب التى أصبحت ترسم فيما بعد فى شكل بقرة كما أصبحت تلقب بآلهـــة الذهب « نوبت » وهو الاسم الذى سيطلق على بلدة نقادة فى العصر التاريخى .

وكذلك وجد على آنيتين اكتشفتا من ديوسپوليس پارفا فى بلدتى الأبعادية وهو رسمان يمثلان هذه الألهة ويتبعان التـــاريخ التتابعى رقم ٣٤ أى يتبعان حضارة نقدة الأولى . ولا يختلف الرسمان كثيراً عن الرسم الموجود على آنية نقادة مما يؤيد تفسير بارم جارتل لهذا الرسم ويعزز القول بأن عبادة البقرة حاتحور ألهة الأخصاب قامت فى هذا المكان منذ هذه الحضارة .

ومن الأشياء الغريبة التى وجدت فى نقادة قطعة من آنية عليها رسم تاج الوجه البحرى وهذا يشير للخصومة السياسية بين الدلتا والصعيد

ويكثر فى هذه الحضارة تميز الأوانى الفخارية بعلامات خاصة هى عبارة عن خدوش فى سطح الفخار ، ومثال ذلك أنه وجد فى احدى مقابر نقادة ست أوانى سوداء القمة كلها ذات علامة مميزة .

وقد قيل فى تفسير هذه العلامات أنها تدل على الملكية . غير أنه من ضمن العلامات التى كانت تميز بها الأوانى فى هذه الفترة صور الحيوانات ، فمن الجائز أن هذه الصور كانت بدأ اختراع الحروف الهجائية أو كانت بقصد تصوير بعض الآلهة

ولا سيما الآلهة ست ومين ونيت . وقد وجد بين علامات الفخار ما يمثل الفيلة والأغنام والأشجار. وربما ترجع عبادة الشجرة لهذه الحضارة . وقد كانت العلامة المميزة فى إحدى الحالات عبارة عن رسم سفينة .

شكل (٦٠) أوانى من البازلت والمرمر من العمرة

وتتركز الأوانى ذات الخطوط البيضاء المحفورة فى حضارة نقادة الأولى . وتشبه هذه الأوانى الأقداح البدارية فى طريقة تزيينها ولكنها تختلف عنها فى شكلها العام وفى طريقة عمل الرسوم .

شكل (٦١) اناء اسطوانى من المرمر المصرى من حضارة العمرة

وكذلك صنعت الأوانى من الحجارة ولكنها كانت نادرة . وأهم اشكالها اقداح طويلة بيضاوية الشكل ذات قاعدة ومقبضين بارزين تحت الحافة مباشرة (انظر شكل ٦٠) ومن ضمن الأوانى الحجرية كذلك أوانى اسطوانية الشكل ذات جوانب محدبة قليلا وحافة مائلة . (انظر شكل ٦١)

وكانت كل هـــذه الأوانى تصنع من الصخور الدقيقة الحبيبات كالبازلت والألباستر وكانت بعض الأوانى تصنع من قشر بيض النعام ومن العاج ، ولقد وجد أيرتون ولوت Ayrton & Loat فى مقبرة بالمحاسنة آنيتين اسطوانيتى الشكل وذات حافتين بارزتين ، واحدى الآنيتين من الحجر والأخرى من العاج . وقد قالا بناء على ذلك أن هذا الشكل ينتج طبيعياً من نحت أنياب العاج إلى أوانى ثم نقل الشكل من العاج إلى الحجر . وقد وجدت فى بعض المقابر أوانى بازلتية ذات قاعدة صغيرة ، ولكنها أوانى قليلة لا تقارن بالعدد الكبير الذى سيوجد فى حضارة نقادة الثانية . وتعتبر الأوانى البازلتيه على قلتها من العـــلامات المميزة لحضارة العمرة فقد ظهرت بقلة فيها ثم كثرت فى الحضارة التالية لها ، على مثال الأوانى المزينة برسوم فهى تظهر فى العمرة وتكثر فى الحضارة التالية لها .

ومن الأشياء الممتعة فى هذه الحضارة المصنوعات العاجية كالأمشاط ودبابيس الشعر ، وكانت تمثل على المصنوعات العاجية بعض الحيوانات والطيور كالنعامة والسكتكوت . ومن بين هذه الصور صورة من المحاسنة على قطعة من العاج يقال عنها أنها أقدم تصوير للحيوان ست ولكنه من غير ذيل . وتضاف هذه الصورة إلى الأدلة الأخرى لتعزيز الرأى القائل بأن عبادة ست وجدت منذ هذه الحضارة .

ولقد كان المعدن مازال نادراً فى هذه الحضارة فقد اقتصر على دبابيس من النحاس (شكل ٦٢) لا يعرف الغرض من صنعها لأن الملابس المصرية فى ذلك الوقت لم تكن تحتاج إلى دبابيس لتثبيتها . والدبوس الموضح فى الشكل ذو عقدة فى أعلاه ناشئة من ثنى طرفه الأعلى وهو من النوع المعروف فى أوائل العصر التاريخى

والتماثيل البشرية قليلة جداً فى هذه الحضارة سواء كانت مصنوعة من العاج أو الطين . نذكر منها تمثالا من العاج لرجل ذى لحية وتمثالين من الطين وجدا فى مقبرة ببلدة هِو ومثلها فى مقبرة بالأبعادية . (انظر شكل ٦٣)

وقد وجد بهذه الحضارة كثير من القطع الحجرية التى على شكل قرص ذى ثقب فى

وسطه والتى يقال عنها أنها كانت تركب على عصى وتستخدم آلة للقتال . ولما كان

شكل (٦٢) دبوس من النحاس من حضارة العمرة

بعض هذه الأقراص مخططاً ومنقطا فقد قال پترى أن هـذه الأقراص كانت

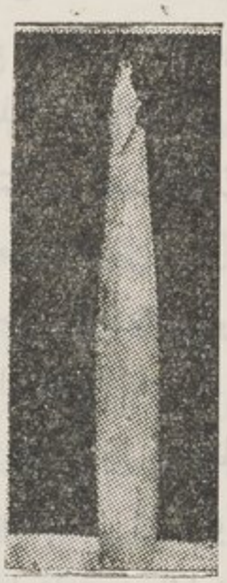

شكل (٦٣) تمثال من العاج من العمرة

بقصد اللعب . وقد أيد هذا ما كشفه أمرى فى مقبرة حمكا بسقارة إذ وجد عدداً من هذه الأقراص مزينا برسوم ربما بقصد اللعب أو السحر .

ومما يضعف الرأى القائل بأنها أداة قتال أن ثقوبها ضيقة فى بعض الأحيان بحيث لا تتسع لعصاة قوية يمكن أن تنفع فى القتال . ويمكن القول أن بعض هذه الأقراص الحجرية كان آلة القتال وأن البعض الآخر كان لغرض آخر غير معروف وقد قالت كيتون تمسون عن أحد الأقراص الحجرية المكتشفة بحضارة الفيوم «ا» أنه ربما كان عصاة لحفر الأرض .

ولقد كان أصحاب حضارة العمرة أو أصحاب حضارة نقادة الأولى أو القسم الأول من عصر ماقبل الأسرات على اختلاف فى التسمية بين الكتاب ، كان هؤلاء كالبداريين يعيشون فى جماعات مستقرة فى قرى منظمة ويقتاتون من حاصلاتهم الزراعية والرعوية أو من صيد البر والنهر . وتدل رسوم الرجال والحيوانات على أوانيهم الفخارية على أن الصيد كان مازال أحد الموارد الهامة فى اقتصادياتهم ، ولو أن هذه الأوانى من أثاث المقابر ، وأثاث المقابر يصور عادة مرحلة مبكرة عن المرحلة الحضارية التى كان يعيش فيها بالفعل أصحاب هذه المقابر. وكذلك يظهر من رسوماتهم على هذه الأوانى ـ تلك الرسومات التى تمثل بعض الحيوانات المكروهة كالتماسيح والعقارب — على أنهم كانوا أصحاب معتقدات طوطمية . ولقد أصبح بعض هذه الحيوانات فيما بعد علامات للقبائل وشارات للمعبودات . ويمكن أن نستنتج من هـــذا أن الفترة الأولى من عصر ماقبل الأسرات كانت فترة بطون طوطمية تعيش فى قرى مستقلة على مثال معيشة الدنكا الحاليين فى أعالى النيل . ولم يوجد دليل على وجود ملوك أو أمراء لأن المقابر التى كشفت من هذا العصر متساوية الثروة ، لم يلاحظ على احداها التميز فى الغنى بحيث يمكن القول أنها مقبرة أمير أو حاكم . ولكن يظهر أن طبقة العبيد كانت موجودة تدل عليهم تماثيل حملة المياه ومعظمهم من النساء ، كما أن طبقة أسرى الحرب كانت موجودة أذ صورهم أهل هذه الحضارة فى تماثيل ذات أيدى موثوقة من الخلف . كما أن نظام الملكية كان موجوداً بدليل العلامات المميزة على الأوانى ، وقد لوحظ أن الأوانى الموجودة فى قبر واحد تحمل علامة واحدة .

وقد ازدهرت فى هذه الحضارة معظم الصناعات التى رأيناها فى البدارى ولكن تقل هنا الفؤوس الحجرية المصقولة ، والسبب فى هذا انقراض الأشجار التى تحتاج لاستخدام هذه الآلة ، ويكثر عوضا عنها استخدام النحاس ولاسيما فى صنع الحراب.

ولقد كثرت العلاقات الخارجية فى هذه الفترة وازداد انتظامها ، ففضلا عن استيراد النحاس والملاكيت من سينا والذهب من النوبة استوردوا حجر الابسيديان Obsidian واللازورد Lapis Lauzli من غرب آسيا والأشجار المخروطية من سوريا والسنباذج Emery من جزيرة ناكسوس احدى جزر بحر أيجة . وقد صنع المصريون من أجل ذلك قوارب من أوراق البردى بكل قارب غرفتان مربعتان فى الوسط ؛ ويحرك القارب سبعة أو ثمانية أزواج من المجاذيف ، وكان ماسك الدفة يقف فى مؤخرة السفينة مستظلا بستار من أغصان الأشجار. ويعتقد پترى أن هذه القوارب كانت مزودة بشراع لأن الملاحة بدونها متعذرة ضد تيار النهر . وقد انتقلت مع هذه التجارة الحضارة المصرية إلى غرب أسيا و شرق البحر الابيض المتوسط وجنوبه الشرقى ، ومن الجائز أن الحروف الهجائية انتقلت مع التجار كذلك .

ويتضح تقدم معلومات المصريين الدينية فى الفترة الأولى من عصر ما قبل الأسرات من طقوسهم الجنائزية . فإن دفن الميت فى رمال الصحراء الجافة بعيداً عن طمى النيل يدعو إلى الظن بأنهم اعتقدوا فى حياة أخرى يُبعث فيها الميت . وكانت توضع مع الميت تماثيل صغيرة لنساء وخدم يحملون أوانى الماء على رءوسهم وذلك لخدمة الميت فى سفره الطويل فى العالم الآخر . وكان يوضع مع الميت كذلك ممتلكاته الثمينة كالحلى ، فقد وجد فى إحدى مقابر نقادة ثلاثة أنياب من العاج مزينة بخطوط محفورة وبكل منها ثقب لتعليقه فى الرقبة . ويظهر أنهم كانوا يدفنون الكلب حيا مع صاحبه لكى يحرسه فى الحياة الأخرى . وأما ممتلكات الرجل الأخرى كالماشية فكانوا يستعيضون عنها بتماثيل من الطين .

وقد كانت العبادات متعددة والآلهة متعددة كذلك ، فكانوا يعبدون الحيوان

والشجر . ومن معبوداتهم الممتعة آلهة الأخصاب لصلتها بنفس العبادة فى العصر التاريخى . وقد قلنا أن رسمها وجد على آنية بنقادة وعلى عدة أوانى فى ديوسپوليس پارفا . وقد استمر تصوير هذه الآلهة التى لقبت فيما بعد « بالأم الألهة » فى شكل بقرة على أوانى الدولتين الفرعونيتين الوسطى والحديثة . ومن الجائز أن عبادة الحيوان ست عرفت أيضاً منذ هذه الفترة ، وكذلك الأله مين . وكذلك وجد بنقادة تمثال من العظم للصقر حورس فمن الجائز أن عبادة الصقر عرفت أيضاً منذ هذه الفترة .

وقد عرف أهل العمرة أدوات الزينة وألوانها المختلفة فكان الملاكيت يستخدم لطلاء العين بعد أن يصحن على لوحات اردوازية مشكلة على هيئة الحيوان أو فى شكل المعين الهندسى . وكذلك عرفوا الوشم ، فكان الجسم يوشم بعدة رسوم ، كما كانوا يزينون الشعر بمشط من العاج طويل الأسنان شبيه بالأمشاط البدارية ، وربما استخدموا الدبابيس العاجية بالإضافة إلى الدبابيس النحاسية . وكذلك كانوا يلبسون العقود المصنوعة من قشر بيض النعام والأصداف البحرية والمرجان والحجارة المختلفة مثل الكورنيليان Cornelian وحجر الطلق Steatite واللوزورد LapisLazuli وكانت تثبت فى العقود دلايات تمثل الحيوانات والطيور والأسماك ، وربما كانت هذه عبارة عن شارات طوطمية أو حلى سحرية تقى حاملها من الحسد والمرض والارواح الشريرة وكانوا يحلون أذرعتهم بأساور من الأصداف والعاج . وإذا كانت التماثيل تدل على نوع الملبس فان الرجال كانوا عرايا إلا من نطاق بسيط يستر العورة وكانوا يثبتون الريش فى شعرهم وينتعلون صندلا ، وأما النساء فكن يلبسن مئزرا من الكتان وشعراً مستعاراً .

وكانت مقابرهم عبارة عن حفر بيضاوية قليلة العمق يوضع فيها الجسم فى شكل متمرفص (انظر شكل ٦٤) وفى بعض الأحيان كان يوضع اكثر من ميت فى حفرة واحدة . وكان الميت يزود بأسلحة وحلى وطعام لحياته المستقبلة . (انظر شكل ٦٥)

شكل (٦٤) مقبرة من العمرة يرى فيها الهيكل البشرى وحوله مجموعة من الهدايا التى دفنت معه
$\frac{1}{20}$ من المساحة الطبيعية

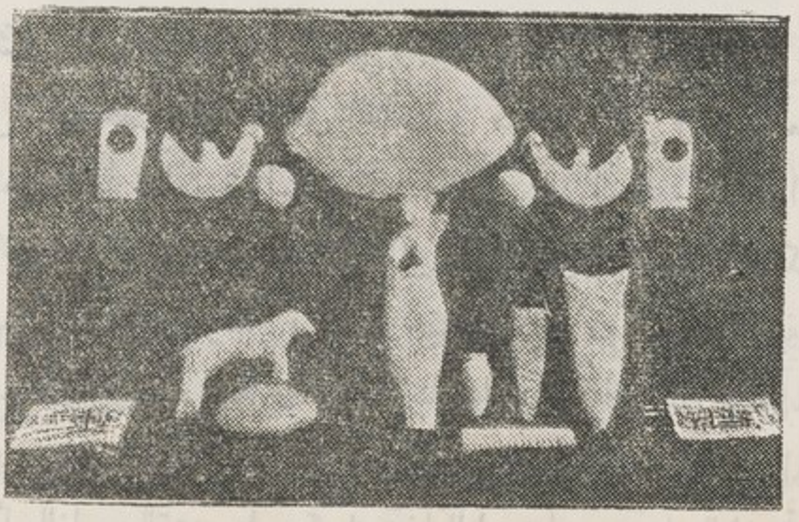

شكل (٦٥) مجموعة أثرية وجدت فى احدى مقابر دير سبوليس بارفا

أما التماثيل التى توضع معه فكانت على أنواع منها تماثيل عاجية للرأس فقط ثم تماثيل عاجية للجسم كله وهى أحدث فى الزمن من التماثيل السابقة ، وأخيراً حوالى التاريخ التتابعى رقم ٣٨ — أى فى أواخر هذه الحضارة — تصبح التماثيل عبارة عن كتل غير متقنة تمثل الرأس والصدر فقط (انظر شكل ٦٦) ويستمر هذا المستوى الفنى المنخفض حتى الحضاره التالية ، وكذلك تصبح التماثيل الطفلية أقل فى إتقانها . وكذلك تتنوع أشكال التماثيل بالمقابر فمنها المعتدل ومنها الجالس القرفصاء .

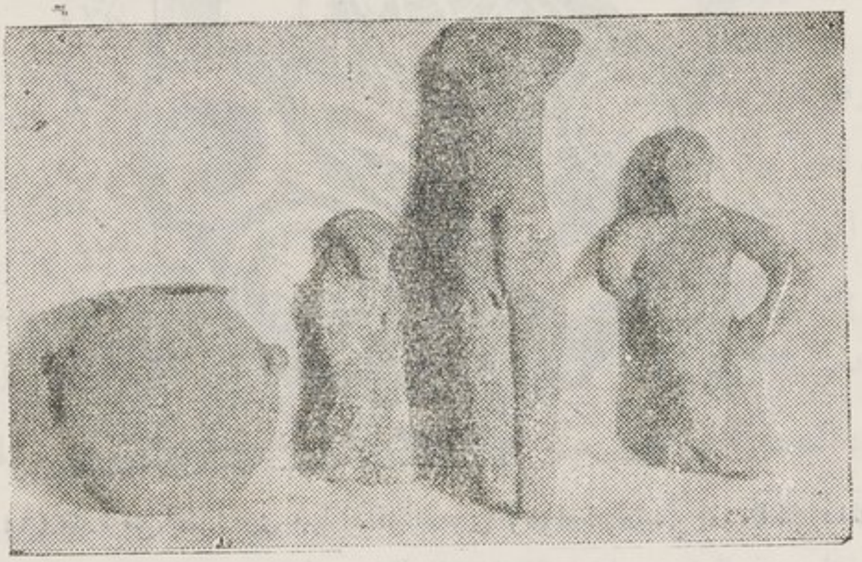

شكل (٦٦) مجموعة أثرية وجدت فى احدى مقابر ديوسبوليس بارفا

أما شكل المساكن فلا يعرف على وجه الدقة إذ لم تكتشف آثار تحدد لنا هذا الشكل . فقد حفر جارستانج فى المحاسنة فى منطقة سكنى قريبة فى مستواها الحضارى من حضارة العمرة ولكنه لم يجد مساكن بمعنى الكلمة أو اكواخا وإنما وجد حواجز ضد الريح مفتوحة من الجانبين لا يمكن أن تكون مسكنا دائماً ويرجح أنها كانت مأوى مؤقتاً . وكذلك حفرت كيتن تمسون فى الهامية منطقة سكنى ترجع لأواخر هذه الحضارة وقالت بناء على نتائج الحفر أن البناء بالطوب لم يكن قد عرف وكل ما وجد دوائر من الطين يظن أنها كانت قواعد المساكن وتوجد آثار الغاب والقش مطبوعة على هذا الطين مما يبعث على الظن بأن هذه

الجدران كانت مغطاة بالغاب والقش أو أنها كانت مبنيه بالغاب وفروع الأشجار ثم طليت بالطين .

وخلاصة القول فى هذه الحضارة أن مظاهر الحياة المستقرة التى انبنت على الزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار ثم مظاهر الحضارة الأخرى كصناعة الصوان واللوحات الإردوازية والأمشاط العاجية والدبابيس والحلى المصنوعة من الأصداف وحبات الخرز المصنوعة من الحجارة ، كل هذه الأشياء كان لها ما يماثلها فى حضارة البدارى ويمكن القول أنها مشتقة منها . ولكن المناظر المرسومة باللون الأبيض على الفخار الأحمر أو المحفورة فى سطح الفخار ذى الحافة السوداء أو المنقوشة على اللوحات الاردوازية ، فهذه كل أشياء جدت على الحضارة المصرية وتدل فى فنها وفى عقلية صانعها على قرابتها الوثيقة من النقوش القفصية ولا سيما النقوش الموجودة فى شرق اسبانيا . ويوجد أيضاً تشابه بين فن هذه الحضارة وفن الصحراء الغربية إذ تظهر على فخار العمرة ذى الخطوط البيضاء رسوم غطاء الرأس ذى الريش المعروف على صخور الصحراء الغربية ، كما أن العقود المصنوعة من قشر بيض النعام عبارة عن تطور لهذه الصناعة المعروفة من الحضارة القفصية بشمال افريقية .

وبمقارنة آثار نقادة الأولى بآثار دير تاسا والبدارى نتبين أن وادى النيل أصبح فى فترة نقادة الأولى اكثر عمرانا بحيث تعددت المـــدن على جانبيه ، واكثر ثراء بحيث كثرت ممتلكات الأفراد من أسلحة وأوانى وغيرها ، فبينما المقابر ذات التاريخ التتابعى ٣٠ ، ٣١ لا تضم إلا آنية فخارية واحدة نجد أن المقابر الأحدث يضم كل منها مجموعة من الأوانى بالأضافة إلى الممتلكات الشخصية الأخرى . (انظر ٦٧ ا ، ب)

وصحيح أن بعض مقابر البدارى تحتوى على عدة أوانى وعلى ممتلكات شخصية أخرى إلا أنه لا يمكن أن تقارن محتوياتها بمحتويات بعض المقابر الكبرى فى نقادة أو ديوسپوليس پارفا . وكذلك يتضح من هذه المقارنة أن التقدم الحضارى فى نقادة الأولى لا يقتصر على الصوان ، بل أن أشكال الأوانى الفخارية تعددت

فوجدت الأوانى الرفيعة والقوارير وأوانى الخزن الطويلة . هذا بخلاف الأوانى

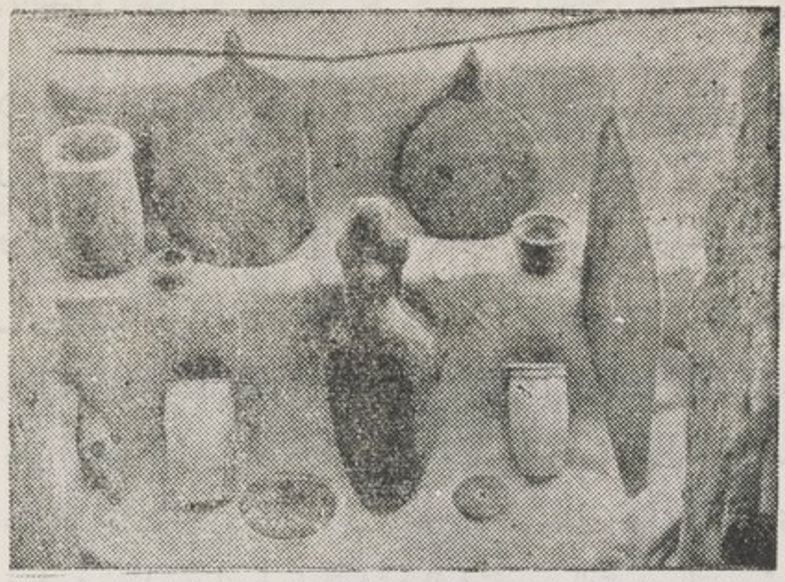

شكل (٦٧ ا) مجموعة أثرية وجدت فى احدى مقابر ديوسبوليس بارفا

ذات الأشكال القديمة كالجفان والأطباق . ومن المسلم به أن المادة الفخارية لم

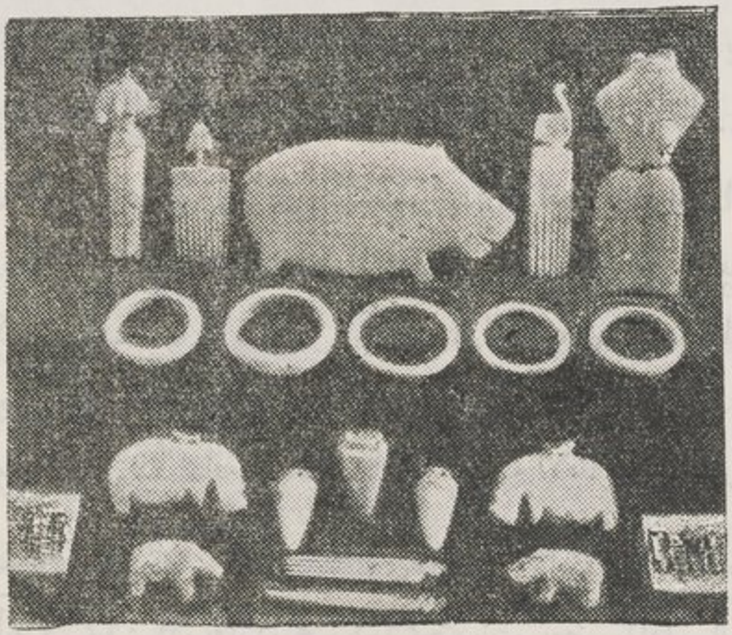

شكل (٦٧ب) مجموعة أثرية وجدت فى احدى مقابر ديوسبوليس بارفا

تصبح فى رقة فخار البدارى ونعومته ، ولكن يجب أن نذكر أن الأوانى الحجرية

قد حلت فى حضارة نقادة الأولى محل الأوانى الفخارية الرقيقة الجميلة المعروفة من عصر البدارى . وقد سبق أن ذكرنا أنه من المشكوك فيه أن يكون البداريون قد عرفوا تشكيل الأوانى الحجرية لأنه لم يكتشف شىء من هذه الأوانى فى مقابرهم ذات التاريخ المحقق . وأما الآنية الحجريه المكسورة التى وجدت فى مقبرة بدارية فى مستجدة فأنها لا تؤكد معرفة البداريين بهذه الصناعة لأن محتويات المقبرة مضطربة ثم أن الآنية الحجرية التى وجدت بها — كما لاحظ ذلك برنتون — من نوع وجد فى المعادى أى أنه يعاصر حضارة نقادة الثانية . وأما أهل حضارة نقادة الأولى فمن الثابت أنهم صنعوا الأوانى الحجرية ولا سيما الأوانى المرمرية اسطوانية الشكل ذات الحافة التى تشبه حافة الأوانى البدارية المصنوعة من العاج .

وكذلك يتبين لنا مما سبق أن حضارة العمرة تتبع خط الحضارة الذى بدأ يتأصل فى مصر منذ حضارتى دير تاسا والبدارى ولكنها تلقت عناصر حضارية جديدة من ليبيا انتقلت إلى مصر ووجدت جنبا ألى جنب مع العناصر المتخلفة من الحضارات السابقة . ولا بد من القول أن الرعاة الحاميين الذين كانوا يعيشون فيما يسمى الآن بالصحراء أغاروا على وادى النيل الخصيب واختلطوا بالزراع البداريين فإن هذا يفسر لنا اختفاء المسحة الزنجية من وادى النيل فى ذلك الوقت .

على أنه يمكن التوفيق بين الرأى القائل بالتأثير الجنوبى فى الحضارة المصرية والرأى القائل بالتأثير الغربى وذلك أن صناعة صوانية متشابهة كانت سائدة فى الصحراء الليبية وفى الفيوم وفى مرمدة بغرب الدلتا كما كانت الثقافة الحامية سائدة فى الصحراء الشرقية . فأذا قلنا بوجود غزوات جنوبية فمعنى هذا أن الغزوات الجنوبية كانت فى هذة الفترة من الحاميين ولم تكن تنحصر فى وادى النيل بل كانت تنتشر كذلك فى الصحراوات على جانبيه . ولقد كانت الصحراء الليبية مقاما طيبا فى فجر التاريخ فالمطر كان لا يزال وفيرا والمراعى كانت كثيرة والقطعان عديدة . وهذه هى الصورة التى أعطانا أياها المصريون عن هذه الصحراء فى لوحة اردوازية - نشرها شتيندرف - تصور هذه الصحراء اقليما غنيا بالأشجار والحيوانات المستأنسة ،

وعلى اللوحة العلامة الهيروغليفية الدالة على اقليم ليبيا . فمن هذا الاقليم وفدت جماعة من الحاميين جاوزت مرحلة الحضارة القفصية فغذت المصريين بدماء جديدة ومدت حضارتهم بعناصر جديدة وجدت فى الوادى بيئة ملائمة للازدهار .

ثانيا : حضارة جرزة

أو

حضارة نقادة الثانية .

تختلف هذه الحضارة عن الحضارة السابقة من ناحيتين . أولا : الغنى والتفوق الفنى . ثانيا : التغير الفجائى فى نماذج الآلات والأوانى والملابس . ولقد حدثت طفرة فى هذه الاشياء كلها تجعل صلتها ضعيفة بالحضارة السابقة . غير أنه يمكن القول عن الناحية الأولى وهى الغنى والتفوق الفنى أن حضارة جرزة متطورة عن حضارة العمرة وأن هذا الغنى والتفوق نتجا عن ازدياد الثروة وزيادة رقى الصناع وأهل الفن وتمكن الآراء الدينية والاجتماعية من عقول الناس . وأما الناحية الثانية وهى التغير الفجائى فى نماذج الآلات والأوانى والملابس فإن أغلب الأثريين يرجعونها إلى تغير جنسى أو سياسى أى تغير فى جنس الشعب أو فى طبقته الحاكمة وفى هذه الحالة لابد من التسليم بوفود هجرة جديدة إلى وادى النيل .

وفيما يختص بالآلات الحجرية نجدها حقيقة تدل على التغير الفجائى فى هذه الحضارة فتظهر فيها آلة القتال التى على شكل الكمثرى وتختفى التى على شكل قرص ولا تظهر إلا بقلة كشىء من الطقوس الدينية . كما تكثر الأسلحة المدببة القاعدة وتقل الأسلحة التى على شكل ذيل السمكة . وتكثر كذلك الخناجر الصوانية وتقل السهام ذات القاعدة المقعرة . وعلى العموم نجد فى حضارة جرزة أن صناعة الأسلحة الراقية Blade Technique تحل محل الصناعة القديمة ذات الوجهين Bifacial Technique وليس معنى هـــذا أن الصناعة القديمة هجرت كلية بل أنها تستمر فى أغراض

الطقوس الدينية حتى عصر الأسرات نفسه ، وأما فى أغراض الحياة اليومية فإن صناعة الأسلحة أصبحت هى السائدة (انظر شكل ٦٨) وقد أصبح من الأمور

شكل (٦٨) سلاح من الصوان ذو قاعدة مقعرة وآخر ذو قاعدة مدببة

المألوفة فى هذه الحضارة أن يصنع من الصوان سكين جميل ذو سلاح ، طوله ثمان أو تسع بوصات ومشغول من أحد وجهيه بطريقة التشظية الغير عميقة المعروفة فى الصناعة الفيومية بينما الوجه الآخر يظل بحالته الطبيعية التى فصل بها من نواة الصوان. وتصنع هذه السكاكين فى بعض الحالات بدقة وعناية شديدتين بحيث يصبح حدها رقيقاً جداً ثم يشطف بعد ذلك وتسمى هـــذه الطريقة بالتشظيه المتموجة (انظر شكل ٦٩) ويظهر أن هذه السكاكين كانت بقصد الزينة فقط وكانت تصنع

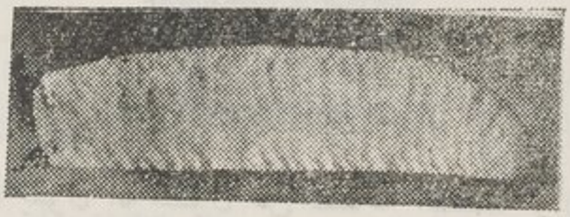

شكل (٦٩) سكين من الصوان من حضارة جرزة

فى مصانع خاصة بقرب مناجم الصوان لأنه لم تكتشف بالمقابر أو بالقرب منها أية نواة تصلح لعمل مثل هذا السكين الكبير . وأما آلات الاستعمال اليومى كالمناجل والمناشير وغيرها فمن الجائز أنها كانت تصنع فى المنازل من الحصى المحلى . ويلاحظ أن الآلات الصوانية تزيد زيادة كبيرة فى حضارة جرزة ، فنجد فيها عشرات

السكاكين المشطوفة بعض الشيء أو الغير مشطوفة على الاطلاق (انظر شكل ٧٠) وكذلك المناجل ذات الظهور الخشنة والمكاشط والمحتات وغير ذلك . ولعل السكاكين والمناجل اكثر الآلات عدداً . ولقد تغير شكل السهم فى هذه الحضارة شأنه فى ذلك شأن الالات الأخرى . ففى حضارة جرزة يظهر لأول مرة فى مصر السهم ذو الطرف الشبيه بطرف الازميل .

شكل (٧٠) سكين من الصوان

وهناك رأى يقول أنه منقول عن الصناعة القفصية وأن عنصر الليبيين أو الحاميين هم الذين أدخلوه إلى مصر ، وتعارض باوم جارتل هذا الرأى بحجة أنه لم يوجد فى مصر فى المدن الأثرية السابقة لهـــذه الحضارة . وقد رأينا أن العنصر الحامى جلب إلى مصر فى حضارة نقادة الأولى الصناعة الصوانية ذات الوجهين وهى صناعة مختلفة عن صناعة هذه الأسهم . ولما كانت الصناعة الناطوفية (نسبة إلى غار الناطوف بفلسطين) وكذلك الصناعة العراقية عبارة عن صناعة

أسلحة ولاسيما السهم ذو الطرف الشبيه بطرف الازميل - فهو من آلات العراق المشهورة فى هذه الفترة - فلهذا كان الارجح أن يقال أن ثقافة أهل نقادة الثانية جاءت من الشرق وليس الغرب .

وأما فيما يختص بالفؤوس الحجرية المصنوعة من الشظايا فليس من الثابت قطعاً أنها تتبع حضارة نقادة الثانية ولو أن هذا هو الأرجح . وقدسبق أن أشرنا إلى أنها أهم آلة فى أرمنت ولكن هذا لا يعنى أنها لم تعرف من قبل وتوضع آثار أرمنت فى التأريخ التتابعى بين رقمى ٣٥، ٧٢ أو ٨٨ على الأكثر وتقسم الطبقات التى وجدت فيها هذه الآثار من حيث التدرج الحضارى والزمنى إلى ثلاث طبقات ، توضع الطبقة السفلى منها (وتسمى أرمنت ٣) بين رقمى ٣٥ ، ٣٨ أو ٤٢ على الأكثر أى أن هذه الطبقة تعاصر أواخر نقادة الأولى وأوائل نقادة الثانية، وقد وجد فى هذه الطبقة أربعة فؤوس صوانية أحداها مصنوعة بطريقة الطحن وأما الثلاثة الباقية فمشظاة . ووجد فى الطبقه الوسطى (وتسمى أرمنت ٢) اثنتا عشر فأساً كلها مشظاة .

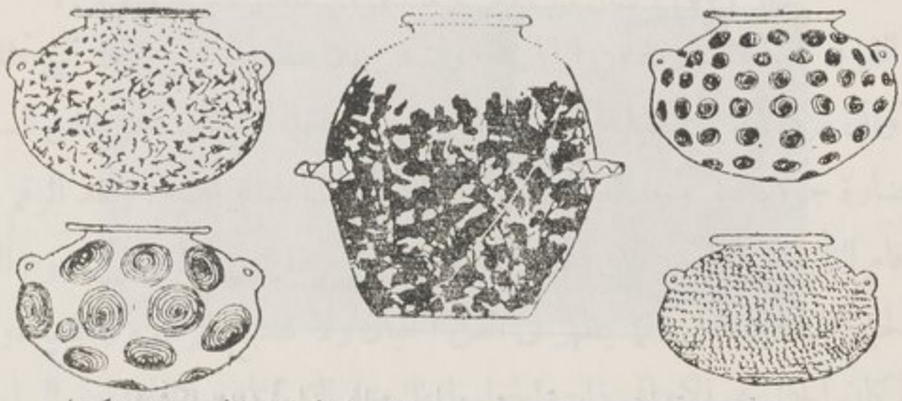

شكل (٧١) اوانى فخارية مزينة برسوم وهى تقليد للأوانى الحجرية فى شكلها ورسومها

كما وجد فى الطبقة العليا (وتسمى ارمنت ١) ثلاثون فأسا كلها مشظاة . ومعنى هذا أن الفؤوس المصنوعة من الشظايا يتبع أغلبها الفترة الثانية من عصر ما قبل الأسرات (حضارة جرزة أو حضارة نقادة الثانية) بل وما بعد ذلك . ويتبين من هذا أن كلا من نقادة الأولى والثانية يتبع صناعة صوانية مختلفة تمام الأختلاف عن الأخرى .

وكذلك تعرضت صناعة الأوانى الفخارية إلى تطور كبير فى هذه الحضارة فقد أصبحت تصنع من الطفل بدلا من طمى النيل وأصبحت تزين برسوم كثيرة حتى ليطلق على شعب نقادة الثانية اسم « الشعب ذو الفخار المزين (انظر شكل ٧١) ولعل أهم ما فى هذه الصناعة الأوانى ذات المقابض المموجة (انظر شكل ٧٢) وقد بنى بترى تأريخه التتابعى على تطور شكل هذه الأوانى. ولكن توجه فى الوقت الحالى انتقادات كثيرة إلى هذا التأريخ ، فهو لا يتفق مع الأوانى التى أخرجها بترى نفسه، كما أن بعض الأوانى التى بنى تأريخه عليها مشتراة أو مستوردة من الخارج ولا سيما من فلسطين كما يدل على ذلك بعض الرسوم التى عليها . وعلى أى حال لابد من أن تضم الأوانى المكتشفة فى جهات أخرى من مصر ولا سيما من منطقة المعادى ، ثم يعاد النظر فى تأريخ بترى لتعديله على هذه الأسس. ولقد تغيرت الأوانى المنزلية تغيراً كلياً فى هذه الحضارة مما يتخذ دليلا على التغير الجنسى . فمع أن الأوانى ذات الحافه السوداء والآوانى الحمراء وجدت فى هذه الحضارة ألا أنه لم تظهر منها أشكال جديدة.

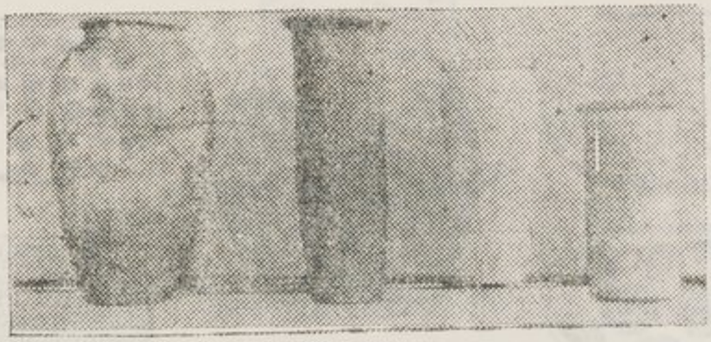

(شكل ٧٢) أوانى ذات مقابض مموجة من حضارة جرزة

وأما الأوانى ذات الخطوط البيضاء فقد اختفت وحل محلها كآنية رئيسية فى هذه الحضارة النوع الباهت اللون ذو الرسوم الحمراء . وتعتبر هذه « الأوانى المزينة برسوم» صناعة مختلفة من الوجهة الفنية عن صناعة الأوانى الحمراء أو الأوانى ذات الحافة السوداء . وكذلك تعتبر هذه الصناعة الجديدة تقليداً للصناعة الحجرية، وأما الصناعة

القديمة فتعتبر تقليداً لصناعة الأسبته أو الجلود . (انظر شكل ٧٣) وتعتبر الرسوم الموجودة على أقدم أوانى حضارة جرزة تقليداً للشكل الطبيعى للصخور الغليظة الحبيبات أو تقليد لكسوة القش التى توضع فيها هذه الأوانى . وقد وجد بالفعل فى بعض المقابر بعض الأوانى الحجرية التى يتفق شكلها تماما مع شكل الأوانى الفخارية التى عملت تقليدا لها . وفيما عدا ذلك تمتاز هذه الحضارة بوجود الأوانى ذات المقابض المموجة التى كان تدهور صنعها أولى الأسس التى قام عليها تأريخ پترى التتابعى . وكذلك توجد فى هذه الحضارة أوانى أخرى متعددة الأشكال ، منها نوع احمر ذو قاعدة مدببة ومنها أوانى ذات بزبوز ربما كانت مستوردة من الخارج . ومنها أوانى على هيئة الحيوانات وقد أراد بعض الباحثين الاستناد إلى الأوانى التى على هيئة الحيوانات

شكل (٧٣) آنيتان من الحجر وتقليدهما من الفخار من حضارة جرزة

فى القول بأنها مستوردة من الخارج ، ولكن يلاحظ أن الحيوانات التى تمثلها هذه الأوانى من الأنواع النيلية كفرس الماء ثم أن فنها لا يختلف عن الفن السائد فى حضارة جرزة على وجه العموم مما يرجح أنها ذات نشأة محلية . وبعد الرقم ٤٥ من أرقام التأريخ التتابعى تزين الأوانى برسوم مأخوذة من الطبيعة كرسوم النباتات والحيوانات والسفن . كما يظهر فى الفن الخيال ولا تصبح الرسوم واقعية أو بدائية كما كان الحال فى الأوانى ذات الخطوط البيضاء التى تمتاز بها الحضارة السابقة .

ويظهر التطور فى حضارة جرزة كذلك فى عمل التماثيل إذ يبطل عملها من الطين بعد الرقم ٤٣ من تأريخ پترى كما يبطل نحتها من العاج بعد الرقم ٤٥ . ويحل محل التماثيل الأوانى المصنوعة من الطين أو الحجارة فقد أصبحت تشكل فى هيئة الحيوانات كما أن ناحت العاج انصرف إلى صناعة التمائم والمعالق من هذه المادة .

وكذلك ارتقت فى هذه الحضارة صناعة الأوانى الحجرية فاستعملت أنواع

عديدة من الحجارة الجميلة مثل الديوريت والسماق والبرشيا الحمراء والاردواز ، وبعض هذه الحجارة شديد الصلابة . وفيما عدا الأوانى القديمة الإسطوانية الشكل نجد فى هذه الحضارة أشكالا متعددة من الأوانى الحجرية مثل الأوانى ذات المقابض والأطباق والأوانى التى على هيئة الحيوانات ، ومعظم هذه الأنواع لم يعرف من قبل.

وكذلك يزداد استخدام المعادن فى هذه الحضارة ، فلم يعد استخدامها قاصراً على صناعة الدبابيس بل أصبحت تستخدم فى كل أنواع الآلات والحلى . ومن أبرز هذه الآلات المعدنية الأزميل . ولم يقتصر الأمر فى المعادن على النحاس بل عرف الذهب والفضة . وإذا كان الذهب والنحاس يوجدان فى البيئة المصرية فإن الأمر ليس كذلك فى الفضة فلابد انها استوردت من الخارج ، ولذلك كانت أندر من الذهب وأثمن . ومثل هذا يقال على الابسيديان واللاپس لازولى اللذين جلبا من الخارج لعمل حبات العقود . ويظهر أن النحاس المحلى كان من الوفرة بحيث أن الفؤوس أصبحت تصنع منه . ومن الجائز أن هذه الفؤوس كانت تستخدم فى قطع الأشجار أو كانت أداة من أدوات القتال . وقد وجدت كأس من الفضة فى قرية البلاص،

ويظهر أنه ظهر فى حضارة جرزة تقسيم العمل والتخصص المهنى بدليل المهارة الكبيرة والدقه العظيمة اللتين ظهرتا فى بعض الصناعات مثل صناعة الزجاج وثقب أشد الحجارة صلابة وغير ذلك . وبالطبع زادت التجارة فى هذه الحضارة ، ففضلا عن المواد الاجنبية الموجودة فى مقابر العمرة نجد فى مقابر جرزة الفضة والرصاص والجمشت (الكوارتز البنفسجى) والفيروز . ولقد أصبحت الزراعة قوام الحياة الاقتصادية وتضاءل شأن الصيد كما يدل على ذلك اختفاء أسلحة الصيد من المقابر وقد أخذت بعض القرى فى هذه الفتره تتضخم وبذلك سارت فى طريقها نحو التحول إلى المدن التى ستصبح فى العصر التاريخى عواصم الاقسام الادارية أو المديريات . ويرى معظم العلماء أن رايات الاقسام التى ستظهر فى العصر التاريخى ما هى إلا

الشارات الطوطمية التى تمثل معبود الاقليم أو حاميه . ولقد أصبح شراع كل سفينة يحمل علامة الاقليم الذى يتبعه ، ومعنى هذا أن القبائل الطوطمية التى ظهرت فى حضارة العمره استقرت فى اقاليم خاصة فى حضارة جرزة ، وهذه الاقاليم هى التى سنراها فى العصر التاريخى . على أن بعض هذه القبائل يختفى نتيجة لاندماجه فى قبائل أخرى .

ولا يعرف شيء يذكر عن شكل بيوت نقادة الثانية ، لأن الجهات التى حفرت من مناطق هذه الحضارة لم تظهر فيها أشكال المساكن . ففى أرمنت ـ وهى أحدث مكان حفر من حضارة نقادة الثانية ـ لم تظهر آثار المساكن ولا حتى آثار المواقد والحفر التى كانت تثبت فيها القدور مع أن هذا كله من علامات القرى المصرية التى من فجر التاريخ .

ولا تقل التغيرات التى طرأت على أدوات الملبس والزينة عن التغيرات التى طرأت على الصناعة فيختفى المشط ذو الأسنان الطويلة اختفاء تاما بعد الرقم ٤٢ من تأريخ بترى ويحل محله المشط ذو الأسنان القصيرة كما تختفى اللوحات الاردوازية ذات الشكل البيضاوى بعد الرقم ٤٠ وتبقى اللوحات التى على شكل حيوانات .

وكذلك يتغير شكل المقابر فبعد أن كانت دائرية أو بيضاوية فى نقادة الأولى أصبحت مستطيلة فى نقادة الثانية أو على الأقل أصبحت عبارة عن حفرة ذات خطوط مستقيمة استخدم الطوب فى تخطيطها . ويقع هذا التطور بعد الرقم ٣٥ من التأريخ التتابعى ، ثم بعد الرقم ٤٠ يوجد بالمقابر رف لوضع التقدمات والعطايا التى كان يزداد عددها باستمرار حتى أصبحت هذه الهدايا الجنائزية تملأ الحفرة كلها وأصبح الميت يوضع فى تجويف يحفر خصيصا للجثة . وفى بعض الحالات كان الميت يحاط بغطاء خشبى أشبه بالتابوت أو يوضع فى كفن من الأغصان . ولمقابر هذا العصر دلالة اجتماعية ففيها نرى تزايد والثروة النفوذ عند فئات خاصة من الناس كما يدل على ذلك تمييز بعض المقابر عن البعض الآخر .

وفيما يختص بالحياة الروحيه عرفنا عند الكلام على حضارة نقادة الأولى أن

أهلها كانوا يقدسون الحيوانات والأشجار وكانوا يعبدون ألهة الأخصاب التى استمرت عبادتها حتى الدوله الحديثة ، وكذلك أشرنا إلى أنه من الجائز أنهم عرفوا عبادة الألهين ست ومين . فأذا انتقلنا إلى حضارة نقادة الثانية نجد أنه أصبح من الأمور المألوفة عند أهلها تزيين الفخار الذى يوضع مع الميت برسوم سفن تحمل عدداً من الألهة من بينها الأله مين . ومعنى هذا أنهم يختلفون عن أهل نقادة الأولى فى المعبود الدال على الأخصاب فأهل نقودة الأولى عبدوه فى شكل أنثى وأما أهل نقادة الثانية فعبدوه فى شكل ذكر . ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الأله ست لا يظهر رسمه فى مقابر حضارة نقادة الثانية .

وقد أقيم للأله مين فيما بعد معبد فى بلده قفط ، ويظهر أن فكرة إقامة معابد للآلهة ترجع إلى حضارة نقادة الثانية . وإذا أخذنا بالرأى الذى سنناقشه فيما بعد القائل بأن أهل هذه الحضارة جاءوا بطريق وادى الحمامات فأن قفط تكون أول مكان يقابلهم فى وادى النيل .

وقد وجد رسم الألهة نيث على إحدى القدور وهى ألهة الدرع والسهمين المتقاطعين . ويقال أن أصل هذه الألهة ليبى وأن عبادتها انتقلت أولا إلى سايس بالدلتا . غير أن سهمهما شبيه بأسهم نقادة الثانية أى أن طرفه كطرف الأزميل وهذا يرجح أصلها المصرى . وعلى أى حال فإن هذا يظهر مدى الصلة بين الدلتا وبين أهل نقادة الثانية .

ولقد كانت الألهة نيث من الأهمية حتى أن ملكتين من ملكات الأسرة الأولى سميتا باسمها وهما « نيث حتپ » زوجه الملك نارمر ثم « مر ن نيث » أى محبوبة نيث أم الملك دن . وكذلك نجد أن معظم أسماء النساء المحفورة على لوحات من فجر الأسرات والمكتشفة فى مقابر أبيدوس تحمل إسم هذه الألهة .

ولعل أهم أله يظهر فى حضارة نقادة الثانية هو الأله الصقر « حورس » الذى وجد مرسوما على بعض الأوانى . وهو يمثل رابضا على قمر فى شكل هلال . وقد

استمرت له هذه الهيئة حتى الأسرة الأولى مما يدل على أنه كان فى الأصل أله القمر. وكذلك وجدت له تماثيل صغيرة فى المقابر من بينها تمثال من العاج وجد فى نوبت. ولما كان الصقر أله ملوك الأسرة الأولى فيمكن أن نستنتج من ذلك أن هؤلاء الملوك منحدرون من أصحاب حضارة نقادة الثانية لأنه من غير المعقول أن يتخذ هؤلاء الملوك ألها غير أله موطنهم الأصلى . ويظهر أن مدينة هيرا كونپو ليس كانت ذات منزلة عظيمة فى ذلك الوقت . وربما تشير قصة الحرب بين حورس وست إلى اغارة أهل نقادة الثانية الذين يعبدون حورس على بلدة نوبت التى تعبد ست .

ولقد كان هجر التماثيل سببا فى زيادة التمائم زيادة كبيرة فى هذه الحضارة . ومن هذه التمائم الرجل ذو اللحية الذى يظهر ابتداء من التأريخ التتابعى ٤٠ ويظهر رسمه على الأمشاط العاجية ذات الأسنان القصيرة التى تشتهر بها هذه الحضارة . كما يظهر فى الدلايات التى تتدلى من الرقبة بواسطة خيط . ومن بين التمائم رأس الثور الذى يظهر ابتداء من الرقم ٤٦ ويستمر حتى الأسرتين الأولى والثانية . وقد استدل من اتخاذ تمائم على شكل الصقر وهو شارة معبود الملك مينا ثم البقرة التى عبدت فى العصر التاريخى باسم حاتحور وغير ذلك من الحيوانات على أن هذه الشارات الطوطمية تحولت بالفعل فى هذه الحضارة إلى آلهة محلية ولكن لم تكتشف حتى الآن معابد أو مذابح فكل المعلومات مستمدة من المقابر . ولقد أصبح اتجاه وجه الميت غير ثابت .

كما أن دفن أكثر من ميت فى حفرة واحدة لم يعد موجوداً كما أن الكلاب لم تعد تدفن مع أصحابها ، وكذلك ندر وضع الأسلحة مع الميت وربما تعمدوا تحطيم الأوانى والحلى والآلات عند وضعها مع الميت .

ويمكن القول بصفة عامة أن الناس فى هذه الحضارة لم يحافظوا فقط على المستوى الحضارى الذى وصل إليه العمريون بل أضافوا إليه آراء جديدة فرفعوا من هذا المستوى .

لا نعرف المصدر الذى جاء منه أهل حضارة نقادة الثانية ، ولا الطريق الذى سلكوه فى هجرتهم إلى مصر . والمكان الوحيد خارج وادى النيل الذى توجد

فيه الرسوم التى تحمل طابعهم — مثل رسوم السفن على الفخار (انظر شكل ٧٤) ومثل قوارب البحر الأحمر المرسومة على المقبض العاجى للسكين المشهور المكتشف فى جبل العرق — هو وادى الحمامات . ولهذا يقول وينكلر الذى نشر هذه الرسوم الصخرية أن أهل نقادة الثانية جاءوا من الدلتا وساروا بحذاء ساحل البحر الأحمر حتى القصير ثم اتخذوا طريق وادى الحمامات إلى وادى النيل عند ثنية قنا ، أى أن وينكلر أخذ برأى شارف فى هذه النقطة .

شكل (٧٤) آنية فخارية عليها رسم قارب

ومما يعزز مجىء هذه الاقوام بطريق وادى الحمامات أن معظم مخلفاتهم تقع عند تلاقى هذا الوادى بالنيل حيث تقع قفط ونوبت وديوسپوليس پارفا ومن الجائز أنهم خرجوا من الدلتا مطرودين لأنهم اتخذوا طريق الصحراء ولم يتخذوا طريق الوادى الأقل طولا والاكثر أمنا فلما استقر لهم الامر بالصعيد فكروا فى استعادة أرضهم المفقودة بالدلتا فأغاروا عليها وبذلك تم توحيد البلاد . ولكن من ضمن مراكز هذه الحضارة الرئيسية الحراقه وجرزه وابو صير المنق وكلها عند مدخل منخفض الفيوم بل أن مركزاً من مراكز هؤلاء الاقوام وجد فى الفيوم نفسها . وإلى الشمال من ذلك توجد المعادى حيث استقرت بها قبل حضارة نقادة الثانية بقليل جماعة تقترب فى مستواها الثقافى من أهل النقادة وتتصل بشبه جزيرة سينا حيث جلب منها النحاس والفيروز كما تتصل بفلسطين حيث جلبت منها الاوانى ذات

المقابض المموجة فهل يمكن القول أن أهل المعادى أنفسهم هم الذين هاجروا بطريق الصحراء الشرقية ثم بطريق وادى الحمامات فأسسوا حضارة نقادة الثانية بالصعيد. ربما حدث هذا لعدة أمور منها أن حضارة المعادى أقدم من حضارة نقادة ومنها أن الاوانى التى ذات المقابض المموجة تظهر بقلة فى المعادى يستحيل معها القول أنها صناعة محلية ولا بد من القول أنها مستوردة من الخارج ثم نجد بعد ذلك أن هذا النوع من الأوانى ينتشر انتشارا كبيرا فى حضارة نقادة الثانية حتى تصبح هى الآنية الاولى مما يدل على أنها أصبحت صناعة محلية ، ومنها أيضاً أنه تظهر بالطبقات الاثرية بالمعادى آثار تخريب وتكسير وحرائق مما يرجح حدوث قتال بهذا المكان أرغم القوم على مغادرة ديارهم إلى الصعيد بطريق الصحراء حيث أسسوا حضارة نقادة الثانية ، ومنها كذلك أن الاوانى المزينة برسوم تظهر بقلة فى المعادى رغم رقى مستواها الحضارى ثم تصبح وفيرة فى نقاده الثانية مما يمكن معه الفرض بأن حضارة المعادى كانت مرحلة تمهيدية لحضارة نقادة الثانية وأن أهل المعادى هم الذين أسسوا نقادة الثانية .

ولقد كان هناك مركز رئيسى لهذه الحضارة عند مدخل الفيوم كان معاصراً للمركز الآخر لنفس الحضارة بين أبيدوس وهيراكونپوليس . وكان يصل بين المركزين وادى النهر . ومن الجائز أن تأسيس المركز الجنوبى سابق فى الزمن لتأسيس المركز الشمالى وأن الجماعة التى وصلت بطريقة وادى الحمامات إلى ثنية النيل استقر جزء منها بمنطقة الثنية بينما واصل الجزء الباقى سيره شمالا إلى أن حط رحاله عند مدخل الفيوم حيث أسس حضارة جرزة . ويميل بعض الأثريين إلى تقسيم حضارة الصعيد فى عصر ما قبل الأسرات إلى مرحلتين حضارة العمرة فى الجنوب أو حضارة نقادة الأولى ثم حضارة جرزة فى الشمال أو حضارة نقادة الثانية غير أن الآثار المكتشفة من هذه المناطق متداخلة فى بعضها بحيث لا تتمشى مع هذا التقسيم . وربما كان الأفضل اعتبارها مراحل متدرجة لحضارة واحدة بصرف النظر عن

(1) Caton - Thompson & Gardner , The Desert Fayum , . p, 9 .

المكان الذى كشفت منه الآثار ، لأن ما كشف من هذه الآثار لا يكون إلا جزءا ضئيلا من الثروة الأثرية التى يخفيها باطن الأرض ، ومن ثم كان فرض تقاسيم ونظريات بناء على هـــذا الجزء الضئيل الذى كشف أمر لا يستقيم مع المنطق

ولقد ظهر الختم الأسطوانى فى مقبرة من التاريخ التابعى رقم ٤٦ وهو من نوع الأختام المكتشفة فى العراق . ويبنى المؤرخون على هذا التشابه نتائج خطيرة تتلخص فيما يلى :

أولا : أن هذه الأختام ظهرت فى مصر والعراق فى وقت واحد .

ثانياً . أنها ظهرت فى العراق مع الكتابة السومرية فى حين أنها ظهرت فى مصر فى فترة سابقة لظهور الكتابة مما يبعث على الظن أن هذه الأختام منقولة من العراق .

ثالثا : هناك تشابه فى طريقة ظهور الكتابة فى كل من البلدين وذلك أنها تظهر فجأة بدون سابق تدرج مما يدل على أن عبقريا اخترعها ثم نشرها دفعة واحدة .

رابعاً : بعض الحروف الهيروغليقية مأخوذة عن اللغة السامية مثل حرف الدال الذى يعبر عنه فى الحروف الهيروغليقية برسم اليد .

خامساً : كان أهل حضارة نقادة الثانية يتكلمون لغة سامية على نقيض أهل نقادة الأولى الذين كانوا يتكلمون لغة حامية . وبذلك تكون مصر فى حضارة نقادة الثانية قد سارت فى تيار مختلف عن باقى أجزاء شمال أفريقية الذى ظل ذا ثقافة قفصية وحامية .

ولكن بعض الباحثين يرى أن اللغات الحامية والسامية من أصل واحد وأنهما تفرعا عن هذا الأصل منذ فجر التاريخ ، وأن مصر منذ مبدأ الأمر كانت من الشعبة اللغوية السامية .

ويرى بعض العلماء أن العناصر الجديدة التى تميز حضارة مصر العليا فى الفترة الوسطى من عصر ما قبل الأسرات (جرزة) اشتقت من الشمال أو من الشمال

الشرقى ومن المرجح أن أصحاب هذه الابتكارات كانوا على اتصال بأعالى النيل مدة من الزمن قبل الرقم ٣٩ من تأريخ بترى لأن الفخار المزين برسوم وجد متفرقا فى مصر العليا قبل هذا التاريخ ويعزو بترى هذه العناصر الجديدة إلى الصحراء الشرقية حيث الظروف الطبيعية تساعد على صنع الأوانى من الحجارة ومما يؤيد ذلك أن من الجزية التى كانت تقدم للفراعنه الأول أوانى شبيهة بأوانى حضارة جرزه مما يدل على أصلها الأجنبى . ويربط بعض العلماء بين الأوانى ذات الأيدى المموجة وبين أوانى فلسطين وسوريا أى أن الصلات الأسيوية واضحة فى هذه الحضارة . فالمميزات التى اختصت بها هذه الحضارة مثل رأس الحربة التى على شكل الكمثرى والأوانى التى على شكل حيوانات والأوانى ذات البزبوز . . . الخ كل هذه المميزات عبارة عن مظاهر حضارية تنتشر فوق منطقة واسعة تمتد خلال غرب آسيا حتى كيش على نهر دجلة وسوسا، فعلى الأقل يمكن إرجاع أحد أصول حضارة جرزه إلى التربة الأسيوية . وتتفق مع هذا القصص الدائرة حول أوزيريس كما يتفق معه رأى ينكر القائل بحدوث اتحاد بين الوجهين البحرى والقبلى (الاتحاد الأول) تحت سلطة ملوك شرق الدلتا قبل عصر الاتحاد الثانى الذى سيتم تحت سلطة ملوك طيبة وأولهم الملك مينا .

ولكن إذا كانت حضارة جرزة ترجع ثقافيا إلى غرب آسيا فان منطقة تخصصها النهائية كانت فى غرب الدلتا وليس فى شرقها ففى غرب الدلتا يوجد التهنو الليبيون ويوجد الموطن الأصلى لحضارة الزيتون كما يقول نيوبرى وتوجد رواسب النطرون التى يمكن استخدامه فى صناعة الزجاج ولقد بين نيوبرى أن ١٦٦ قاربا من القوارب المرسومة على الفخار وعددها ٢٨٨ تحمل شارة قسم الحربة الغربية الذى كان موضعه فى العصر التاريخى عند مصب الفرع الكانوبى ثم ٨٠ أخرى تحمل شارات أقسام غرب الدلتا الأخرى ثم بعض القوارب الباقية تحمل علامة السمكة وهذه العلامه وإن كانت قد اختفت فى مصر التاريخية الا أنها وجدت على قوارب بحر ايجة . كما لاحظ نيوبرى

H . Frankfort , Cylinder Seals .

أيضاً أن ميناء مصر الرئيسى كان فى غرب الدلتا فى ذلك الوقت فى قسم الحربة الغربية . ومعنى هذا أن غرب الدلتا كان واسطة الاتصال بين مصر وكريت وربما بين مصر وسوريا عن طريق البحر وقد وجد فى احدى مقابر جرزة تميمة من النوع الشائع فى كريت وسوريا .

وعلى هذا يمكن القول أن حضارة جرزة أو حضارة القسم الأوسط من عصر ما قبل الأسرات نشأت فى الدلتا وأن انتشارها إلى الصعيد يدل على النفوذ الثقافى لأهل الشمال وهنا يتساءل العلماء هل إدخال هذه الحضارة إلى الجنوب وظهور قوة غرب الدلتا كما يتضح من القوارب المرسومة على الفخار التى تظهر فى الصعيد بعد الرقم ٤٥ يدل على السيطرة السياسيه لأهل الشمال على أهل الجنوب كما ترويه قصة أتباع حورس (شمسو حور) ؟ وهل السفن التى عليها علامة الحربة هى سفن أهل غرب الدلتا الذين أغاروا على الجنوب يتبعون حورس ؟ وهل لتقدم هذه الحضارة نحو الجنوب علاقة بتوغل العناصر السامية فى المجموعة اللغوية الحامية الأصل ؟ وهل انتشر فى هذا الوقت تقويم ممفيس وهليوبوليس وكتابة الدلتا فى جميع أنحاء مصر؟ وهل يمكن القول أن دورة الشعرى اليمانية الأولى Sothic Cycle سنة ٤٢٣٦ ق . م تتفق على وجه التقريب مع الرقم ٤٥ من تاريخ بترى ؟ يميل بعض العلماء إلى الاجابة على هذه الأسئلة بالايجاب ولكن البعض الآخر مثل بترى يرى رأيا مخالفا فيقول أن قبيلة حورس أتت من الجنوب وليس من الشمال ويرى علماء آخرون أن غزو أتباع حورس لمصر العليا لم يحدث إلا بعد نهاية حضارة جرزة أى بعد الرقم ٦٣ من تاريخ بترى وقبل عهد مينا بقليل (أى بعد الرقم ٧٠)

وهناك رأى آخر هو أن الحضارات المصرية نشأت وتطورت فى وادى النيل نفسه وأن كل الابتكارات الثقافية من نتاج عقول المصريين وهذا لا ينفى دخول عناصر جنسية جديدة إلى وادى النيل أثناء قيام هذه الحضارات فلاشك أن أصحاب حضارة جرزة كانت لهم صلة بأهل آسيا ولكن لا يوجد ما يدل على أن هذه الحضارة منقولة عن آسيا بل قد يكون العكس هو الصحيح وهو أن النماذج العراقية

الشبيهة بالنماذج المصرية تفسر بوجود تيار حضارى خارج من مصر نفسها .

ولقد كانت ظروف وادى النيل مساعدة على قيام الزراعة المنظمة ، فزراعة الزيتون ابتكرت فى غرب الدلتا . كما كانت ظروف النهر نفسه مساعدة على قيام الملاحة وكان الشعب المصرى فى عصر ما قبل الأسرات يصنع القوارب ويقال أن هذا الشعب هو أول مبتكر لها . كما ابتكرت الكتابة فى هذا الوادى واتخذت حروفها من مناظر الصيد القديمة ، ولما ازداد رقى المصريين وجدوا أنهم لا يستطيعون العيشة فى عزلة وازدادت مطالبهم فنظروا إلى العالم الخارجى لاستكمال ما ينقصهم من أدوات كالخشب (بعد عصر البدارى) والملاكيت والبهارات وتدل المواد الاجنبية فى القبور المصرية التى من هذا العصر على أن علاقات المصريين التجارية بلغت فارس وأرمينيا وشمال سوريا وعلى هذا وجدت الفرصة أمام سكان هضبة ايران وآسيا الصغرى وجزيرة كريت لتعلم ما ابتكره المصريون من صناعة . وبالطبع نقل المصريون شيئا من حضارة هذه البلاد فان الفترة الاخيرة من عصر ما قبل الأسرات (السمانية) وفترة الاسرتين الأولى والثانية (Protodynastic) تمتاز بظهور أشياء فنية فى وادى النيل نادره ومتفرقه فى حين أن هذه الاشياء تعتبر الانواع الوطنية السائده فى العراق . وهذا يدل على أنها منقولة عن هذه الجهة .

ثالثا : حضارة سماينة

تنسب هذه الحضارة إلى بلدة سماينة بالقرب من بلدتى الأبعادية وهو بمركز نجع حمادى ، وتعتبر فترة انتقال بين عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرات إذ أن بعض مظاهرها الأثرية تمتد حتى الأسرتين الأولى والثانية . وتمتاز الفترة الواقعة بين رقمى ٦٣ ، ٧٦ من تاريخ بترى التتابعى بتحول القرى إلى مدن وبظهور الملوك المقدسين وباتحاد القبائل المتنافرة تحت سلطة واحدة . ولم يبق من آثار مدن هذا العهد شىء ولذلك نستمد معلوماتنا من المقابر فهى التى دلت على ظهور الطبقة الحاكمة وعلى تطور الفن والصناعة وعلى انتهاء الحروب المهلكة بين القبائل وعلى نمو الثروة بين أفراد الشعب عامة وتركزها عند بعض الفئات خاصة كما دلت على العلاقات الثقافية بين مصر من ناحية وبين أقطار غرب آسيا من ناحية أخرى .

ويظهر ازدياد الثروة فى تطور الفنون الصناعية إذ ازداد استخدام النحاس فى صناعة الأسلحة والآلات بل الأوانى أيضاً (انظر شكل ٧٥) . وكذلك صنعت للأساحة مقابض من الخشب نتيجة لاستيراد الأخشاب الصالحة لهذا الغرض من سوريا . كما وجدت الحراب المصنوعة من النحاس (انظر شكل ٧٦) وأما السنارة المصنوعة من النحاس فلا تظهر فى الصعيد إلا فى الأسرة الأولى ، بينما وجدت فى حضارة المعادى السنانير النحاسية رغم أنها أقدم من حضارة سماينة . وتعليل هذا أن موقع المعادى بالقرب من شبه جزيره سينا وعند رأس طريق يصل شبه الجزيرة بالنيل يسّر لأهلها استيراد المعادن — ومن بينها النحاس — من سينا فاستخدموها فى أغراض مختلفة فى وقت مبكر عن حضارات الصعيد .

ولكن استخدام المعادن لم يقض على صناعة الصوان ، فحتى أوائل عصر الأسرات كان النحاس قليلا رغم شيوع استعماله ، وكانت الآلات تصنع من الحجارة ولا سيما الآلات الضخمة اللازمة لأعمال البناء والزراعة . وقد جمعت من المدن

المصرية القديمة مئات الفؤوس الحجرية المصنوعة من نواة الصوان كما جمع عدد كبير

شكل (٧٥) يبين ازميلا من النحاس من حضارة سماينة
(من مقبرة حتب حيرس أم الملك خوفو)

من أسنان المناجل والأسلحة والمكاشط المستديرة وغير ذلك من الشظايا (انظر أشكال ٧٧ و٧٨ و٧٩) . ومع أن هذه الآلات متقنة الصنع ألا أنها لم تصل درجة انقان الآلات

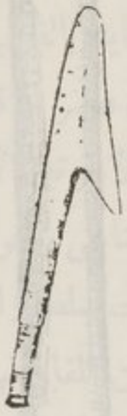

شكل (٧٦) يبين حربة من النحاس من حضارة سماينة

الحجرية فى القسم الأوسط من عصر ما قبل الأسرات. وقد وجدت فى الأسرتين الأولى

شكل (٧٧) فأس من الصوان من حضارة سماينة

والثانية أنواع أخرى من الالات الصوانية المتقنة الصنع مثل الأزميل وآلة الضرب التى على شكل الكمثرى والسهم والدرع وعصاة الرماية .

وكذلك تضاءلت صناعة الفخار من الناحية الفنية ، وربما ظهرت الالة الخاصة بصناعة الأوانى الفخارية فى هذه الفترة . ويختفى فن طلاء الفخار بالألوان ابتداء

من الرقم ٦٠ من التاريخ التتابعى ، ولا نجد غير الأوانى الحمراء والسمراء . ونجد الصناع يفضلون صناعة الأوانى ذات القاعدة المدببة والحافة البارزة ، وتختفى الأوانى ذات المقابض . على أنه تظهر بعض الأنواع الجديدة منها نوع يظهر حوالى الرقم

شكل (٧٨) أزميل من الصوان من حضارة سماينة

٧٠ من التاريخ التتابعى وهو ذو قاعدة انبوبية الشكل مجوفة وذوجوانب مثقوبة ثقوبا مثلثة الشكل ، وقد وجدت بالعراق أوانى شبيهة بهذه تماما .

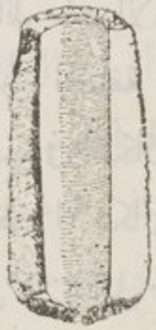

شكل (٧٩) سلاح من الصوان من حضارة سماينة

ويعلل انحطاط صناعة الفخار فى هذه الفترة بتعليلين : أولا . احتلت الأوانى الحجرية والمعدنية محل الأوانى الفخارية على مائدة القرابين بالمقابر . ثانيا . أدى ظهور حياة المدن إلى تحول الفخار من عمل فنى إلى صناعة تجارية تعنى بكثرة الأنتاج دون الذوق والاتقان .

وكذلك تنحط صناعة الأوانى الحجرية فنجدها متشابهة غير متعددة الأشكال وتختفى الأوانى المتنوعة الجميلة التى ظهرت فى حضارة جرزة . ونجد المادة المستعملة قاصرة فى معظمها على الألباستر والبازلت ، ولا نجد بالمقابر الملكية التى ترجع لهذه الفترة إلا أوانى قليلة من الأبسيديان (الزجاج الطبيعى) والبللورات الصخرية. وأعم أشكال الأوانى فى هذه الحضارة الاسطوانية الطويلة ثم المواجير المسطحة ذات المقابض والحافات وهى شبيهة بمواجير حضارة جرزة . على أنه يظهر نوع هام بين الاوانى الحجرية فى هذه الفترة هو الاوانى التوأمية المحفورة فى قطعة واحدة من الحجر . ولهذه الأوانى أيضاً نظائر عراقية .

فيما عدا الطين والحجر كانت تصنع أوانى قليلة من الزجاج الطبيعى والمعادن . ومن ضمن الأوانى المعدنية الأطباق والأقداح والكؤوس . وأحد هذه الكؤوس مكون من قطعتين منفصلتين — جسم الكأس وقاعدته — تربط بينهما حلقة معدنية

وقد ارتقت بعض الصناعات والفنون فى هذه الفترة منها فن النجارة إذ أصبحت تصنع من الخشب أرائك ذات أرجل على شكل حوافر الثيران ، وقد استخدمت هذه الأرائك أسرة للموتى بعد الرقم ٦٦ من التاريخ التتابعى .

أما أدوات الزينة والتمائم فمنها اللوحات الأردوازية التى على شكل حيوان ومنها الخرز الحلزونى المصنوع من الحجارة المختلفة والمطلى بالذهب فى بعض الأحيان. وتظهر الدلايات والتمائم وقطع اللعب فى أشكال حيوانات جديدة كالأسد والقرد والضفدعة والعقرب والحمام وكل هذه الأشكال لها ما يقابلها فى العراق كذلك . وقد وجدت حلية فى أبو صير الملق على شكل جمل .

وتظهر الأسطوانات كتمائم بعد الرقم ٦٥ ثم استخدمت فى الأسرة الأولى كأختام للتصديق على الوثائق ووجدت عليها نصوص هيروغليفية أذ أنه منذ هذا التاريخ تصبح الكتابة شائعة . وأصول هذه الكتابة نيلية وقد وجدت هذه الأصول لأول مرة على مقابض السكاكين العاجية التى ترجع لأواخر الفترة الوسطى من عصر ما قبل الأسرات .

وقد دل فحص المقابر على أن قبور الفقراء ظلت خلال هذه الفترة على ما كانت عليه فى الفترة السابقة . وأما قبور الأغنياء فقد ازدادت العناية بها فأصبحت تحفر إلى عمق كبير خلال الطبقة الرملية بل خلال الطبقة الصخرية التى تحتها .

وكان لابد فى هذه الحالة من عمل درج يؤدى إلى المقبرة لكى ينزل بواسطته حملة النعش وحملة القرابين ، كما كان لابد من عمل سقف يقوم فوق عمد . وقد قلنا أنه فى حضارة جرزة كان يعمل تجويف فى جانب المقبرة لوضع الهدايا والتقدمات فإذا ما انتقلنا إلى حضارة سماينة نجد هذا التجويف تزداد مساحته ثم يفصل عن حفرة الدفن بحاجز من الأغصان ثم يتحول أخيراً إلى حجرة مستقلة ويبنى الحاجز بالطوب (أنظر شكل ٨٠) .

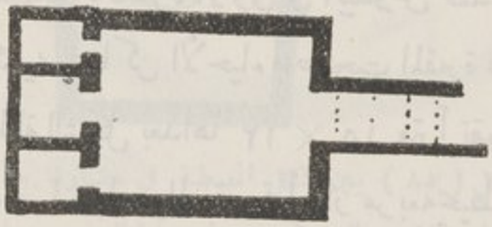

شكل (٨٠) يبين شكل المقبرة فى حضارة سماينة

وفى أوائل حضارة سماينة — أى حوالى الرقم ٦٣ من التأريخ التتابعى — كانت مقابر الأثرياء تطلى بالطين وتخطط بالطوب ومن أمثلة هذه المقابر مقبرة وجدت فى هيراكونپوليس طولها أربعة أمتار ونصف وعرضها متران وارتفاعها متر ونصف وهى مقسمة إلى حجرتين متساويتين بواسطة حائط . وقد طليت جدرانها بالطين أولا ثم بدهان أصفر لكى تنقش عليه بعض النقوش . وبالفعل رسم الفنان على هذه الجدران بالألوان الحمراء والسوداء والبيضاء مناظر تمثل الصيد والرقص والقتال وغير ذلك من المناظر التى يوجد مايشبهها على الأوانى الفخارية . وتعتبر هذه المناظر بدأ الرسوم الجنائزية التى سنراها فى العصر التاريخى ، وهى فى الوقت نفسه مأخوذة عن الرسوم التى رأيناها على الفخار .

ولمقابر هذا العصر دلالة اجتماعية ففيها نرى تزايد الثروة والنفوذ عند فئات خاصة من الناس . فلا شك أن صاحب مقبرة هيرا كونپوليس كان رئيس قبيلة ، وبذلك نرى الطريق أصبح ممهداً لظهور الملك الذى سيوحد الوجهين القبلى والبحرى.

وبعد الرقم ٧٧ تظهر مجموعة أخرى من المقابر تعلو فيها مبانى المقبرة فوق سطح الأرض وتخصص غرفة للعبادة وتقديم القرابين .

ثم أصبحت حجرة الدفن فى مقابر الأسرة الأولى عبارة عن بئر عميق تبنى فوقه حجرة بالطوب تملأ عادة بالرمل ، وإلى الغرب من هذه الحجرة تبنى حجرة أخرى صغيرة متصلة بالسابقة بفتحتين منخفضتين ، وتملأ الحجرة بالأوانى وتستخدم كمذبح أو مزار .

وأما فى المقابر الملكية بالأسرة الأولى فى أبيدوس فقد بذلت محاولة لبناء مدفن تحت الأرض شبيه بمساكن الأحياء فأصبحت المقبرة عبارة عن حفرة كبيرة مخططة بالطوب مستطيلة الشكل بعداها ١٢ × ١٥ متراً تقوم فى وسطها حجرة الدفن ثم صالة خشبية مساحتها حوالى تسعة أمتار مربعة يحيط بها عدد من الحجرات الصغيرة التى تستخدم كمخازن ، ثم يحاط كل البناء بصفوف من المقابر الصغيرة تستخدم لدفن أعضاء الحاشية . ثم فى نهاية الأسرة الأولى أضيف إلى بناء المقبرة دهليز مدرج يؤدى إلى حجرة الدفن ، وفى بعض الحالات كانت أرضية الحجرة تكسى بالجرانيت . ولا شك أنهم قصدوا جعل بعض هذه المقابر أثراً يخلد ذكرى الميت كما فى طرخان مثلا . ويطلق علماء الآثار على هذا الشكل الأخير الذى اتخذته المقبرة فى الأسرتين الأولى والثانية اسم مصطبة لشبهه بمصاطب الفلاحين . إذ أصبحت المقبرة عبارة عن بناء ضخم مستطيل من الطوب الأخضر بداخله عدة حجرات صغيرة ، وتحت الحجرة الوسطى توجد حفرة الدفن محفورة فى الارض إلى عمق كبير (انظر شكل ٨١)

والجدار الخارجى للبناء لم يكن مستقيما بل كان ذا تجاويف منتظمة . وقد استخدمت هذه التجاويف كمذابح جنائزية . ثم فى الأسرة الثالثة نجد المصطبة تبنى

بالحجر وتزداد مساحة الحجرات الداخلية ، وأخيراً نجد الملك زوسر أحد ملوك هذه الأسرة يبنى مقبرة من عدة مصاطب فوق بعضها هى المعروفة باسم الهرم المدرج فى صقارة . ويستخلص من هذا أن الآثار الجنائزية المصرية عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات منذ الفترة الوسطى من عصر ما قبل الأسرات حتى الأسرة الثالثة ، وأن التطور كان تدريجياً من الحفرة البسيطة حتى الهرم المدرج .

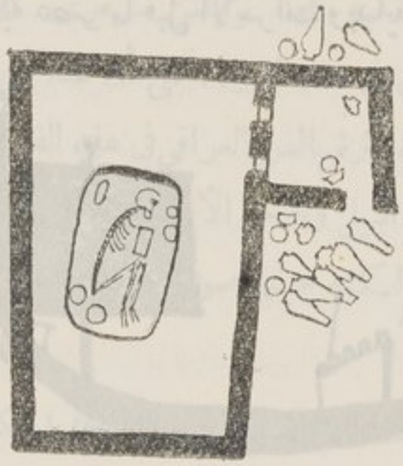

شكل (٨١) يبين شكل المصطبة فى حضارة سماينة

وقد تطلبت حضارة المدن التى ظهرت فى هذا العصر زيادة العلاقات التجارية وانتظامها مع العالم الخارجى . فجلب النحاس من سينا والذهب من النوبة وخشب الأرز من بيبلوس والزجاج الطبيعى من غرب آسيا . وقد استنتج من حفائر أجريت فى بيبلوس على وجود علاقات متينة بين مصر وشمال سوريا منذ بدأ الأسرات فلا بد أن مقدمات هذه العلاقات بدأت فى عصر ما قبل الأسرات . كما ثبت وجود حركة تجارية مصرية مع البحر الأحمر من آثار وجدت فى مقبرة فى رأس ساماداى على خط عرض ٢٥ شمالا ، وترجع هذه المقبرة إلى عصر ما قبل الأسرات وقد وجد بها أوانى ولوحات اردوازية من أواخر هذا العصر . هذا بالأضافة إلى الأصداف البحرية التى تدل كثرتها على انتظام التجارة مع ساحل البحر الأحمر . ويدل وجود أصداف هذا البحر فى كريت فى فترة معاصرة لأواخر عصر ما قبل الأسرات على أن هذه الأصداف انتقلت إلى الجزيرة عن طريق مصر .

والصلة بين مصر والعرق ينبغى أن تدرس فى ضوء العلاقات التجاريه . وتتضح هذه الصلة من أن بعض الشارات التى استعملت استعمالا مؤقتا فى بداية عصر الأسرات المصرية تكون عناصر دائمة فى مدنية بلاد النهرين (العراق) . على أنه لا يوجد من بين هذه الشارات ما يمكن وصفه بأنه بابيلونى صرف وذلك لأنها مصرت حين استعمالها ، فهذه الشارات العراقية انما تزين أشياء مصرية . وقد شملت العلاقات المصرية العراقية عصر ما قبل الأسرات وبداية الأسرات .

شكل (٨٢) يبين سفينة أجنبية مرسومة على أحدى اوانى حضارة سماينة

فى بدء حضارة سماينة حوالى التاريخ التتابعى ٦٣ نجد مجموعة كاملة من الرسوم الأجنبية ممثلة على أثرين مصريين . الأثر الأول يد سكين من العاج وجد فى جبل العرق ، والأثر الثانى مقبرة هيراكنپوليس التى سبقت الأشارة اليها . وموقع الأثرين يسترعيان الانتباه فهما يقعان بالقرب من نهاية طريق هام للقوافل يصل النيل بالبحر الأحمر . وعلى كلا الأثرين نجد صورة قارب يختلف تمام الاختلاف عن القوارب المصرية المرسومة على الأوانى الفخارية . فالقارب الأجنبي يمتاز بمقدمة طويلة ومؤخرة عالية وهما صفتان لاتتوفران فى القارب المصرى المصنوع من عيدان البردى . وكذلك تظهر صورة القارب الأجنبي فى مصر على آنيتين من الفخار وعلى بعض آثار الأسرة الأولى (أنظر شكل ٨٢) . ولا يمكن القول أن هذا القارب متطور عن قوارب البردى المصرية ، والأرجح أن يقال أنه منقول عن

قوارب بلاد النهرين وبالفعل توجد قوارب شبيهة بهذه على بعض أوانى سومر من الألف الثالثة قبل الميلاد . وأما السكين المكتشفة فى جبل العرق فعليها صورة كلب يختلف عن كلاب الصيد المصرية ويشبه الكلاب البابيلونية . وكذلك وجد على مقبض السكين وعلى نقوش المقبرة مجموعة من الصور تمثل بطلا يصارع أسدين وهذه الفكرة غريبة عن الفن المصرى ولكنها شائعة فى الفن البابيلونى . يضاف إلى هذا أن البطل ذو لحية كاملة ولباس سومرى . كل هذا يدل على تأثير الفن العراقى فى الفن المصرى فى هذه الفترة . على أن هذا لا يعنى أن الصورة كلها عراقية وإنما هى صورة مصريه متأثرة بالفن العراقى فى هذه الفترة . فالبطل أقرب إلى أبطال الصحراء الفاصلة بين النيل والبحر الأحمر منه إلى بطل من بابل أو سومر أو جلجميش أو علام . ولكنه حينما صوره الفنان المصرى كان متأثرا بأفكار وآراء عراقية .

وكذلك تظهر فى هذه الفترة تماثيل حيوانات جديدة كالأسود والقرود والضفادع والعقارب وكلها من الأنواع الشائعة فى بلاد النهرين . بل أن المصريين كانوا فى هذه الفترة يصورون الأسد فى تماثيلهم ذا مخالب مفتوحة بنفس الطريقة التى كانت متبعة فى سوسه وبابل وقد هجرت هذه الطريقة فى مصر بعد ذلك .

هذه هى أوجه الشبه بين الفن المصرى وفن بلاد النهرين فى الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الأسرات . وقد استمر بعضها فى الأسرة الأولى ومثال ذلك رأس صولجان تمثل الاحتفال بعيد « سد » لأول الفراعنة ، فإن شكلها غريب فى مصر ومألوف فى بابل . وكذلك بعض الآنية المحفور عليها بعض الرسومات التى تعتبر من الأشياء الشائعة فى وادى الدجلة والفرات عامة وفى سومر خاصة بينما لم تكن معروفة من قبل فى وادى النيل . وكذلك تعتبر من الأوانى الاسيوية ذات القواعد الأنبوبية الشكل التى سبق ذكرها فقد وجدت بكثرة فى أقدم الطبقات الأثرية فى أشور وفارا وغيرهما من بلاد النهرين ثم فى حضارة سوسا الثانية وهى فى كل هذه الجهات مزينة بالخطوط المحفورة المثلثة الشكل كما فى مصر .

وكذلك تعطى أهمية كبيرة لبعض الظواهر المعمارية فى المقابر الملكية والمصاطب القديمة فى اثبات العلاقة بين مصر وبلاد النهرين فى أوائل عصر الأسرات . فالجدران ذات الفجوات لها ما يماثلها فى بابل بل أنها بقيت بالعراق حتى اليوم . ويلاحظ أن الجدران ذات الفجوات تقليد لصفوف من الأعمدة الخشبية كان يثبت فيها بين كل عمود وآخر باب خفيف ، وكذلك يلاحظ أن رسوم الفجوات فى مقبرة حسى فى سقارة ثم قراميد مقبرة زوسر الجديدة تدل على أنه فى بعض الحالات كانت تملأ الفجوات بين الأعمدة بحصير من الغاب يحمل الطابع السورى . وهذا التشابه بين البناء بالطوب فى كل من مصر والعراق يدل على أنه إن لم يكن أحدهما تقليد للآخر فأنهما على الأقل قاما على أسس معمارية مشتركة .

والتشابه كبير بين المقابر المصرية القديمة ومقابر بلاد النهرين بحيث لا يمكن ارجاع هذا التشابه إلى الصدفة . ففى مقابر الملك مينا وخلفائه توجد محاولة على نطاق ضيق لتقليد قاعة الملك تحت بئر الدفن . وقد وجد مثل هذا فى مقابر أور . وكذلك دفنت حاشية الملك مينا حوله فى ملاحق لمقبرته وكذلك فى أور كانت كل حاشية الملك تذبح وتدفن معه . وكذلك يوجد شبه بين دفن الجحشين وسائقها فى ممر مصطبة طرخان وبين دفن سائق الحمير فى مقابر كيش وأور ولا يمكن أن يكون هذا التشابه فى التقاليد الجنائزية راجعا إلى الصدفة وحدها .

وكذلك الاسطوانات التى استخدمت كأختام فى الأسرة الأولى رغم أن الكتابة عليها فى جميع الأحوال مصرية صرفة ألا أنها تحمل وجوه شبه بينها وبين الاسطوانات البابلية بل أنها ظلت تستخدم فى المكان الأخير بعد أن بطل استخدامها فى مصر بمدة طويلة . ثم أن الحروف الهير وغليفية نفسها رغم أن عناصرها نيلية صرفة الا أنها تحمل بعض الصفات البابلية .

كل هذا يدل على أن مصر وسومر فى عهد أقدم ملوكهما كانتا على اتصال مباشر أو غير مباشر ولكنه منتظم . أما نوع هذا الاتصال فمختلف فيه . فهناك لفيف من الكتاب مثل بترى ودى مورجان يرى أن شعبة جنسية من سومر غزت مصر

فأوجدت الكتابة وصناعة المعادن والذوق الفنى والنحت على الحجر وصناعة النجارة الراقية وعجلة الفخار وجعل المقبرة تذكاراً أثريا يخلد ذكرى صاحبه . وهناك لفيف آخر يرى أن الأمر لم يتعد العلاقات التجارية بين وادى النيل من ناحية وبين وادى الدجلة والفرات من ناحية أخرى وأنه ليس من الضرورى أن يكون التجار سومريين بل كان هناك وسطاء تجاريون بين مصر وسومر ربما كانوا سكان ماجان الوارد ذكرهم فى النصوص السومرية كشعب مخاطر يركب البحار . وهناك رأى ثالث وسط بين الرأيين السابقين وهو أنه كان هناك مركز ثقافى متوسط بين سومر ومصر غذى هاتين الجهتين بالعناصر الثقافية المتشابهة .

والذين يريدون تفسير هذه الصلات على أساس جنسى يجدون ما يؤيد رأيهم ولو تأييداً ظاهريا . فالهيا كل البشرية بمقابر ملوك الأسرة الأولى ولو أنها من جنس السكان فى عصر ما قبل الأسرات ـ أى ذات رؤس طويلة ـ ألا أن رؤسهم أعرض وهيكلهم أقوى من سكان عصر ما قبل الأسرات وكذلك يظهر بالمقابر الملكية ابتداء من الأسرة الثالثة عنصر عريض الرأس من الجنس الذى يسميه علماء الأجناس « أرمينى » يضاف الى هذا أن اللوحات الاردوازية فى أوائل الأسرات تصور عدة اجناس بين اتباع مينا وبين أعدائه . وقد ميز بترى ستة انواع جنسية على هذه اللوحات .

وكذلك الذين يريدون تفسير هذه الصلات على أساس ثقافى يجدون ما يؤيد رأيهم فأن العنصر الجنسى الذى يعتبره بترى مؤسس الأسرات قد يكون « أتباع أله الصحراء الشرقية » الذين كانوا على اتصال ثقافى عن طريق البحر الأحمر بسكان بلاد النهرين .

ومن الأهمية بمكان أن نعين الى أى حد كانت مصر سلبية فى علاقتها الثقافية ببلاد النهرين كما أنه من الأهمية بمكان أن نعرف أى القطرين كان أسبق فى حضارته، فأن الحضارة الأسبق هى التى أعطت عناصرها التى جاءت بعدها سواء كان عن طريق نزحة جنسية أو اتصال ثقافى . وفى الحق أن البحوث الأثرية لم تتقدم فى

جهات الشرق الأخرى بالدرجة التى تقدمت بها فى مصر ، ومن ثم يكون الجزم بأن مصر نقلت حضارتها فى أواخر عصر ما قبل الأسرات وفى أوائلها عن العراق لا يستند على أسس أثرية واضحة . ويجب أن ندخل عامل البيئة فى حسابنا فهى التى تمكن الشعب من التفوق الحضارى فى بعض النواحى بينما تضعفه فى نواحى أخرى. وإذا كان فى الوقت الحاضر لا تستطيع كل الدول أن تكون صناعية لأن بيئة بعضها فقيرة فى المعادن ، فكذلك فى الماضى لا يمكن أن يتخذ تأخر مصر عن سومر فى الأسرتين الأولى والثانية فى بعض العناصر الحضارية ـ مثل الصناعات المعدنية وصناعة المركبات ذات العجلات ـ دليلا على أن مصر نقلت حضارتها التى بهرت بها العالم عن سومر . أما بعد الأسرة الثانية فلا جدال فى تفوق الحضارة المصرية عن أى حضارة معاصرة لها فى نواحى العالم المختلفة . فالعمارة ونحت الحجر فى عهد الملك زوسر بالأسرة الثالثة يفوقان العمارة والنحت ببلاد النهرين ، وكذلك الصناعة المعدنية فى الاشياء المكتشفة بمقبرة حتب حيرس أم الملك خوفو لا تقل عن الصناعات المعدنية فى سومر التى كانت أكثر تفوقا من مثيلاتها فى مصر فى الاسرتين الاولى والثانية . وإذا كان السومريون قد اخترعوا الفؤوس لحفر آبار الدفن فكذلك المصريون اخترعوا فؤوسا لحفر آبار مدافنهم .

على أن الذين يرون أن مصر نقلت حضارتها فى أواخر عصر ما قبل الاسرات وفى بداية الأسرات من بلاد النهرين يتناسون أن الحضارة المصرية لم تبدأ فى سنة ٣٢٠٠ ق.م وهو التاريخ الذى يعتبره المؤرخون بدأ العصر التاريخى والأسرة الفرعونية الأولى وإنما ترجع الحضارة المصرية إلى مئات الآلاف من السنين قبل هذا التاريخ وكانت بشهادة آثارها مقراً لحضارة عريقة ذات مستوى ثقافى لم تصله أية دولة أخرى فى آسيا أو أوروبا . ولا شك أن طبيعة هذه الحضارة الراقية التى بدأت سنة ٣٢٠٠ ق.م تتطلب استعداداً سابقاً وتنظيما اجتماعيا وتجارب تستغرق الاف السنين بحيث يمكنها أن تظهر مثل هذه الحضارة . ولم تكن الحضارة البابيلونية المعاصرة لتحتاج إلى مثل هذا الاستعداد السابق الطويل لأنها كانت حضارة فجة يغلب عليها الطابع

التجارى ، ولهذا كانت مصر قد قطعت شوطا طويلا فى ميدان الحضارة فى الوقت الذى لم تكن قد ظهرت فيه فى بلاد النهرين حضارة على الأطلاق .

وإذا كان المقصود بالحضارة سيطرة الإنسان على فنون الحياة المختلفة فلا نستطيع أن ننكر حضارة السومريين ومن جاء بعدهم ولا حضارة أصحاب الأوانى الفخارية الحمراء فى بابيلونيا وسوسا . غير أنه يبقى بعد ذلك إثبات أصالة هذه العناصر الحضارية ببلاد النهرين واثبات عراقة الشعوب التى قامت على اكتافها هذه الحضارة وهو مالا يتفق مع الأسس الجغرافية والعوامل المناخية المسلم بها فى الوقت الحاضر

فمن المعروف أن مصر نجت من المناخ القاسى الذى ساد بعض جهات العالم فى العصور الجليدية كما نجت من الفيضانات المدمرة التى كانت تتلو هذه العصور نتيجة لذوبان الجليد . وأما بلاد غرب آسيا وبلاد النهرين — دجلة والفرات — فلم تنج من البرد القارس فى العصور الجليدية ولا من الفيضانات العاتية فى الفترات الدفيئة التالية لهذه العصور وذلك لأنها كانت تقع عند الحافة الجنوبية للغطاء الجليدى الأرمينى ومن ثم كانت منطقة أشور غير صالحة لإقامة حضارة زاهية فى العصور الجليدية بسبب البرد القارس ولا فى الفترات الدفيئة التى تخللتها بسبب الفيضانات الناجمة عن ذوبان الثلوج . هكذا كان الحال فى بلاد النهرين فى فترة نشأة الحضارة البشرية ، وأما مصر فقد حماها البحر الأبيض المتوسط من قسوة الجليد الأوروبى الذى زحف فى العصور الجليدية من أقصى شمال القارة حتى اتصل بالجليد المستقر فوق جبال الألب ، وبهذا وجدت بمصر بيئة صالحة لازدهار الحضارة لم تتوفر للجهات القريبة منها فى غرب آسيا ، ولهذا استطاع الانسان فى مصر أن يسيطر على فنون الحياة المختلفة ونضرب مثالا لذلك بأسلحته الصوانية المموجة السطح التى لم تصل إلى مستواها الصناعة الصوانية فى أى جهة أخرى من جهات العالم فى عصر من العصور .

وقد بذلت محاولات لأثبات أسبقيه بلاد النهرين على مصر فى ميدان التعدين غير أن النصوص المصرية تتحدث عن استغلال مناجم النحاس فى شبه جزيرة سينا

منذ عهد فراعنة الأسرة الأولى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م وربما كان هذا أقدم استغلال منظم للمناجم فى العالم . وإذا تركنا التعدين وانتقلنا إلى العمارة والهندسة والطب والفن والعلم والنحت والنضوج الاجتماعى نجد أن غرب آسيا لا يصل إلى مستوى مصر فى هذه الأشياء بل لا يقترب من هذا المستوى . وإذا اتخذت الهندسة والجراحة مقياسا للتفوق الحضارى وكذلك إذا اتخذت الاهرامات مقياسا لتنظيم الاجتماعى والادارى فإن غرب أسيا لم يقترب من هـذا المستوى ألا بعد مصر بألفى عام .

ويرى بعض علماء الأجناس أن شعبة من الجنس الحامى السامى استقرت فى شمال أفريقية والصحراء الكبرى قبل سنة ١٠٠٠٠ قبل الميلاد حيث تم تكوينها وتخصصها الحضارى ، ثم خرجت هجرة من هذه الشعبة فى الفترة الواقعة بين ١٠٠٠٠ و ٨٠٠٠ ق . م إلى الشرق فنشرت حضارتها فى وادى النيل وغرب آسيا حتى بلاد النهرين ، ومعنى هذا أن حضارة بابيلونيا ومصر إنما نشأت فى الأصل فى شمال أفريقية والصحراء الكبرى . وفيما يختص بالحضارة البابيلونية نجد أنها قامت على أكتاف ثلاثة أجناس : الساميون والسومريون ثم أهل الآنية الفخارية الحمراء التى وجدت فى الأبيض وأور وغيرهما من بلاد النهرين . وحوالى سنة ٣٥٠٠ ق . م وربما قبل ذلك حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م اندفع السومريون خلال الخليج الفارسى من الجنوب حتى وصلوا جنوب بابيلونيا وتوغلوا على هيئة أسفين بين العنصرين الآخرين .

وحينما دخل السومريون بابيلونيا كانوا ذا حضارة عالية فكانوا يعرفون الزراعة كما كانوا حوالى سنة ٣٥٠٠ ق . م يعرفون صناعة أشياء جميلة من الذهب والفضة ولا جدال فى أنهم فى هذه الناحية بلغوا درجة كبيرة من التفوق الحضارى . كما كانوا يعرفون الكتابة ويعرفون من فنون المعمار عمل الأقواس والقباب كما اخترعوا عجلة الفخار والعربة ذات العجلات . ولكن ينبغى ألا ننسى أن السومريين وفدوا من الخارج بهذه الفنون إلى بلاد النهرين فى الوقت الذى كانت فيه مصر قد عرفت

بعض هذه الفنون كصناعة الذهب والفضة ولم يكن من الضرورى أن تعرف البعض الآخر كالأقواس والقباب المعمارية لأن لكل بيئة مطالبها الخاصة ، والحضارة الأصيلة هى التى تنسجم مع ظروف البيئة المحلية . على أن الكشف الأثرى لم ينته بمصر بعد ومازالت التربة المصرية تخفى آثارا من كل العصور ومن كل الأسرات ، ويوم أن تخرج هذه التربة كل مافى بطنها سنجد أن الحضارة المصرية من التنوع فى فنونها ومن التفوق فى مستواها ومن القدم فى زمنها ومن العراقة فى أصلها بحيث لا تفوقها حضارة أخرى فى العالم فى هذه النواحى كلها .

وإذا أردنا دليلا على ذلك فلننظر إلى معلوماتنا عن بداية عصر الأسرات قبل كشف مستر فيرث لآثار الملك زوسر بسقارة وقبل كشف الدكتور ريزنر لمقبرة حتب حيرس أم الملك خوفو ثم لنقارنها بمعلوماتنا بعد هذه الكشوف . فى سقارة كشف فيرث عن المعبد الملحق بهرم زوسر وقد تجلت فى هذا المعبد روعة الفن والعمارة حتى وصف الملك زوسر من أجلها بأنه اسطورة من الأساطير لأن مصر وصلت فى عهده إلى القمة فى فنون العمارة المختلفة مع أنها كانت ومازالت فى بداية عصر الأسرات . وكذلك من مقبرة حتب حيرس أخرج ريزنر أدوات الحياة اليومية الدقيقة وأثاث المنزل والجواهر والملابس وأدوات الزينة المختلفة مما يدل على أن مصر فى بداية الأسرة الرابعة كانت على مستوى عال فى الصناعات المختلفة .

وإذا انتقلنا إلى بابيلونيا فى نفس الفترة نجد أن الاكتشافات الحديثة تشهد لمدنيتها بالرقى سواء أكانت مدنية الساميين أو مدنية السومريين غير أنها تقف وراء مصر بكثير من الناحية الفنية . والسبب فى هذا أن أهلها القدماء كانوا من رجال الأعمال وكانوا أصحاب تجارة عالمية تعنيهم الشئون المالية أكثر مما يعنيهم الذوق أو الفن شأن رجال المال والأعمال فى كل عصر وفى كل أمة . وصحيح أن المقابر الملكية وغير الملكية التى كشفها مستر وولى فى أور توحى بأن البابلونيين نبغوا فى صناعة الذهب والفضة ونقش الأصداف من عهد قديم إذ أن هذه المقابر ترجع لفجر تاريخهم أكثر من رجوعها للعصر التاريخى لأن النصوص التى بها لم تكن قد تطورت

التطور الكامل الذى سيظهر فى الخط المسمارى فى عهد سارجون مؤسس أول امبراطورية بابيلونية سنة ٢٧٠٠ ق . م . وتوضع هذه الحضارة فى عصر « ما قبل السومريين » وتعزى إلى جنس «ما قبل السومريين». ولقد جاء السومريون فيما بعد وأطلقوا على أنفسهم اسم « الجنس ذو الرأس السوداء » مما يشير إلى وجود جنس أشقر فى تلك البلاد فى ذلك الوقت . ومما يؤيد هذا أن السومريين يصورون لنفسهم عراض الرأس فى حين أن معظم الجماجم التى ترجع إلى العصر السابق لهم من النوع الطويل . ولقد أسست الأسرة الأولى فى أور سنة ٣١٠٠ ق . م . وتدل مقابر أور كذلك على التجارة العالمية وعلى النشاط فى استغلال المناجم فقد وجد فى مقابرهم الذهب والفضة واللاپس لازولى والنحاس . فأما الذهب فقد جلبوه من الجهات المطلة على الخليج الفارسى وأما الفضة فلابد أنها جلبت من جبال طوروس ولكن كل هذه الأشياء تدل على نشاطهم التجارى أكثر من دلالتها على التفوق فى ميدان الفن والصناعة .

ويتضح من هذا أن السومريين لم يكونوا من أهل بلاد النهرين وإنما نزحوا اليها من منطقة نائية بحضارة راقية جمعوا عناصرها من الجهات المختلفة التى اتصلوا بها فى معاملاتهم التجارية ولعل هذا يفسر التشابه بين بعض مميزات الحضارة المصرية وحضارة بلاد النهرين . ولقد بدأ عصر الأسرات فى أور بعد عصر الأسرات فى مصر بفترة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون ، كما أن المعلومات الاثرية الحالية لاتدل على أن هذه البلاد مرت فى فجر أسرات طويل الأمد كفجر الأسرات فى مصر .

الفصل السابع

حضارات الوجه البحرى

فى عصر ما قبل الأسرات

لم تباشر الحفاير فى الوجه البحرى بنفس النشاط والمثابرة اللتين بوشرت بهما فى الوجه القبلى فحتى سنة ١٩٣٠ لم تكن قد كشفت بالدلتا أو على جانبيها أية حضارة من عصر ما قبل الأسرات إلى أن كانت حفاير الجامعة المصرية فى المعادى سنة ١٩٣١ وحفائر دى بونو فى حلوان سنة ١٩٤٥ . وقد يبدو غريبا فى الوقت الحالى أن نتحدث عن حلوان والمعادى كمدن بالوجه البحرى فى حين أن رأس الدلتا يبعد نحو الشمال اكثر من أربعين كيلوا مترا عن المدينة الأولى واكثر من ثلاثين كيلو مترا عن المدينة الثانية . غير أن الأمر لم يكن كذلك فى عصر ما قبل الأسرات وفى بداية عصر الاسرات بل كانت قمة الدلتا فى منطقة سقارة وحلوان الحاليتين حتى أن المصريين فى بداية العصر التاريخى اعتبروا منفيس (البدرشين وميت رهينة وسقارة) أولى مديريات الوجه البحرى . وتقع حلوان على الشاطىء الأيمن للنيل تجاه منفيس ومن ثم ليس هناك شك فى تبعيتها للوجه البحرى فى ذلك العهد . وتقع المعادى شمال حلوان وهى بذلك كانت تقع فى الوجه البحرى الصميم فى عصر ما قبل الاسرات وفى بداية الاسرات .

ولا ينتظر أن تجود الدلتا بالكثير من آثار عصر ما قبل الاسرات لعدة أسباب منها أن طمى النيل غطى الكثير من هذه الآثار بسبب انخفاض الارض ووقوعها على مستوى أقل من مستوى فيضاناته العالية ومنها أن كثيرا من المدن الحديثة قامت على انقاض المدن الاثرية القديمة ومنها أن مرور الناس ودوابهم على هذه المدن منذ أن هجرها انسان عصر ما قبل الاسرات قد خربها ودك آثارها حتى

سواها بالارض ثم غطاها الطمى أو غطتها الحقول الزراعية والمساكن الحديثة .

على أن ما ظهر حتى الآن من آثار هذا الاقليم فى ذلك العصر يكفى للحكم على درجة حضارته وعلى طابعه الخاص الذى كان وليد بيئته . وسنتكلم فى هذا الفصل على حضارة حلوان الثانية ثم على حضارة المعادى .

أولا : حضارة حلوان الثانية

أو

حلوان ب

أخرجت مادة هذه الحضارة من نفس المكان الذى أخرجت منه مادة حضارة العمرى على بعد ٣ كم شمال شرق مدينة حلوان وعند الحافة الجنوبية لفم وادى حوف ، وقد قلنا عند الكلام على حضارة العمرى أن المنطقة تضم مجموعتين من المقابر ومنطقة للسكن . وقد ركز مسيو دى بونو جهوده فى حفر منطقة السكن لسببين . أولا : أن هذه المنطقة لم يسبق حفرها حينما قام بوفييه لاپيير بحفائره فى هذه المنطقة . ثانيا : أن المنطقة مهددة بالتخريب التام الذى يقوم به السباخون وغيرهم من رواد هذه الجهات الصحراوية .

وقد أظهرت الحفاير الطابع الخاص الذى كان لسكان الدلتا فى عصر ما قبل الأسرات وأبرزت الفرق بينهم وبين أهل الصعيد .

ففيما يختص بمساحة القرية وشكل المساكن دلت هذه الحفاير على أن القرية كانت كبيرة المساحة شأنها فى ذلك شأن مدن الدلتا الأخرى التى من هذا العصر والعصر الحجرى الحديث مثل مدينتى المعادى ومرمدة بنى سلامة ، وهذا على عكس مدن الصعيد فهى محدودة المساحة .

وأما المساكن فقد كانت تقام بحيث يكون جزء منها تحت مستوى سطح الأرض . وهذا الجزء المحفور فى الأرض بيضاوى الشكل تقوم حوله جدران من الحصير المغطى بالطين . كما وجدت بقايا أعمدة من الخشب مغروسة فوق سطح الأرض كانت تؤلف فيما بينها جدران نوع آخر من المساكن تقوم بأكملها فوق سطح الأرض . ومن الجائز أن المساكن المحفور جزء منها فى الأرض كانت عبارة عن مخازن للمؤونة . وأما تلك التى تقوم بأكملها فوق سطح الأرض فهى التى كانت بقصد السكنى . على أن بعض المساكن المحفورة فى هذه القرية ليست محفورة فى التربة الرملية الهشة وأنما محفورة فى الأرض الصخرية .

وقد أراد دى بونو أن يستنتج من هذا احتمال قيام المحاجر منذ هذا الوقت المبكر ، غير أن هذا احتمال بعيد لأن البناء بالحجر لم يكن قد عرف بعد ، كما أن الآلات المعدنية اللازمة لتقطيعه لم تكن قد وجدت بعد ، فلا بد أن هذه المساكن المحفورة فى الحجر الجيرى عملت بقصد تخزين المؤونة أو السكنى وكانت الوسيلة فى حفرها آلات حجرية أشد صلابة من الحجر الجيرى يمكن بواسطتها الحفر ولكنها لا تمكن من تقطيعه وتفصيله إلى كتل تنفع فى البناء .

وفيما يختص بصناعة الفخار وجدت بالمقابر والمساكن صناعة فخارية رقيقة تظهر فيها الأوانى المصقولة الحمراء والسوداء والسمراء كما تظهر فيها الأوانى الخشنة. وأما أشكال الأوانى فمتعددة ففيها أوانى ذات رقبة وأخرى من غير رقبة ، وفيها أوانى كروية الشكل وأخرى بيضاوية وفيها أقداح صغيرة ثم أوانى ذات مقابض ؛ هذا بالأضافة إلى الأوانى الخشنة السميكة الجدران . ومن بين هذه الأوانى ما يشبه أوانى مرمدة بنى سلامة والمعادى ، ومن بينها كذلك أشكال جديدة تختص بها هذه الحضارة (انظر شكل ٨٣)

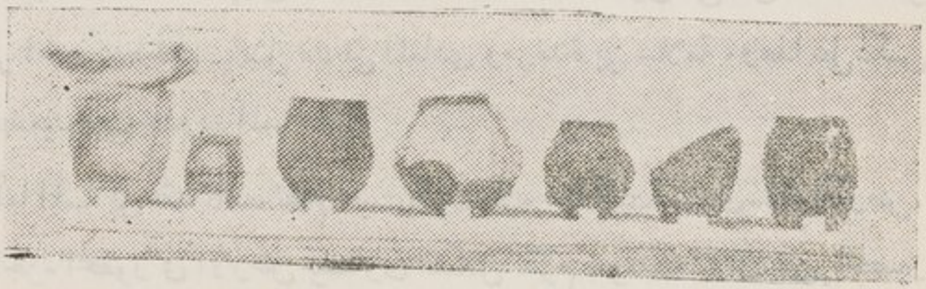

شكل (٨٣) يبين بعض الأوانى الفخارية من حضارة حلوان الثانية

وأما الأسلحة الصوانية فنوعان نوع مصقول من الوجهين Bifaciale ونوع غير مصقول عبارة عن شظايا مشذبة الحافات .

فأما النوع الأول فيشمل الأسهم ذات القاعدة المقعرة الشبيهة باسهم الفيوم ثم الأسهم التى على شكل مثلث متساوى الضلعين ثم الآلات المسننة كالمناجل والمناشير وأما النوع الثانى فيشمل سكاكين من نوع جديد تختص به هذه الحضارة ، ثم النصال

المختلفة ثم بعض الآلات المسننة . وقد جمع كذلك كثير من كتل الصوان التى كانت تفصل إلى شظايا ثم كثير من المطارق التى كانت تستخد ـ فى فصل هذه الشظايا وتشذيبها وكذلك وجدت أحجار الرحى بنوعيها المجوف والمستدير .

وقد وجدت أدوات من العظم كالمثاقب والنصال كما وجد شص (سنارة) من قرن حيوان ووجد صولجان من الخشب يدل — مع الأدوات الخشبية الأخرى ـ على رقى هذه الصناعة فى حضارة حلوان الثانية . وقد استخدم قشر بيض النعام كأوعية وكحلى .

شكل (٨٤) يبين صناعة السلال بحضارة حلوان الثانية

وقد وجدت صناعة أسبتة راقية لا تضارعها إلا الأسبتة الفرعونية فيما بعد ، كما عرفت صناعة الحبال والنساجة وصناعة الحصر . وكانت الحصر تستخدم غطاء لجدران المساكن والمقابر وربما كان يكفن بها الميت . وكذلك الجلود ربما كان يلبسها الأحياء ويكفن بها الأموات . (انظر شكل ٨٤)

وأدوات الحلى عند أهل هذه الحضارة عديدة فعرفوا صناعة العقود والدلايات من أصداف البحر الأحمر ومن قشر بيض النعام ومن عظام السمك ومن أنواع مختلفة من الحجارة البراقة كما كانوا يلبسون دلايات من الحفريات المختلفة بعد ثقبها

ولا سيما الحفرية المعروفة « باسم « قروش الملايكة » وكذلك عرفوا اللون الأحمر أما لكى يزين النساء به وجوههن وأما لطلاء الأوانى الفخارية وربما كان يستعمل للغرضين معا .

وقد عرفوا زراعة الحبوب كالقمح والشعير وقد وجدت بعض هذه الحبوب متفحمة وغير متفحمة كما وجدت سنابلها . وقد سبق أن ذكرنا أنه وجدت بالمنطقة المناجل وأحجار الرحى اللازمة لحصد الغلال وطحنها . أما غذاؤهم الحيوانى فكان يشمل من الحيوانات المستأنسة الماشية والماعز والأغنام ومن الحيوانات غير المستأنسة الخنازير البرية والحيتان والقواقع وفرس الماء والسلاحف والنعام وقد جمعت من المنطقة كميات كبيرة من عظام هذه الحيوانات لفحصها .

أما علاقة القوم الخارجية فتدل عليها أصداف البحر الأحمر وبعض المواد الأخرى التى لاتوجد فى بيئتهم المحلية ،

وفيما يختص بطقوسهم الجنائزية كانت عندهم عادة دفن الموتى فى أماكن السكنى وهى عادة لم تعرف فى مصر من قبل إلا فى قرية مرمدة بنى سلامة . وليس هناك شك فى تبعية الهياكل لنفس العصر ونفس الحضارة إذ أن القدور الفخارية المدفونة مع الميت من نفس النوع المكتشف بالمساكن . وقد وجدت هذه الهياكل راقدة على جنبها فى وضع مقرفص ومعظم رءوسها متجهة نحو الجنوب والوجوه متجهة نحو الغرب . وفى أغلب الأحوال كانت توجد آنية فخارية بجانب الهيكل . كما كانت الهياكل تكفن بجلود الحيوانات أو الحصير أو القماش . وقد وجد أن بعض هذه الهياكل مازال محتفظا بآثار الشعر على الرأس والذقن . ومن بين هذه المقابر مقبرة لا شك فى أنها مقبرة أمير أو حاكم أو رئيس قبيلة فقد وجد مع الهيكل عصاة من الخشب طولها ٣٥ سم مدببة من أحد طرفيها ومسطحة من الطرف الآخر . ويدل شكل العصاه على أنها لم تكن أداة للضرب أوسلاحا من الأسلحة وإنما كانت شارة للرئيس وصولجانا له يميزه عن سائر الرعية . وقد وجد فى العصر التاريخى وفى مصر السفلى بصفة خاصة مثل هذا الصولجان . (انظر شكل ٨٥)

أما عن تاريخ هذه الحضارة فتدل آثارها على أنها تشغل مركزاً وسطا بين حضارة مرمدة بنى سلامة وبين حضارة المعادى فهى تشبه حضارة مرمدة فى الطقوس الجنائزية وفى مخازن الغلال وفى الصناعة الحجرية ذات الوجهين وفى بعض

شكل (٨٥) يبين هيكل أمير أو رئيس قبيلة و بيده الصولجان من حضارة حلوان الثانية

الأوانى الفخارية كما تشبه حضارة المعادى فى بعض الأوانى الفخارية وفى صناعة النصال الصوانية . ولهذا توضع حضارة حلوان الثانية فى فترة أحدث من مرمدة ومن حلوان الأولى وأقدم من المعادى .

ثانياً : حضارة المعادى

تنسب هذه الحضارة إلى مدينة أثرية من عصر ما قبل الأسرات كانت تقوم على التل الأثرى الواقع على تخوم الصحراء شرق مدينة المعادى الحالية .

ولهذه المدينة الأثرية أهميتها من حيث موقعها فى مكان متوسط يصل الدلتا بالصعيد من ناحية ويربط كلامنهما بشبه جزيرة سينا وبلاد غرب آسيا من ناحية أخرى . وسنرى فيما بعد أن حضارة المعادى تأثرت بهذا الموقع فكانت ذات سمات خاصة تفصلها عن حضارات مصر السابقة لها وتجعلها بحق باكورة للحضارات التالية لها وعلى الأخص حضارة نقادة الثانية .

وقد حفر من المنطقة حتى الآن حوالى عشرة أفدنة أخرجت مادة أثرية شديدة الغزارة حتى لتعد قطعها الصوانية وأوانيها الفخارية بالآلاف . وقد بلغ سمك الطبقات الأثرية فى قلب المدينة أكثر من مترين بينما لايزيد هـذا السمك عند أطرافها عن عشرين سنتمتراً .

ولدراسة آثار المعادى تقسم إلى قسمين الآثار القابلة للنقل والآثار الثابتة . فأما الآثار القابلة للنقل فتشمل الأوانى الفخارية والحجرية والخشبية والعظمية ثم معدات الزينة والآثار الفنية . وأما الآثار الثابتة فتشمل المساكن وما يتبعها من موقد ومخازن .

الآثار القابلة للنقل

الأوانى الفخارية : هى فى المعادى متعددة الأشكال والألوان والأحجام ولـكن أهمها نوعان : النوع الأول أحمر اللون ذو قاعدة حلقية وجسم بيضاوى مستطيل وهو غير مصقول ولـكنه ناعم الملمس . والنوع الثانى أسود مصقول السطح ذو جسم كروى (انظر شكل ٨٦) .

وقد وجدت آنية فخارية كبيرة ذات شكل اسطوانى تزدان حافتها العليا بمقابض

عديدة ولا يعرف هذا الشكل فى جهات مصر الأخرى . كما وجدت عدة أوانى

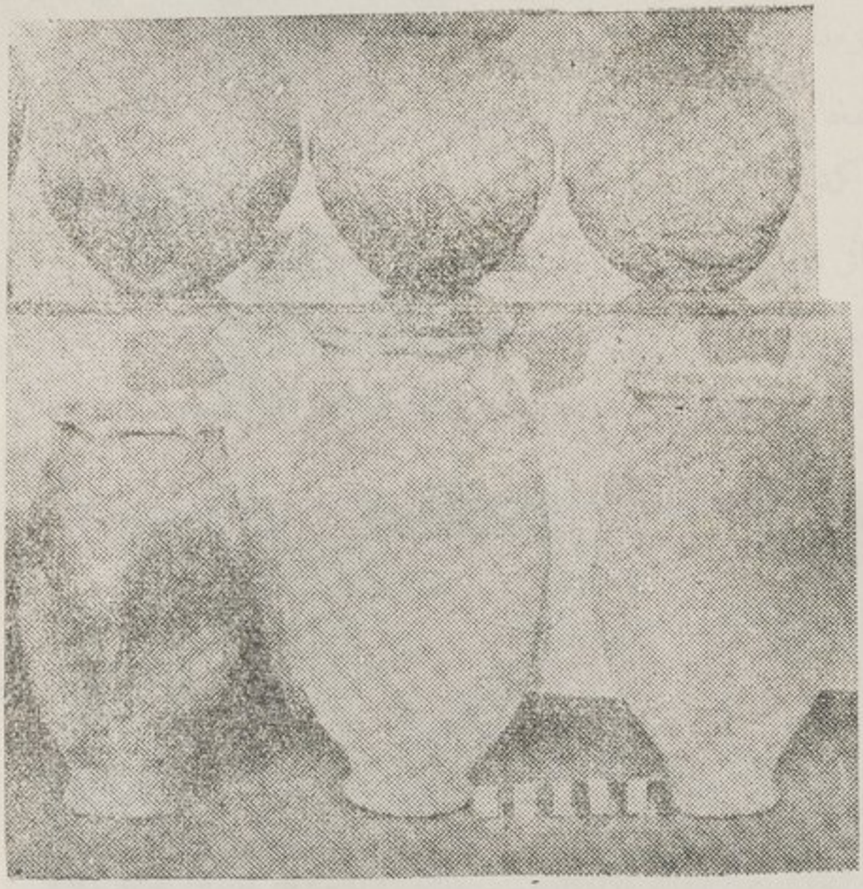

شكل (٨٦) الأوانى الفخارية السائدة فى حضارة المعادى . فى أعلى النوع الاسود المصقول وفى أسفل النوع الأحمر ذو القاعدة الحلقية

يميل لونها إلى البياض وهى مزودة فى كثير من الأحيان بمقابض أو مزدانة بزوائد تظهر على سطحها كالحبات البارزة . وهذه الأوانى فى مجموعها ليست من أصل مصرى بل أن بينها وبين الأوانى السورية وجوه شبه عديدة مما يدل على علاقة مصر بجيرانها فى الشرق فى الألف الرابعة قبل الميلاد .

والأوانى الكاملة المزدانة بالرسوم قليلة فى المعادى ولكن جمع منها شقف كثير دل على أن لحضارة المعادى فى هذه الصناعة أسلوب خاص يجعلها مستقلة عن الصناعة المماثلة فى جهات مصر الأخرى .

شكل (٨٧) يبين بعض الأوانى الترابية بحضارة المعادى

وقد وجد عدد من الأوانى ذات القمة السوداء التى تشبه فى شكلها أوانى حضارة العمرة إلا أنها تختلف عنها فى طريقة صنعها وكذلك وجد بعض الأوانى التوأمية الشبيهة بأوانى مرمدة بنى سلامة .

والأوانى الفخارية الكبيرة التى كانت تستخدم فى خزن المؤونة كثيرة العدد ويبلغ قطر الكثير منها أكثر من متر كما يبلغ ارتفاعه أكثر من متر كذلك . (انظر شكل ٨٨)

ولبعض أوانى المعادى أهمية تاريخية فالأوانى ذات المقابض المتموجة تربط هذه الحضارة بسوريا وأما الأوانى ذات الحافة السوداء فتربطها بالصعيد ، وكذلك الأوانى ذات الرسوم يقال أنها نشأت بالدلتا ثم نقلت صناعتها إلى الصعيد .

شكل (٨٨) آنيتان من أوانى الخزن بحضارة المعادى

الأوانى الحجرية :

كشف مخبأ عميق محفور فى الأرض ومغطى بالحجر الجيرى بداخله سبع أوانى من حجر البازلت الأسود فى حالة جيدة ، وهذه الأوانى فى مجموعها تمثل عدة أنواع

متبانية ، غير أن وجودها جنبا إلى جنب فى هذا المكان يجعلنا على يقين من أنها تنتمى لعصر واحد . ولم يسبق أن وجد فى مصر مجموعة نفيسة من الأوانى الحجرية مثل هذه المجموعة التى تعتبر أكبر مجموعة متناسقة من نوعها تنتمى لفجر التاريخ المصرى . وقد وجد مع هذه المجموعة وعاء من المرمر ثم ثلثان وعشرون خرزة كلها من العقيق الأحمر سوى واحدة صنعت من حجر أبيض اللون . وقد وجد أيضا وعاء عجيب الشكل من الحجر الجيرى مكسى من الداخل والخارج بمادة حمراء تجعل الناظر إليه نظرة عابرة يعتقد أنه مصنوع من الخزف . وفيما عدا المجموعة الحجرية السابقة وجد بالمعادى عدد كبير من الأوانى الحجرية المصنوعة من المرمر والجرانيت والبازلت والحجر الجيرى وبعض هذه الحجارة موجودة بمنطقة المعادى كالحجر الجيرى وبعضه مستورد من جهات مصر الأخرى كأبى زعبل والفيوم وإسوان وجبال البحر الأحمر . ويمكن القول عموما أن حضارة المعادى لا تمتاز بوفرة أوانيها الحجرية فحسب بل تمتاز باتقان صنعها حتى أن أوانيها المرمرية لا تقل فى درجة الاتقان وجمال المنظر عن الأوانى التى كشفت فى هرم زوسر المدرج بسقارة الذى يرجع للأسرة الفرعونية الثالثة . (انظر شكل ٨٩)

ومن الأدوات الأخرى المصنوعة من الحجر اللوحات المعدة لخلط الألوان من بينها اللوحات الأردوازية التى على شكل المعين ولوحات الحجر الجيرى ثم المدقات والمصاحن والمطاحن وأحجار المغازل ورءوس الدبابيس .

الأوانى الخشبية :

وجدت أطباق وجفان وملاعق من الخشب بعضها متوسط الحجم وبعضها صغير ، ويندر وجود مثل هذه الأوانى الخشبية فى الحضارات المصرية المعاصرة .

الأدوات الحجرية :

وجد من آلات الصوان آلاف القطع معظمها جميل وبخاصة المكاشط الكبيرة ذات السطح الرقيق والشكل البيضاوى . وصناعة الشظايا هى الغالبة

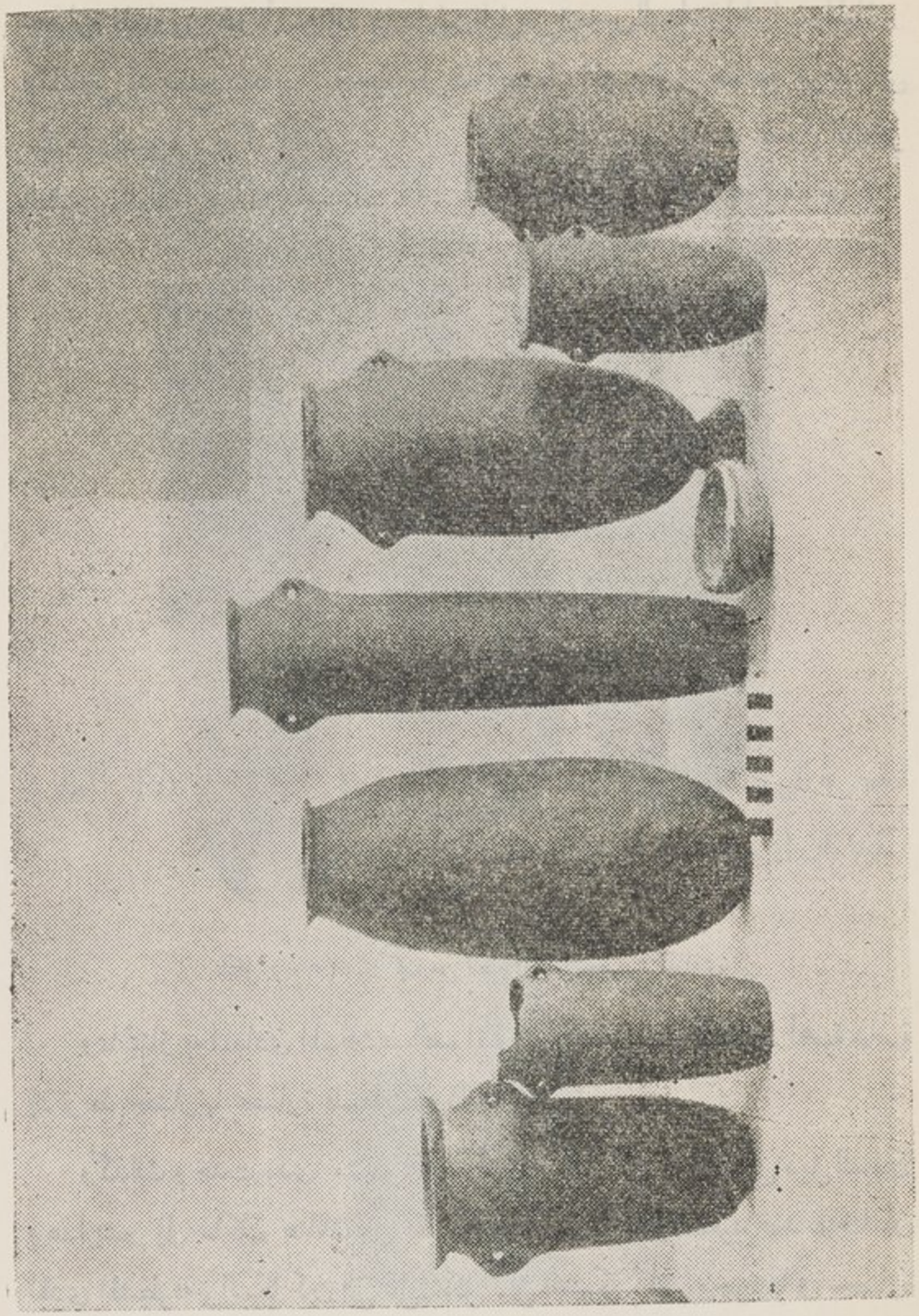

شكل (٨٩) أواني من البازلت و المرمر من حضارة المادى

بحضارة المعادى ، غير أن هناك عددا غير قليل من رءوس السهام والحراب والمناشير والمناجل قد صنع بشطف سطحية بطريقة الضغط المعروفة فى صناعة مرمدة بنى سلامة والفيوم . وكذلك توجد بعض الآلات والأسلحة المصنوعة من الصخر البللورى الطبيعى والكوارتز النقى والجرانيت . (انظر أشكال ٩٠و٩١و٩٢)

شكل (٩٠) سكاكين من الصوان من حضارة المعادى

ومما تمتاز به المعادى المكاشط الصوانية المروحية ولهذه المكاشط أهمية خاصة إذ تربط حضارتها بحضارة فلسطين فى ذلك العهد .

وكذلك وجدت مدى مشطوفة الوجهين وسكاكين على شكل ذيل السمكة وهذا يشير إلى ما كان هنالك من علاقة بين شرق الدلتا والصعيد فقد عرفنا أن المدى المشطوفة والسكاكين التى على شكل ذيل السمكة يكثر وجودها فى حضارة نقادة . وقد وجدت رءوس فؤوس من حجر أسود وهى نوع نادر فى الحضارات المصرية المعاصرة .

وقد وجدت كتل الصوان التى كانت تفصل منها الشظايا وكذلك وجدت المطارق

شكل (٩١) مكشطان من حضارة المعادى

الحجرية التى كانت تستخدم فى فصل الشظايا وتهذيبها وتشكيلها إلى الآلة المطلوبة سكينا كان أو مكشطا أو مثقابا أو غير ذلك .

شكل (٩٢) منشاران من المعادى

الأدوات العظمية :

وجدت آلات كثيرة مصنوعة من العظام ولا سيما المثاقب . (أنظر شكل ٩٣)

شكل (٩٣) مثقاب من العظم من حضارة المعادى

أدوات الزينة :

سبق أن ذكرنا أنه وجد فى مخزن الأوانى الحجرية إحدى وعشرون خرزة من العقيق الأحمر ثم خرزة واحدة من الحجر الأبيض . وقد وجد عدد آخر من حبات الخرز من حجر الكوارتز والحجر الجيرى والبللور الصخرى واللازوردى. وقد وجد داخل احدى القدور عقد كامل يتألف من أربع وخمسين حبة من الخرز كلها بيضاء ما عدا ثمانية حبات ذات لون أسود . هذا بخلاف أنواع مختلفة من الأصداف المثقوبة . كما وجد عدد من الامشاط المصنوعة من عظام الحيوانات ثم مقادير من المواد التى كانت تستخدم فى التلوين مثل المغرة الحمراء وكربونات النحاس الخضراء والمنجنيز الأسود .(أنظر شكل ٩٤)

الآثار الفنية :

وجدت قطعة من الصلصال المحروق يظن أنها تمثل رأس جمل ، كما وجدت قطعة أخرى تمثل رأس حيوان غير واضح الشكل . وكذلك وجدت بيضة نعام ازدان سطحها باشكال هندسية محفورة حفراً متقناً وملونة باللون الأسود . كما كشف رأس تمثال صغير من الفخار الأحمر ربما يمثل شخصا من سكان غرب آسيا

كما يتضح من شكل رأسه وذقنه . ووجد كذلك هيكل من الفخار لقارب يعطينا

شكل (٩٤) مشط مصنوع من قرن حيوان بحضارة المعادى

فكرة عن شكل القوارب التى كانت تسير فى قنوات الدلتا فى ذلك الوقت .

شكل (٩٥) رأس فأس من النحاس من حضارة المعادى

الأدوات المعدنية :

كان أهل المعادى يصنعون من النحاس الصنانير والمثاقب والأزاميل وقد وجدت

بالمنطقة كتل من النحاس هى دون شك عبارة عن سبائك جلبها القوم من مناطق تعدين النحاس فى شـــبه جزيرة سينا لصنع الآلات النحاسية المختلفة . وكذلك وجدت مقادير من معدن المنجانيز وهو مجلوب من شبه جزيرة سينا كذلك . كما وجد مقدار من القار (الأسفلت) الذى دل فحصه على أنه وارد من منطقة البحر الميت بفلسطين . وقد وجد رأسا فأس من النحاس يدلان على تمكن أهل المعادى من صناعة الآلات النحاسية .

الأدوات الخشبية :

كشفت بالمعادى مجموعة من الأدوات الخشبية من بينها قطع من هراوات مقوسة Boomerang كانت تستخدم للرماية ، ثم قطعتان دقيقتان من الخشب من شجر الأرز بدت علامات الاحتراق فى أحد طرفيها ، ثم عصا قصيرة حفرتها يد الصانع حفراً متقنا . كما وجد بعض المثاقب المصنوعة من الخشب .

الآثار الثـــابتة

المساكن:

يظهر أن المساكن كانت مركزة فى القسم الأوسط من القرية المستطيلة الشكل بينما كانت المخازن تمتد على جانبي القرية من الشمال والجنوب . وقد كشف عدد كبير منها دل على تعدد أشكالها . وكانت المساكن فى معظمها تبنى من قوائم من جذوع الأشجار تلف حولها الأغصان الرفيعة ثم تطلى بالطين . وكان باب المنزل يتجه عادة نحو الجنوب لوقاية السكان من الرياح الشمالية وهى الرياح السائدة فى مصر معظم العام .

وقد وجدت مساكن على شكل الكلمة الهيروغليفية « پر » ومعناها « مسكن » مما يدل على أن رسم هذه الكلمة منقول عن الشكل الغالب على المساكن المصرية فى عصر ما قبل الأسرات . (انظر شكل ٩٦) وقد قطعت معظم أخشاب المساكن من أسفلها بآلة حادة هى دون شك من معدن النحاس .

وقد وجد بالمعادى عدة كهوف مختلفة الأشكال والمساحة ولكن بها علامات تدل على أنها كانت تستخدم للسكنى . من هذه الكهوف كهف مستدير الشكل حفر فى الأرض إلى عمق كبير يزيد على مترين ونصف متر وله درج يؤدى إلى داخله . وقد وجد فى الكهف قدر كبير مثبت فى حفرة خاصة أعدت له فى أرض الكهف كما وجدت بقايا كثيرة لأوانى فخارية مختلفة الأنواع بعض أدوات من الحجر ثم عظام حيوانية وأصداف بحرية وقطع من قشر بيض النعام . وقد وجدت على امتداد جدران الكهف من الداخل حفر صغيرة على ابعاد متساوية بها بقايا خشبية بالية هى دون شك بقايا الأعمدة التى كان يقوم عليها سقف الكهف أو التى كان يشد

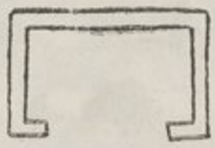

شكل (٩٦) كلمة بيت فى اللغة المصرية (پر)

حولها الحصير الذى يكسو جدرانه لكى يمنع انهيار الرمال إلى داخله . ومن هذه الكهوف كهف محفور فى الأرض على امتداد أفقى لمسافة بعيدة بحيث لايستطيع أن يدخله الانسان إلا زاحفا وقد وجد بداخله كذلك أوانى وأدوات منزلية . ومن بين هذه الكهوف أيضا كهف له أهمية خاصة يشبه سائر كهوف المنطقة فى مدخله الذى يتجه نحو الجنوب وفى الدرج المكسو بالأحجار المؤدى إلى داخله ولكنه يختلف عن سائر الكهوف فى شكله وفى طريقة صنعه فهو مستطيل الشكل ذو جدران رأسية كسيت من الداخل بقطع من الحجر الجيرى فى بعض أجزائها وبالطوب الأخضر الكبير الحجم فى البعض الآخر . وتأتى أهمية هذا الكهف من أنه يمثل فن البناء بالحجر والطوب الأخضر فى ذلك الوقت المبكر من فجر التاريخ المصرى . وقد وجد بداخل هذا الكهف قدر كبير من القدور المعدة للخزن ثم عدد من الحفرات التى كانت تقوم فيها أعمدة خشبية تحمل سقف الكهف

المواقد :

وجد عدد من المواقد المتقنة البنيان وبعض هذه المواقد صغيرة كان للأغراض المنزلية العادية وبعضها كبير كان لصنع الآنية الفخارية . والموقد فى المعادى كان عبارة عن عدد من الحجارة متراصة بجوار بعضها بحيث تحصر بينها الوقود . ومازال

شكل (٩٧) يبين أحد المواقد بالمعادى

عدد كبير من هذه المواقد قائما كما تركه أهله . ومن المواقد ما يوجد أمام المنزل وهو الموقد الرئيسى لهذا المنزل ، كما أن من المواقد ما يوجد داخل المنزل نفسه وهى مواقد صغيرة للأغراض الثانوية .

المخازن :

كان سكان المعادى الأقدمون يخزنون مؤونتهم فى حفرات يزيد عمقها على متر فى كثير من الأحيان ويتراوح قطرها بين متر ومترين . كما كانوا يستخدمون القدور

الفخارية الكبيرة والسلال لهذا الغرض . وربما كان لبعض المخازن المحفورة فى الأرض سقف يقوم على قوائم من الخشب وسياج يحيط بالحفرة كما دلت على ذلك بقايا الأخشاب البالية فى حفرات الخزن وحولها .

الحياة الاقتصادية :

فيما يختص بالصناعة عرف أهل المعادى الغزل والنساجة فقاموا بتحويل الألياف المختلفة إلى خيوط . وقد وجد عدد كبير من أحجار المغازل التى مازال بعضها محتفظا بالعصى فى داخل ثقوبها . كما حذق القوم النساجة إذ وجدت بقايا منسوجاتهم كما وجدت قطع من اللبن وعدد من الحفرات مستطيلة الشكل يغلب على الظن أنها كانت تستخدم فى وضع الأنوال الرأسية المستعملة فى النساجة .

وتدل كثرة الآنية الفخارية وتعدد أحجامها وأشكالها ثم اتقان صنعها على أنها لم تكن صناعة منزلية بل كانت صناعة عامة يقوم بها عمال اخصائيون ، وقد ترتب على ذلك وجود فئة من القوم تعيش فى مستوى اقتصادى أعلا من مستوى الزراع والرعاة .

وفيما يختص بالتجارة وجدت بالمنطقة مواد غريبة عنها مستوردة من جهات بعيدة مصرية وغير مصرية مما يرجح أن العلاقات التجارية كانت منتظمة بين مدينة المعادى القديمة وبين الجهات المحيطة به . فقد جلبوا الصمغ من الجنوب والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سيناء كما جلبوا البازلت والصوان من أبى زعبل والفيوم وأبى رواش واستوردوا الجرانيت وسائر الأحجار النارية من أسوان وجبال البحر الأحمر . واستوردوا الأسفلت من منطقة البحر الميت بفلسطين لاستخدامه فى طلاء السفن وغير ذلك من الأغراض واستوردوا صمغ الصنوبر من سوريا لاستخراج زيت التربنتينا .

وتؤكد بعض آثار المعادى هذه العلاقات الخارجية فبعض اللوحات الصوانية التى تمتاز بها المعادى توجد فى تل الغسول بالقرب من البحر الميت ، كما أن بعض الأوانى الفخارية التى كشفت بالمعادى من أصل سورى وربما أستوردت مملوءة

بالزيوت أو غير ذلك من المواد بدليل الغطاء الطينى الذى مازال يحيط بقمة بعض هذه الأوانى .

المقابر :

كانوا يدفنون الأجنة داخل المساكن أما فى قدور أو فى حفر غير عميقة . ومازال دفن الأجنة فى المساكن متبعاً فى القرى المصرية حتى الوقت الحاضر . وأما مقابر القوم فكانت فى جبانة خاصة بعيدة عن مساكن الأحياء وتقع على ابتداء القرية من الجنوب فى أرض منخفضة تقع عند سفح التل الذى كانت تقوم عليه هذه القرية .

ويستنتج الأستاذ مصطفى عامر من وجود الجبانة فى تلك البقعة المنخفضة أن تغيراً جغرافيا كبيرا طرأ على المنطقة منذ عصر ماقبل الأسرات وأن مستوى وادى دجلة فى ذلك العصر كان أكثر إنخفاضا مما هو الآن بحيث لم تكن مياه السيول — التى كثيراً ماتتدفق فى الوادى فى فصلى الشتاء والربيع — تصل إلى المستوى الذى تقوم عليه الجبانة فى الوقت الحالى .

وتدل كثرة مافى مدينة الموتى (الجبانة) من مقابر على كثرة عدد السكان فى هذه المنطقة فى عصر ماقبل الأسرات ، وهذا يتفق مع مساحة مدينة الأحياء ووفرة آثارها التى ذكرناها فيما سبق والتى تشمل المساكن والمخازن والمراقد والأدوات والأوانى المختلفة .

والمعلومات التى لدينا فى الوقت الحاضر تدل على أن سكان المعادى فى ذلك العصر لم يعنوا بمقابرهم . فجميع المقابر بلا استثناء عبارة عن حفرة بسيطة يتراوح عمقها بين ٢٠ سم و٩٠ سم حسب سن الشخص ودرجة نموه . وكان يدفن الميت فى هذه الحفرة البسيطة ثم يهال عليه التراب . وقد وجدت الهياكل فى المقابر التى كشفت فى وضع منثنى وهو الوضع المألوف فى مقابر ذلك العصر فى جميع جهات مصر . ويستثنى من ذلك حالات قليلة وجدت فيه الهياكل ممدودة .

وليس هناك اتجاه ثابت للرأس وإن كان رأس الأكثرية يتجه نحو الجنوب كما أنه ليس هناك اتجاه ثابت للوجه فهو يتجه أحيانا نحو الشرق وأحيانا نحو الغرب وفى بعض الحالات يتجه نحو الجنوب أو نحو الشمال ولم توجد فى أكثر المقابر شىء غير الهياكل العظمية اللهم ألا بقايا من الحصير وجلود الحيوانات والنساجة كانت تغطى بها الجثث ، وقد وجد فى حوالى ثلث عددا لمقابر التى كشفت إناء واحد من الفخار مع كل هيكل ، وهذا الإناء من النوع الموجود بمنطقة السكنى مما لا يدع مجالا للشك فى أن هذه الجبانة تضم رفات أصحاب حضارة المعادى فى عصر ما قبل الأسرات

وقد لوحظ أن نسبة الوفيات فى الأطفال كبيرة فقد بلغ عدد مقابرهم ثلث المقابر التى كشفت . ويظهر أن كل عائلة كانت تدفن موتاها فى مكان خاص بدليل وجود مقابر الصغار بالقرب من هياكل الكبار .

ومما هو جدير بالذكر أنه وجد فى هذه الجبانة مقبرة الحيوان يشبه الكلب أو ابن أوى دفن بعناية تامة فى وضع منثنى كذلك وجبانة المعادى فى هذا التقليد شبيهة بجبانة نقادة إذا كانت الكلاب تدفن بعناية فى جبانة البشر . وهذا من الطقوس الدينية التى تحتمل عدة تفسيرات ، فربما كان المقصود بدفن الكلب فى الجبانة حراسة صاحبه فى الحياة الأخرى . وربما كان هذا بدأ عبادة أله المقابر الذى صور فى العصر التاريخى فى شكل ابن آوى . فقد عرف هذا الحيوان بنبش المقابر ولذلك عبده المصريون اتقاء لشره حتى لا ينبش قبورهم بعد موتهم .

ولمقابر المعادى دلاله دينية واجتماعية ، فأما الدينية فهى تدل على اعتقاد أهل هذه الحضارة فى الحياة الآخرة بدليل وضع قدر من الفخار مع الميت لكى يتزود بما فيه من طعام وشراب فى حياته الأخرى ، وأما الاجتماعية فأن المقابر التى كشفت حتى الآن تدل على أن الناس كانوا سواسية لا فرق بين عظيم وحقير إذ لم تكشف مقبرة تتميز بالغنى المادى عن سائر المقابر . وتدل هذه الجبانة على رقى أهل هذه الجبانة على رقى أهل هذه الحضارة فى أفكارهم بالنسبة لأهل حضارتى مرمدة بنى سلامة وحلوان الثانية الذين كانوا يدفنون الموتى بداخل المساكن . وأما أهل المعادى فقد فضلوا مدينة الأحياء عن مدينة الموتى .

الحياة الروحية :

وجدت قطع من عظم حيوان ضخم — ربما كان فرس الماء — موضوعة فى شكل رأسى ومثبتة فى الأرض بقطع من الحجارة ، ويغلب على الظن أنها وضعت بهذا الشكل لغرض دينى أو سحرى أذ تكرر وجود مثل هذه القطع فى أكثر من موضع كما وجد ما يشبهها فى مرمدة بنى سلامة بغرب الدلتا .

وكذلك وجد قدر من الفخار أسود اللون عظيم الحجم يزدان سطحه برسم تمساح محفور على أحد جوانبه ، ولعل هذا يدل على أن عبادة التمساح التى ظهرت بشكل واضح فى العصر الفرعونى قد ظهرت فى هذا الوقت المبكر فى المعادى ، ومن الجائز أن هذا التمساح عبارة عن شارة طوطمية تدل على القبيلة التى كانت تسكن المنطقة .

وقد وجد أحد الأجنة مدفونا فى آنية فخارية ذات ثقبين كالعينين لكى تبقى روح الميت متصلة بالعالم المادى فى الخارج وهذا أول مثل نعرفه من فجر التاريخ للعقيدة التى شاعت فى العصر التاريخى .

الحياة الإجتماعية :

تدل مدينة الأحياء بالمعادى على أنه كانت توجد بين الجماعات التى سكنت هذه المنطقة فى عصر ما قبل الأسرات نوع من الإشتراكية تتمثل فى تشييد المواقد الكبيرة وحفر المخازن الواسعة العميقة قرب الأطراف الشمالية للبلدة . فقد كانت المؤونة إذا ملكا مشاعا لأفراد الأسرة جميعا وكان طهى الطعام يتم فى مواقد كبيرة تكفى أعداداً كبيرة من الناس . وقد وجدت أدلة على مثل هذه الحياة المشتركة فى الفيوم . وكذلك لوحظ بالمعادى أن هناك نوعا من الأسوار المصنوعة من النباتات المختلفة تحيط بمجموعات خاصة من المساكن ربما كانت تسكنها جماعات يتصل بعضها ببعض بصلات القرابة أو النسب . وما زالت هذه الحياة المشتركة موجودة عند الأسر الكبيرة بالقرى المصرية حتى الوقت الحاضر .

وهكذا نرى أنفسنا أمام حضارة مصرية جديدة نشأت نشأة مستقلة عن الحضارات الأخرى التى عرفناها فيما سلف من فصول . ولكنها اتصلت بالحضارات المعاصرة فى الشرق والجنوب فأثرت فيها وتأثرت بها . فأما صلتها بالجنوب فتتضح من بعض صناعاتها الصوانية كالسكاكين التى على شكل ذيل السمكة وكالأسلحة المختلفة المصنوعة بطريقة الضغط كما تتضح من بعض أوانيها البازلتية والفخارية ومن بعض مظاهرها الروحية كدفن الكلب داخل جبانة البشر . وعلى العموم يمكن أن نجمع من المعادى أدلة عديدة على أنها كانت باكورة لحضارة نقادة الثانية . وأما صلتها بالشرق فتتضح من معادنها كالنحاس والمنجنيز والأسفلت ومن أوانيها الفخارية ذات الأشكال الغريبة ومن بعض آلاتها الصوانية ، فهذه المظاهر كلها تربط المعادى بشبه جزيرة سينا وسوريا وفلسطين وتمكن من القول بأن المعادى كانت القنطرة التى عبرت عليها بعض مظاهر الحضارة الأسيوية إلى الصعيد كما سبق أن ذكرنا عند الكلام على حضارة نقادة الثانية .

ويدل اتساع المدينة وسمك الطبقات ووفرة الآثار على أن المعادى فى عصر ما قبل الأسرات لم تكن قرية صغيرة بل كانت مدينة كبيرة يرى بعض الأثريين أنها كانت عاصمة مصر كلها حينما تم اتحادها لأول مرة فى عصر ما قبل الأسرات . ولاشك أن موقعها الجغرافى ساعدها على أن تتبوأ هذه المكانة كما ساعد منف فيما بعد . والشبه كبير بين موقع المعادى ومنف ، فكلاهما يقع عند نهاية الوادى وبدأ الدلتا . ولكن موقع المعادى أفضل لأنه يمكن عن طريقها الاتصال بكثير من المراكز الحضارية فى الشرق .

ولقد أحسن أهل المعادى القدماء اختيار موقع مدينتهم فقد أقاموها على ربوة عالية مستطيلة الشكل تمتد من الأرض الزراعية وشاطىء النيل فى الغرب إلى داخل الصحراء فى الشرق وتحدها الوديان الصحراوية من الشمال والجنوب . وبذلك يسهل اتصالها بموارد الماء كما تسهل حمايتها من المغير حيوانا كان أو انسانا .

ولم تكن حضارة المعادى محلية بل كانت واسعة الانتشار فقد أمكن تتبع

آثارها شمالا لمسافة طويلة كما أمكن تتبع آثارها جنوبا لمسافة طويلة كذلك . ولقد عثرت مصلحة الآثار المصرية فى سنة ١٩٣٥ فى منطقة الصف الواقعة جنوب المعادى بحوالى ٣٠ كيلو مترا على مقابر ترجع لفجر التاريخ تضم أوانى فخارية تشبه تمام الشبه بعض الأنواع المعروفة فى المعادى . ومن الهائز أن زيادة البحث فى الطريق بين المعادى ونقادة تؤدى الى كشف عدة مراكز أثرية تربط بين هذين المركزين الحضاريين ربطا جغرافيا .

وتدل وفرة آثار هذه الحضارة وتنوعها على أن المدينة كانت عامرة بالسكان وعلى أن التخصص المهنى كان موجوداً فهناك طائفة الزراع التى تقوم بزراعة الحبوب المختلفة والنباتات ذات الألياف ثم بتربية الحيوان كالماشية والأغنام والماعز والخنازير والكلاب والحمير كما كانوا يعتمدون فى جزء من غذائهم على صيد البر والبحر وهناك طائفة الصناع التى توفرت على انتاج آلاف الأوانى الفخارية والقطع الصوانية . ثم هناك طائفة التجار التى كان أفرادها ينتقلون بين المعادى ومراكز الحضارة فى الجنوب والشرق مبادلين بضاعة المعادى بغيرها ، فكانوا رسل الثقافة التى وحدت بين آراء الناس وأفكارهم مما ساعد فى مبدأ الأمر على توحيد البلاد تحت حكم ملك واحد ثم على تكوين الامبراطورية المصرية فى الشرق فيما بعد .

ويلاحظ على حضارة المعادى قلة الآثار الفنية فالفخار الملون قليل والتماثيل نادرة ، على أنه يلاحظ فى الحضارات الأخرى أن أهم الآثار الفنية وجدت فى المقابر ، وعلى هذا من الجائز أن تجود المعادى بثروة فنية كبيرة متى تم كشف جميع مقابرها .

وأما جنس أصحاب هذه الحضارة فيظهر أنه لا يختلف عن الجنس السائد فى مصر فى ذلك الوقت . فالهياكل البشرية المكتشفة بالمعادى شبيهة بما كشف فى مرمدة بنى سلامة وحلوان ونقادة وهذا دليل على أن الحضارات المصرية — على تعدد مراكزها واختلاف ظروفها المكانية والزمنية — نتاج هذا الجنس المتحد شكلا وثقافة . وأما ما يظهر من أنه اختلاف بين المراكز الحضارية المصرية المختلفة فما هو ألا نتيجة التطور الذى تمليه ظروف الزمان والمكان .

الفصل التاسع

اتحاد شطرى البلاد وقيام الحكم الملكى

قسمت الطبيعة القطر المصرى إلى وادى ودلتا ، فأما الوادى فهو شريط طويل وسط هضبتين صخريتين تحفانه من الشرق والغرب ، طوله حوالى ٩٠٠ كم وعرضه يتراوح بين عشرة كيلو مترات وعشرين كيلو مترا ، ولكنه فى بعض الأحيان يضيق حتى يصبح فى عرض المجرى المائى فقط . هذه هى الأرض الجنوبية أو « تا شمع » كما سماها قدماء المصريين . ثم شمال منفيس يتغير منظر الأقليم إذ يتحول مجرى النهر إلى دلتا كبيرة طولها أكثر من مائة كيلومتر وعرضها حوالى ٧٠٠ كيلومتر وكان النهر يتفرع خلال هذه الدلتا إلى فروع عديدة . وتأخذ التلال القائمة على جوانب الوادى فى الصحراء الشرقية والصحراء الليبية فى الانخفاض شيئا فشيئا حتى تتلاشى ولا يصبح لها وجود على جوانب الدلتا ، وأصبحنا لا نرى هنا واديا ضيقا تحفه التلال كما هو الحال فى مصر العليا وأنما نرى بساطا من الخضرة لا تدرك العين أطرافه تخترقه القنوات وتتخلله البحيرات والمستنقعات . هذه هى الأرض الشمالية « تامح » كما سماها قدماء المصريين . والفرق واضح بين الأرضين ، فالأرض الشمالية بعيدة عن حرارة الصحراوات الأفريقية وعزلتها وقريبة من البحر الأبيض المتوسط تهب عليها الرياح الشمالية من البحر فتجعلها ألطف مناخا من الأرض الجنوبية . ثم من الناحية البشرية نجد الأرض الشمالية قريبة الاتصال بآسيا عن طريق برزخ السويس وبأوروبا عن طريق البحر الابيض المتوسط .

فالطبيعة إذاً قد أوجدت مصرين ، مصر الأفريقية فى الجنوب ومصر البحر الأبيض فى الشمال . وقد أدرك قدماء المصريين هذا الفرق منذ القدم فأطلقوا على البلاد إسم « تاوى » أى الأرضين . ولكنهم أدركوا فى الوقت نفسه استحالة

استقلال أحدهما عن الآخر ، فالوادى الضيق الطويل يرتبط بالدلتا الواسعة العريضة بواسطة الشريان الذى نسميه نهر النيل ولذلك تشابهت الحياة البشرية والاقتصادية فى كل من الأرضين منذ أقدم العصور .

ولنتبع الخطوات التى تمت لتوحيد البلاد لا بد من معرفة النواحى الطبيعية والجنسية والدينية التى كانت فيها البلاد قبيل قيام الأسرات .

الناحية الطبيعية : تحمى الطبيعة مصر من كل الجوانب فمن الشمال يحدها ويحميها البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء ، ومن الشرق والغرب الصحراوات ، فهى بلاد مقفولة من كل الجوانب ماعدا بعض فتحات. وهذا يساعدها على مقاومة الغزوات الخارجية وعلى إيجاد نوع من الهدوء والطمأنينة فى نفوس السكان والحكام . فأذا ما استطاعت غزوة أن تدخل مصر فإنها لاتلبث أن تندمج فى أهلها داخل هذا الأقليم المقفول .

ولقد شق النيل طريقه خلال هذه الصحراء التى تشغل كل شمال أفريقية ماعدا الشريط الساحلى وكون له فيها سهلا رسوبيا غنيا يضيق تارة ويتسع تارة أخرى . وهـذا السهل الرسوبى الذى كونه النيل هـــو حياة مصر ، وقد عبر المؤرخ هيرودوت عن هذه الحقيقة أصدق تعبير بقوله « إن مصر هبة النيل » فوجودها مستمد من النيل لأن التربة المصرية الخصبة مكونة من الطمى الذى جلبه النيل من الحبشة بواسطة رافديه العطبرة والنيل والأزرق وأرسبه فوق الصخور الأصلية . كما أن ماءها الذى يحيي الأرض وينبت النبات مستمد من النيل وحده لأن مصر بلد عديم الأمطار . ثم أنها تعتمد فى جميع مواردها الاقتصادية على التفاعل الذى يحدث بين ماء النيل وطميه . ولقد أدرك المصريون منذ القدم أهمية هذا النهر وعظمته فألهوه وعبدوه فى شكل إنسان وأطلقوا عليه اسم «حابى» كما سموه «أترعا» أى المجرى العظيم [1] . وكذلك كان للطمى الأسود أبلغ الأثر فى نفوس المصريين

(١) أما كلمة نيل فمشتقة من الكلمة اليونانية نيلوس .

فسموا بلادهم « تاركمت » أى الأرض السوداء [١] .

ولم يقتصر فضل النيل على مصر على رى شريط الأرض المحيط بمجراه وانما أحى بعض الأراضى النائية مثل تلك المنخفضات المنتشره فى الصحراء الغربية حيث تسرب جزء من ماء النيل إلى الباطن فوصل إلى عمق حوالى مائتى متر ثم ظهر فى الوديان المنخفضة مثل بحر يوسف الذى كان يجرى من اقليم طيبة إلى الفيوم كما ظهر فى سائر المنخفضات الأخرى التى نسميها الواحات مثل الخارجة والداخلة وسيوة والفرافرة والبحرية وكلها تقع فى صف واحد تقريباً على بعد يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ كم من وادى النيل . ولقد ظهر الماء فى هذه المنخفضات على شكل ينابيع وآبار فمكن من زراعة آلاف الأفدنة وساعد على سكنى هذه الجهات بعدد كبير من السكان [٢] .

ومن فضائل هذا النهر أيضاً أنه واسطة اتصال بين اجزاء القطر المصرى ، فالملاحة فيه داخل الحدود المصرية سهلة مريحة سواء أكان السفر نحو الشمال أو نحو الجنوب . فالمصريون حينما يسافرون نحو الشمال يساعدهم تيار النهر ثم هم حين يسافرون نحو الجنوب — أى ضد التيار — تساعدهم الرياح الشمالية السائدة فى القطر معظم العام .

وفى أوائل يونية من كل عام يبدأ نهر النيل فى الارتفاع حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض على جوانبه . فالنيل الأبيض يرسل كمية كبيرة من الماء تسير بهدوء فى هذا المجرى العظيم البالغ طوله سبعة آلاف كيلو متر وتمر بالخرطوم حوالى أوائل أبريل وتصل الحدود المصرية عند الشلال الأول فى أوائل يونية ، وهذا

---

(١) أما كلمة أيجبت فقد وردت لأول مرة فى كتابات الشاعر اليونانى هومر وربما كانت مشتقة من الكلمة المصرية جبط وهو اسم مدينة قفط التى تقع على النيل عند رأس طريق القوافل الموصل بين النيل والبحر الأحمر وسماها اليونان كوبتوس

(٢) هناك رأى بأن مياه هذه الواحات منشأها الأمطار التى تسقط فى أواسط السودان وتتسرب ألى باطن التربة خلال الحجر الرملى ثم تنحدر نحو الشمال خلال باطن التربة المسامية حيث تظهر فى هذه المنخفضات المسماه بالواحات على شكل آبار وينابيع .

ما يسمى بالموجة الخضراء لأنها تأتى من منطقة المستنقعات الاستوائية . ثم فى أوائل يولية أى بعد وصول الموجة الخضراء بشهر واحد تصل الموجة الحمراء لأنها تحمل الطمى المفتت من تربة الحبشة البركانية ، حتى أذا جاء شهر أغسطس فاض النهر على جوانبه وغطى الأرض المشققة — التى جففتها شمس الصيف الحامية — بالماء الذى سماه قدماء المصريين ماء الحياة . ويستمر هذا الفيضان حوالى مائة يوم يغطى فيها كل الأقليم حتى يصبح كالبحيرة وتصبح المدن فى وسطه كأنها جزر . ثم فى أواخر شهر اكتوبر يأخذ النهر فى الأنخفاض حتى يصل فى أواخر شهر نوفمبر ألى مجراه الطبيعى . ومعنى هذا أن النيل يغطى الأرض أربعة شهور فى العام ثم يتركها غنية خصبة ثمانية شهور أخرى ويبدأ الفلاحون فى بذر البذور فيجنون أول محصول حوالى منتصف فبراير ثم يبذر المحصول الثانى ويجنى قبل مجىء الفيضان مباشرة . وفى بعض أجزاء الدلتا التى لا يغمرها الفيضان كان يزرع محصول ثالث . فنحن أذاً أمام بلاد غنية لا تعرف الجوع تزرع محصولين فى الصعيد وثلاثة محاصيل فى الوجه البحرى .

ولقد كان لهذا الفيضان أبلغ الأثر فى تاريخ قدماء المصريين وديانتهم كما تشهد بذلك النصوص المدونة على معابدهم وأهراماتهم .

فعلى إحدى أهرامات الأسرة السادسة نجد النص الآتى « يرتعد أولئك الذين يرون حاپى يضرب الارض بأمواجـــه ولـكن المراعى تبتسم والشواطىء تزدهر » ونص آخر يقول « مرحى ياحاپى . أنت يامن ظهرت على الأرض لـكى تعطى الحياة إلى مصر . أنت يامن تأتى مستخفيا فى الظلام لـكى تعطى الحياة لـكل ظمآن . . . إذا ما أتيت يكون جب (إله الأرض) فى شوق ألى الخبز فيقدم نپرى (اله القمح) عطاياه . ويأمر پتاح (اله منف) المصانع بالنشاط » ثم يضيف هذا النص « أن النيل لو قبض يده لأصبحت الملايين فى بؤس وشقاء ولمات الناس والآلهة ولجنت الحيوانات ولأصبح كل من على الأرض فى حزن شديد ولـكنه إذا أتى لهم فى صورة خنم (أله الخلق) لصاحت الأرض فرحا ولامتلأت البطون سرورا ولا هتزت الظهور ضحكا ولنشطت الأسنان حركة . . . »

غير أن فيضان النيل لم يكن مريحا فى كل الأحيان ، فحينا يكون شديد الارتفاع وحينا آخر يكون شديد الانخفاض . فأذا جاء مرتفعا جرف كل مايلقاه فى سبيله من حيوانات ومساكن وفى ذلك يقول أحد الفراعنة (أصبح الوادى كله كانه بحر وغطت الأمواج المعابد وأصبح الناس كأنهم الدجاج المائى ، وأما إذا جاء الفيضان منخفضا فأنه يكون مصيبة على البلاد وفى ذلك يقول الملك جوسر صاحب الهرم المدرج فى صقارة « أنى حزين جداً لأن النهر لم يفض على جوانبه فى عهدى مدة سبع سنين فندر القمح وجفت الحقول وانعدمت موارد الغذاء » .

هذه الظروف كلها — رخاء كانت أو شدة — كان لها أثر عظيم فى التاريخ المصرى يتلخص فى النقط الآتية :

أولا : لاحظ المصرى أن النيل يبدأ فى الارتفاع فى تاريخ ثابت فكان هذا من العوامل التى ساعدته على اختراع التقويم ومعرفة بدأ السنة ونهايتها وتقسيمها إلى فصول ثلاثة هى الفيضان والانبات والحصاد .

ثانيا : هذا الفيضان السنوى هو عبارة عن رى طبيعى نظمته الطبيعة لرى الارض، وبعد انحسار الماء تنمو النباتات البريه من تلقاء نفسها وبالطبع لفتت هذه العمليه نظر إنسان العصر الحجرى فى مصر . فهذا الانسان رأى الارض قبل الفيضان مينة لا نبات فيها فأذا مارواها الفيضان انتعشت وأخرجت النبات، فربما هداه التفكير فى هذه الحالة ألى اختراع الزراعة .

ثالثا : هذا الفيضان السنوى كان يتطلب جهوداً مشتركة لضبطه ودفع غوائله وقد حتم هذا على السكان الموجودين على جوانبه التشاور والتعاون لدفع أخطار الفيضانات المرتفعة والمنخفضة على حد سواء ، وبالطبع أدى هذا إلى تنظيم الجماعة المصرية .وقدهداهم التفكير فى شئون الفيضان إلى إقامة مقاييس للنيل فى جهات معينة مثل الفنتين وممفيس ، وكلف بمراقبتها أشخاص يقرءون المقاييس ويرسلون الرسل إلى المدن المختلفة ليبلغوها مقدار ارتفاع النيل أو مقدار انخفاضه مقدراً بالأذرع والقراريط . وتعددت المقاييس فى جهات القطر المختلفة لان كل جهة تتطلب

ارتفاعا معينا من الماء . فى الفنتين يكون الفيضان مناسبا أذا بلغ ارتفاع الماء ٢٨ ذراعا (الذراع حوالى نصف متر) وفى ادفو يكون الفيضان المناسب ٢٤ ذراعا وفى ممفيس ١٦ ذراعا وفى مندس وخويس ٦ أذرع فقط أى أن مقدار الزيادة المطلوبة يكون أقل كلما انحدرنا شمالا نحو البحر .

شكل (٩٨) شارة القسم الخامس عشر فوق العلامة الدالة على القسم الادارى

رابعا : كان على المصريين أن يحتموا من الفيضان ببناء مدنهم وقراهم فى الاماكن المرتفعة وباقامة السدود حول المدن والحقول لكى تحميها من التيارات السريعة ولكى تستعمل فى نفس الوقت كممرات بين المدن المختلفة . أى أن البلاد انقسمت مضطرة إلى أحواض تفصلها سدود وتوصل بينها قنوات تسير موازية للنهر من الجنوب للشمال لكى تحمل المياه من حوض آخر . وهذا التقسيم إلى أحواض هو أساس التقسيم إلى أقسام إدارية بدليل أن كلمة قسم إدارى عند المصريين رسمت كما فى شكل ٩٨ وأما كلمة مدينة فكانت تكتب كما فى شكل ٩٩ وهى عبارة عن مكان يحيط به اسوار .

شكل (٩٩) كلمة مدينة فى اللغة المصرية (نيثوت)

خامسا : كان الفيضان يغمر الوادى كله تقريبا من الهضبة الشرقية إلى الهضبة الغربية مدة أربعه شهور أى حوالى ⅓ السنة يصبح الناس فى هذا الوقت لا عمل لهم

بالمرة وهذا يفسر تسخير الملوك لهم فى بناء الاهرامات والمعابد المختلفة فى هذه الفترة بدون الاضرار بالصالح الاقتصادى للبلاد .

ومن هذا نرى أن نهر النيل علم المصريين دروسا كثيرة فعلمهم اختراع التقويم والزراعه ، وإذا كان قد أرغمهم على تقسيم الوادى إلى أحواض تفصلها سدود فقد أرغمهم على تعاون سكان كل حوض مع الحوض الواقع فى جنوبه والواقع فى شماله لأن مياه النيل تتصرف من الجنوب للشمال من حوض إلى آخر بواسطة قنوات تخترق السدود . وأخيراً أدرك المصريون أنه يستحيل عليهم تنظيم النيل الذى هو أساس حياتهم ألا إذا أعطوا قيادتهم إلى ملك يشرف على هذه الأقسام المختلفة ويكون واسطة الاتصال بينها ويمنع اعتداء الاقسام على بعضها وبذلك وجد النظام الملكى .

الناحية الجنسية : وفيما يختص بالناحية الجنسية فى فترة تكون الأسرات الملكية الفرعونية نجد أن سكان مصر فى هذه الفترة كانت قامتهم متوسطة (طول القامة ٥ قدم، ٥ بوصة) وشعرهم مستقيم أو مجعد ولونه أسمر أو بنى غامق، وشكل الرأس مستطيل ضيق بارز القذال ، والوجه مستطيل متناسب مع الرأس والجبهة ضيقة والأنف عريضة ولكنها أقل عرضا من أنف الزنجى والذقن مدببة ، وعظام الحاجبين ليست بارزة والفك غير بارز وحجم الأسنان متوسط . ويظهر أن هذا هو عنصر الحاميين الذى يدخل فى التركيب الجنسى للمصريين ويسميه اليت سميث بالجنس الأسمر .

ولقد وجد مع مجموعات الجماجم التى ترجع إلى هذه الفترة جماجم ليست صغيرة الانف ولا عريضته وإنما هى ذات أنف طويل ضيق بارز مما يدل على وجود عنصر الساميين أيضا فى هذه الفترة .

ثم فى بدأ الأسرات الملكية الفرعونية أى بعد الأسرة الثانية ظهر عنصر غريب يختلف فى مميزاته الجنسية عن الجنس الأسمر الذى وصفناه . فهذا العنصر الجديد عريض الرأس ليس عنده بروز فى القذال . عريض الوجه والجبهة ، أنفه

أطول من أنف الجنس الأسمر وأضيق منها والفك الأسفل أضخم . والذقن عريضة و حجم الجسم أكبر والعضلات قوية ، ولكن قامته لا تختلف عن قامة الجنس الأسمر . يسمى اليت سميث هذا الجنس بجنس الجيزة إشارة إلى الجهة التى وجد فيها وهى منطقة الجيزة وممفيس ويسميه البعض الأرمنى أشارة إلى الجهة المفروض أنه أتى منها وهى غرب آسيا بالقرب من بحر قزوين .

وظهر فى غرب الدلتا عنصر ليبى أشقر أزرق العين ظهرت آثاره فى بعض مقابر العصر الفرعونى .

وإذاً سكان مصر القدماء لا يرجعون ألى جنس واحد، فمنذ أقدم العصور يمكن التميز بين ثلاثة عناصر على الأقل ،ولكن هذه العناصر اتحدت منذ أقدم العصور أيضا وكونت أمة واحدة قبل بدأ الاسرات الملكية الفرعونية . ولقد عرفنا أنه فى العصر الحجرى القديم كان سكان مصر يعيشون بعيداً عن وادى النيل على حافة الصحراء، وتدل مخلفاتهم على أنهم كانوا صيادين، ثم فى العصر الحجرى الحديث نراهم يقتربون من الوادى شيئا فشيئا حيث يصبحون زراعا مستقرين يستأنسون الحيوان ويرتبطون بالتربة المصرية فى غذائهم ولباسهم ومصنوعاتهم .

وليس لدينا آثار مكتوبة عن هذا العصر ولكن آثارهم الأخرى ناطقة بانهم كانوا فى هذه الفترة قوما منظمين عرفوا سكنى المدن وكان لكل مدينة شعارها الخاص كالصقر والتمساح والفيل وقرص الشمس . . ألخ ولقد بقيت هذه الاسماء فى عهد الاسرات . وربما منشأ هذه الاسماء انقسام الجماعة المصرية إلى عشائر لكل عشيرة طوطمها الخاص ثم أصبحت هذه الطواطم آلهة . ثم استقرت كل عشيرة فى بقعة معينة من الارض وارتبطت بها ومن هنا نشأت المدن المختلفة . التى أصبحت حواضر الأقسام الادارية فيما بعد وأصبح معبود العاصمة شعاراً للمديرية كلها (أنظر الأشكال ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢) .

وأما الناحية الدينية قبيل قيام الاسرات الفرعونية فقد فكر قدماء المصريين فى الكون وما يحيط بهم من ظواهر طبيعية فخرجوا من هذا التفكير بنوع من

العبادات تطورت على مر العصور حتى أصبحت من عوامل تأسيس الحكم الملكى فى مصر المتحدة . وقد ظهر الاختلاف هنا أيضا بين الدلتا والصعيد .

أما فى الدلتا فقد نظر سكانها إلى السماء فرءوا طائراً شجاعا يطوف المملكة

شكل (١٠٠) يبين الغزال معبود القسم السادس عشر

السماوية ويتصل بالأرض فى بعض الأحيان فأعجبوا به وعبدوه . هذا الطائر هو

شكل (١٠١) يبين الثور الأسود (القسم العاشر)

الصقر . وعبادة الصقر ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات حيث وجدناه مقدسا عند

شكل (١٠٢) يبين الطائر أبيس معبود القسم الخامس عشر

كثير من العشائر ولما اخترعت الكتابة أصبح رسم الصقر مخصصا لكلمة ألله فتكتب كما فى شكل ١٠٣ وسموا الصقر المعبود بعدة اسماء تدل عليه فى حالاته المختلفة فقيل «حورس الصباح» — «وحورس الافق» واشتقوا من أسمه عدة كلمات منها «حرى» بمعنى فوق وحرت بمعنى سماء وحر بمعنى وجه إنسان . وهكذا . ثم

قالوا أن الشمس والقمر ما هما ألا عينى حورس ينظر بهما إلى هذه الأرض ويضيئها للناس . فى ليتو پوليس عاصمة القسم الثانى من أقسام الوجه البحرى كان يحكمها أله يسمى « حرخنتى أيرتى » أى حورس المسيطر على العينين ويكتبونها بالهيروغليفية ثم سموه حورس الأكبر وميدان قوته النهار والنور . وهذا غير حورس الاصغر أوحورس الطفل بن أزيس الذى سنذكره فيما بعد .

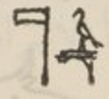

شكل (١٠٣) يبين كلمة أله فى اللغة المصرية وقد رسم الصقر مخصصا لها

أما فى الصعيد حيث تحيط بهم التلال والصحراوات من الجانبين فقد عبدوا ألها يتناسب مع بيئتهم . عبدوا حيوانا شبيها بكلاب الصيد وسموه ست ورسموه كما فى (الشكل ١٠٤) وقد رأينا فيما سبق من فصول أن عبادة ست ترجع أيضا

شكل (١٠٤) يبين الألهست

إلى عصر ما قبل الأسرات حيث اتخذته بعض أقسام مصر حاميا لها مثل القسم رقم

١١ (شاشتب) والقسم ٥ (نوبت) على أن أهم مراكز عبادة هذا الأله كانت نوبت وهى امبوس بالقرب من نقادة على الشاطىء الغربى للنيل تجاه مدينة قفط وأطلق عليه أهل نوبت اسم « ست نوبتى » أى ست الذهبى . ويظهر أنهم استطاعوا أن يفرضوا ألههم على جميع الأقسام الجنوبية وأن يجعلو ست ملكا على مصر العليا كلها وميدان قوته الليل المخيف والظلمة المرعبة ولذلك عمت هيبته كل سكان الوادى فعبدوا فيه البطش والقوه لعلهم يتقون شره .

إذاً عندنا ألهان، حورس أله النهار والنور فى الدلتا ثم ست أله الليل والظلمة فى مصر العليا . ولقد استمد المصريون هذه العبادة من طبيعة بلادهم وصوروا التقلبات الطبيعية على أنها نزاع بين هذين الألهين ، فالخماسين الرياح القوية العنيفة التى تهب من الصحراء فتملأ البلاد رمالا وتؤذى العيون وتضايق الناس هى من عمل الاله ست ثم ينتصر الاله حورس أخيرا فتزول الخماسين وتهدأ الرياح . وكذلك الليل الذى تغيب فيه الشمس انتصار للأله ست ثم يعود حورس فينتصر ويظهر النهار . والخسوف والكسوف أعمال شر من الاله ست ضد عين حورس اليمنى وهى الشمس وعينه اليسرى وهى القمر . كل هذه الاعمال سماها المصريون « معارك فى السماء » « خنمون پت » وهى المعارك الدائرة بين الالهين باستمرار أى بين السماء والارض وبين الدلتا والصعيد وقد انتهى هذا النزاع بتقسيم مصر بين الالهين فأصبح الوجه البحرى مجال نفوذ الاله حورس وأصبح الوجه القبلى مجال نفوذ الاله ست . ونلاحظ أن هذا التقسيم الدينى مطابق للتقسيم الجغرافى بالضبط مما يدل على أن أثر البيئة الطبيعية كان مطبوعا فى أذهان المصريين فقالوا أن حورس يحكم مصر السفلى وأن ست يحكم مصر العليا .

ولقد كانت الدلتا تسبق الصعيد فى الرقى والحضارة فكل خطوة جديدة فى سلم الحضارة نراها تبدأ فى الدلتا أولا ثم تنتقل إلى الصعيد بعد ذلك . هذا رغم أن الدلتا لا تعطينا فى الوقت الحاضر معلومات قيمة كالتى نجدها فى الصعيد وذلك لأن الدلتا منخفضة رطبة كانت كثيرة المستنقعات فى الماضى فهى

بيئة غير صالحة لحفظ الآثار أما الصعيد فهو مرتفع جاف ، أضف إلى هـذا أننا فى الصعيد نجد المدن القديمة والمعابد والمقابر بعيدة عن الجزء المنزرع فهى واقعة فى الصحراء عند سفوح التـــلال . أما المدن الحديثة فتوجد فى الجزء المنزرع بجوار وادى النهر وهذا أدى إلى بقاء آثار الصعيد محفوظة طول هذه المدة بعكس الدلتا التى بنيت مدنها الحديثة فوق خرائب المدن القديمة واتسعت الحقول والمزارع فوق هذه الخرائب مما أخفى الـكثير من معالم تاريخ الدلتا القديم وهذه خسارة كبيرة دون شك ، ولـكن عوض لنا هذا النقص بعض النصوص التى تركها لنا قسيس مدينة هليوبوليس والتى يرجع تاريخها إلى سنة ٢٥٤٠ ق. م أى فى أواخر الأسرة الخامسة الفرعونية . ومن هذه النصوص عرفنا أن أهل الدلتا هم أول من فـكروا فى جمع السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى يد واحدة ، وهذه هى الدرجة الثانية فى التطور نحو تأسيس الملـكية المصرية الفرعونية ، أما الدرجة الأولى فهى التى رأينا فيها أجزاء مصر محكومة بآلهة .

شكل (١٠٥) علامة أمنت (الغرب)

نرى فى هذه الخطوة الثانية الدلتا منقسمة ألى قسمين شرق وغرب . أما فى الغرب فقد جاءتها موجة من صحراء ليبيا — من التحنو — الذين كانوا يعيشون عيشة نصفها استقرار ونصفها تجوال فى غرب الدلتا الذى كان كثير المراعى والأشجار فى ذلك العهد حيث كانوا يرعون قطعان الثيران والأغنام المستأنسة ويصطادون الحيوانات البرية ويقودون القوافل التجارية وهم مسلحون بالأسهم والحراب وعصى الرماية . هذا التوغل من جانب الليبيين فى غرب الدلتا ظهر أثره فى الناحية الدينية وفى الأشكال التى كانت ترسم بها آلهة أقسام غرب الدلتا . بل أن كلمة غرب باللغة المصرية القديمة وهى كلمة (أمنت) هى عبارة عن ريشة نعامة كان يتحلى بها الليبيون فى شعرهم فاتخذها المصريون علامة تدل على الغرب (انظر شكل ١٠٥).

ثم نرى اتحاد آمكونا من الأقسام رقم ٧،٥٠٣ الموجودة فى غرب الدلتا تحت حكم ألهة نستطيع أن نسميها ألهة الغرب لأنها ترسم فى شكل امرأة تحمل الريشة فوق رأسها. وعلى أحد اللوحات التى ترجع الى أحد ملوك طينة نجد رسما يمثل جماعة من المحاربين تقودهم أمنت. وأمامهم جماعة أخرى من المحاربين تقودهم علامة أخرى رسمت كما فى شكل ١٠٦ هذه العلامة أصبحت فيما بعد تدل على كلمة شرق فى اللغة المصرية القديمة وتنطق يابت. أى أن الأقسام الشرقية اتحدت أيضاً.

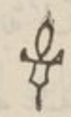

شكل (١٠٦) علامة يابت (الشرق)

بعد هذا نظهر فى الدلتا قوة جديدة هى قوة أزيريس وعائلته. وتتلاشى أمام هذه القوة قوة أخرى سواء فى شرق الدلتا أو فى غربها. وقصة ازيريس تتلخص فى أربعة أدوار هى أنه كان حيا ثم مات ثم بعث ثم أورث سلطته الملكية الى ابنه «حورس الصغير» (انظر شكل ١٠٧)

شكل (١٠٧) يبين الاله أوزيريس أله الزراعة

أما قصه حياته فتتلخص فى أن ازيريس كان ملكا عظيما تولى بعد أبيه جب (أله الأرض) فعلم الناس الزراعة وعرفهم ماهو القمح والشعير والكروم وغير ذلك من النباتات النافعة فقضى بذلك على الوحشية وعادة أكل لحوم البشر ثم غزا مصر العليا حيث وجد مناجم الذهب والنحاس فعلم المصريين صناعة المعادن. وكانت تساعده فى نشر تعاليمه هذه زوجته ازيس الملكة الماهرة التى سنت القوانين وحكمت مصر بالعدل حينما كان زوجها متغيبا فى قهر العالم. وقد اتخذ الملكان لهما

وزيراً هو تحوت الكاتب المقدس الذى اخترع الكتابة والفنون . وعاونها كذلك الأله انوبيس والأله أوب وات فكان كل من هذين الألهين يحكم قسما من أقسام مصر ولكنه محالف لأزوريس ويخضع لنفوذه .

أما قصة مماته فتتلخص فى أنه فى اليوم السابع عشر من شهر هاتور من السنة الثامنة والعشرين من حكم الملك أزيريس تمكن الأله ست حاكم مصر العليا من تدبير مؤامرة لقتل ازوريس فعمل وليمة ودعى إليها أزيريس وأقنعه بأن ينام فى تابوت من توابيت الموتى بصفة تجربة لكى يرى هل هو ملائم له أو غير ملائم فخدع أزيريس ونام فى التابوت فقفله عليه الأله ست وألقاه فى النيل فغرق وحمله اليم فى الفرع التانيتى ألى البحر الأبيض المتوسط ثم حملته أمواج البحر الأبيض المتوسط ألى بيبلوس عند الشاطىء السورى .

شكل (١٠٨) يبين مقبرة الأله أوزيريس أله الزراعة

أما قصة بعثه فتتلخص فى أن زوجته ازيس بحثت عن التابوت حتى وجدته واحضرته من بيبلوس ألى بوتو ولكن ست رأى التابوت فتضايق وأراد أن يتخلص نهائيا من سلطان أزوريس فقطع جثمانه أربعة عشر قطعة ووزعها على شركائه فى الجريمة حتى يتحملوا معه تبعة عمله . ولكن ازيس لا تيأس فتبحث عن أجزاء جسم زوجها وكلما وجدت جزءاً أقامت له قبراً وواراته التراب . ولذلك نرى قبور الأله أزيريس منتشرة فى معظم أجزاء مصر . وأصبحت كل عاصمة من عواصم مصر تفخر بأنها تحتفظ بجز من جسم أزيريس (أنظر شكل ١٠٨) . ثم تفكر ازيس بمساعدة

الأله توت وانوبيس والألهة نفتيس فى بعث أزيريس ألى الحياة ولكن ليس فى شكل ملك من البشر كما كان وأنما فى شكل أله .

أما قصة انتقال الملك ألى ابنه حورس الصغير (وهذا غير حورس الكبير أله ليتوبوليس)فتتلخص فى أن أزيس أنجبت ابنا يسمى حورس وولدتو حورس هذا فى بلدة خمنس بالقرب من بحيره البرلس بجوار بوتو ولما شب هذا الطفل أصبح ألها محليا فى بلدته عمل على الثأر لأبيه من هؤلاء الذين اعتدوا عليه ولذلك سمى بالآخذ بثأر أبيه (نج أ ت ف) وقد انضم إليه كثير من المصريين من المديريات التى واتخذت شعارها علامة الغرب ثم من المديريات التى جاءت من الشرق اتحدت حول الفرع الذى نسميه الآن فرع دمياط واتخذت شعارها علامة الشرق . وتخبرنا نصوص الأهرام أن اتحاد مدن شرق الدلتا اتخذ لحمايته معبوداً يسمى آنزتى يرسم كما فى الشكل ١٠٩ فقد ورد فى هذا النص بأن أنزتى هذا مشرف على الأقسام الشرقية .

شكل (١٠٩) يبين الأله أنزتى متربعا فوق مديريته

وهـــذه الأقسام الشرقية الموجودة حول فرع دمياط هى قسم رقم ١٠ (الثور الأسود) وقسم رقم ١١ (ثور حسب) وقسم رقم ١٢ (العجل) ثم قسم رقم ١٦ (السمكة) وهذا القسم فى منطقة المستنقعات ثم قسم رقم ٨ فى منطقة برزخ السويس بالقرب من البحيرات المرة وهو قسم الحربة الشرقية الذى يقابل قسم ٧ فى الغرب وهو قسم الحربة الغربية . ثم قسم رقم ١٤ وهو قسم خنت يابت ومعناه « أقصى نقطة فى الشرق » إشارة إلى موقعه الجغرافى فى شرق الدلتا وكما رأينا سايس عاصمة اتحاد غرب الدلتا تقوم على فرع رشيد فكذلك بوصير عاصمة اتحاد شرق الدلتا تقوم على فرع دمياط . ويهمنا فى شكل أنزتى

أننا فيه نجد تطوراً هاماً فى فكرة الملكية المصرية فكنا قبل ذلك نرى آلهة الأقسام حيوانات يعبدها المصريون ويعتقدون أنها تحميهم . ولكننا فى هذه الخطوة رأينا أله شرق الدلتا من البشر، فى احدى يديه عصا الراعى التى يمسك بها غنمه وفى اليد الأخرى السوط (الفرقلة) الذى يضرب به قطعانه من ثيران وأغنام . وكذلك رأينا اتحاد غرب الدلتا اتخذ ألهة من البشر هى امرأة فى رأسها علامة الغرب .

وقد تزعم حورس أنصاره الذين يسمعون فى النصوص المصرية أتباع حورس (شمسو حور) وتمكنوا من إيقاع الهزيمة بالأله ست بعد عدة معارك . وبانتصار حورس أصبح هو الملك وسمى حورس الطفل (حرپا خرد) تمييزا له عن أله السماء حورس سيد ليتوپوليس وقد حكم فى مبدأ الأمر الأقسام الشرقية فى الدلتا . ثم اعترفت مدنيته بوتو (بى) بحورس الطفل كسيد لها خلفا لأبيه فأصبح حورس سيد الدلتا كلها وأصبح ذا التاج الأحمر ثم تحول ألى حورس الكبير سيد ليتوپوليس ذى العينين وقامت الحروب بينه وبين ست أله امبوس . واعتبر ست أله الصحراء تفسيراً للعداوة القائمة بين الألهين (انظر شكل ١١٠) .

شكل (١١٠) يبين الصقر المنتصر على ست فى شكل غزال

المهم هنا أن المنافسة الدينية بين الدلتا والصعيد تحولت ألى عداوة سياسية لها صبغة تاريخية فاتحد أهل الدلتا الشرقيون منهم والغربيون لمعاونة حورس ويقود الجميع أله الحرب (الأله أوپ وات) ويكتب النصر الأخير لأتباع حورس وتنتصر

الدلتا على الصعيد ويقوم ملوك من أتباع حورس يحكمون مصر المتحدة . ويوضح شكل (١١٠) تعبير المصريين عن انتصار أتباع الصقر حورس على أتباع الحيوان ست

ننتقل بعد ذلك ألى الخطوة الثالثة وهى الخطوة التاريخية التى تبدأ حوالى ٥٥٠٠ ق . م ونرى القطر المصرى فى هذا التاريخ مقسما ألى ثلاثة أقسام :

القسم الأول مصر السفلى ويحكمه ملوك يمتد سلطانهم من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى رأس الدلتا . وقد بلغ عدد ملوك هذه المملكة الستين لم يعرف منهم غير السبعة الأواخر لأن الكتابة لم تخترع ألا فى آخر حكم هذه المملكة . كان هؤلاء الملوك الستين حكاما فى مملكة منظمة ذات مدن عظيمة وقرى كثيرة وكانوا زراعا وتجارا يستخدمون فروع النيل السبعة وسواحل البحر الأبيض ، وكانوا ذوى علاقات مع آسيا ، ثم فى أواخر عصر ما قبل الأسرات يعرف هؤلاء القوم الكتابة . ويظهر أنهم لم يكونوا شعباً متحداً لأننا نرى الدلتا فى هذه الفترة ذات عاصمتين هما بوتو وسايس . ويظن أن بوتو أقدم ثم انشئت بعدها سايس التى أصبحت عاصمة مملكة الدلتا المتحدة التى يحكمها ملوك اتخذوا النحلة شعارا لهم والتاج الأحمر لباسا لرأسهم واطلقوا على بلادهم اسم الأرض الشمالية أو أرض البردى لأنه كان ينمو بريا بكثرة فى مستنقعات الدلتا . وقد ذكرنا أن رعية هؤلاء الملوك وفدوا من جهات مختلفة منهم من قدم من الشرق وهم سكان شرق الدلتا ويمتون بصلة قرابة الدم لشعب فلسطين وسوريا وقرابة الثقافة لسكان الدجلة والفرات ، ومنهم من قدم من الغرب وهم سكان غرب الدلتا الذين وفدوا من ليبيا حتى ليقال أن مدينة سايس نفسها كانت فى الأصل مدينة ليبية يسكنها عنصر ليبي ويحكمها ملك ليبي ، ومنهم الزراع المصريون فى وسط الدلتا وهم سكانها الأصليون قبل أن تأتيها موجتا الهجرة الشرقية والغربية .

القسم الثانى يمتد من رأس الدلتا جنوبا حتى نقطة غير محدودة بالضبط بين أسيوط ودندرة . وقد تأسست هذه المملكة بعد مملكة الدلتا بحوالى ثلاثة قرون أى أن تأسيسها تم حوالى سنة ٥٢٠٠ ق . م ولقد قدم سكان هذا الجزء من الشمال فهم لايختلفون جنسيا عن سكان الدلتا . وقد أقاموا بجوار النهر واشتغلوا بالزراعة

وانشأوا عدة مدن وقرى واتخذوا من مدينة اهناسية مقراً لحكمهم كما اتخذوا نبات الغاب شعاراً لهم والتاج الأبيض لباسا لرأسهم ، وهو التاج الذى أصبح شعار مصر العليا كلها فيما بعد ، فلما اتحدت الدلتا والصعيد أصبح ملك مصر يلبس تاجاً مزدرجاً يمثل التاجين الأحمر والأبيض كما أصبح يلقب بملك النحلة والغاب ويكتب اسمه داخل أطار مسبوق بعلامتى الغاب والنحلة . ولكن هذا الاتحاد جاء بعد نزاع طويل حتى أن ملوك الغاب اضطروا ألى انشاء مدينة حصينة فى شمال مملكتهم تقيهم شر غزوات الملوك الحمر ملوك النحلة فى الشمال ، وقد اطلق على هذه المدينة اسم الحائط الأبيض وهى المدينة التى سميت بعد اتحاد الدلتا والصعيد « من نفر » وسماها اليونان ممفيس وأصبحت مقر حكم المملكة المتحده .

القسم الثالث يحد شمالا بمملكة الغاب وجنوبا بجبل السلسلة . وقد اتخذت هذه المملكة الصقر شعاراً لها . واتخذ ملوكها مدينة نخن عاصمة لهم وكانت تقع على الجانب الغربى للنيل شمال مدينة ادفو بقليل . واستمرت هذه المملكة قائمة مدة ١٢٥٥ سنة قبل توحيد القطرين . ولقد أصبح للملك فى مصر المتحدة خمسة ألقاب من ضمنها اللقب الذى ذكرناه قبل ذلك وهو لقب الغاب والنحلة ومن ضمنها أيضاً لقب الصقر . أما شعب هذه المملكة فيقال أن الجنوبيين منهم اقرباء للنوبيين وأما الشماليون فاقرباء لسكان مملكة الغاب الواقعة فى شمالهم . ويرجح أن الطبقات الحاكمة فى هذا القسم قد أتت بطريق البحر الأحمر من منطقة الصومال ويوجد طريق هام للقوافل يسير من الشاطىء الشرقى للنيل تجاه مدينة نخن إلى ساحل البحر الأحمر فيحتمل أن تكون الطبقات الحاكمة فى مملكة الصقور قد سلكت هذا الطريق من بنت (الصومال) ثم جاءت إلى هذا المكان فحكمت أهله الذين لا يختلفون عن سكان مملكة النحلة .

ثم ظهرت اسرة ملكية قوية فى مدينة طينة بجوار أبيدوس ويقول المؤرخ المصرى مانيتو أن عشرة من الملوك حكموا ٣٥٠ عاما فى مدينة طينة . ويعتبر هؤلاء آخر مملكة جزئية فى القطر المصرى أسست قبل الملك مينا . ويظهر أن ملوك طينة استطاعوا أن يخضعوا مملكة الصقور فى نخن ويلحقونها بمملكتهم .

ويوجد طريق قوافل يسير بين النيل والواحة الخارجة وتقع على رأسه مدينة طينة ولذلك قال البعض بأن الطبقة الحاكمة فى طينة جاءت مصر من هذا الطريق وهناك رأى آخر يقول أن ملوك طينة جاءوا من الجنوب . وسيصبح لهذه المملكة شأن عظيم أذ يتم على يديها توحيد القطر المصرى كله .

عدا هذه الممالك الأربعة توجد جماعتان لم يصلا إلى الحكم قبل الأسرة الأولى رغم قوتها ونفوذهما وأنما وصلا الى الحكم بعد تأسيس المملكة نهائيا . أما الجماعة الأولى فقد عرفناها قبل ذلك وهى الجماعة التى كانت تعبد الألهست، وقد شمل نفوذها فى بعض الأحيان كل مصر العليا ولكن اهم مراكزها كان فى قسم هپسيلس وعاصمته شاشتپ جنوب أسيوط عند ابو تيج وفى مدينة نوبت (امبوس) شمال نقادة بقليل التى تقع على رأس طرق قوافل هامة تصل بين النيل والواحات حيث يسكن الليبيون ولذلك قيل باحتمال وجود قرابة جنسية بين اتباع ست وبين الليبيين كما يقال أن شعرهم كان احمر أمما يرجح هذه الحقيقة . وأما الجماعة الثانية فهى الشعب الذى اتخذ مركزه مدنية أون مدينة الشمس التى أطلق عليها اليونان اسم هليوپوليس . وهذه المدينة تقع على بعد بضعة كيلو مترات شمال شرق مدينة القاهرة الحالية وعلى رأس الطريق الموصل الى السويس . وهذا الطريق الموصل للسويس كان فى الماضى طريقا هاما للقوافل يسير من رأس الدلتا إلى السويس ثم الى شبه جزيرة سينا وشبه جزيرة العرب ولذلك قيل بأن شعب أون وديانتها التى تتمثل فى عبادة الشمس (رع) مستمدان من أصل اسيوى . ولما اتحدت مصر أصبح من ضمن ألقاب الملك لقب ابن الشمس . وسكان هذه الجزء كانوا من البدو الذين قدموا من الشرق وكانوا مكروهين من المصريين حتى أن المثل العامى الحالى « غار الجمل بما حمل » مثل مصرى قديم ولكن هؤلاء البدو استطاعوا أن يتألفوا المصريين ويصبحوا جزءاً من اتحاد الشعوب المصرية وينسوا أصلهم الشرقى ولم تصبح لهم علاقة بالقبائل الرحل التى انحدروا منها وبذلك استطاعوا أن يصبحوا ذا نفوذ سياسى كبير إبتداء من الأسرة الثانية .

انتهينا بذلك من تتبع الخطوة الثالثة من خطوات تأسيس المملكة المصرية وفيها رأينا مملكة النحلة فى الدلتا ومملكة الغاب فى مصر الوسطى ومملكة الصقر فى مصر العليا .

ثم تتحد البلاد كلها ويقوم على رأس مصر ملك واحد هو فرعون . وتبدأ حركة الاتحاد من المملكة الجنوبية — من طينة — التى يتسع نفوذها شيئا فشيئا حتى يصل الى البحر الابيض شمالا . أما كيف تم هذا الاتحاد اخيرا فتدلنا عليه المقابر الملكية التى اكتشفت فى أواخر القرن ١٩ فى الصحراء غرب مدينتى طينة وأبيدوس . ففى هذه المقابر وجد بترى جزءا من آنية فخارية رسم عليها حرف الراء المصرى وفوقه رسم الصقر ووجد ختما من الطين عليه نفس الرسم وهذا هو اسم أول ملك عرف عن طريق الكتابة وهو الملك رو وكان قصره الملكى فى مدينة طينة وأن كان قد احتفظ بمدينة نخن كعاصمة ثانية له وهى العاصمة القديمة للسلالة التى انحدر منها وهى سلالة ملوك الصقور .

ويقال أن الحد الجنوبى لهذه المملكة فى عهد حكم الملك رو امتد حتى اسوان والشلال الأول وهناك رأى آخر أن هذا الحد الجنوبى لم يتعد جبل سلسلة . أما الحد الشمالى لنفوذ الملك رو فقد ظل هو الحد القديم لمملكة الصقور أى الحد الفاصل بينها وبين ملك اهناسية فى مصر الوسطى .

وقد وجدت بجوار مقبرة رو مقبرة أخرى لملك اسمه « كت » ووجد اسمه مكتوبا على آثار كثيرة فى مقبرته . كما وجد اسمه ايضا فى نخن (هيراكونبوليس) وليس فى هذا غرابة وأنما الغريب أن اسمه وجد فى طارخان شمال ميدوم وهى بلدة فى وسط اقليم ملوك مصر الوسطى مما يدل على أن الملك كت استطاع أن يضم اليه مملكة مصر الوسطى وأن يهزم ملك الغاب فى عهده ويضعه تحت سلطانه وهذه هى أول خطوة فى توحيد المملكة المصرية وربما كان هذا سنة ٣٤٥٠ قبل الميلاد .

تولى الملك بعد الملك كت ملك يسمى العقرب حكم من سنة ٣٤٥٠ إلى سنة ٣٤٢٥ ق . م ووجد اسمه على شكل عقرب ولذلك أطلق عليه هذا الاسم . وورث عن كت مملكة الصقور ومملكة الغاب وامتد سلطانه على اهناسية وممفيس وطينة ونخن فعمل على زيادة توحيد هذه البلاد حتى استتب له الأمر فيها ووجد اسمه فى طرة فى اقصى الحدود الشمالية لمملكة الغاب كما وجد لابسا التاج الأبيض تاج ملوك الغاب مما يدل على أنه أصبح نهائيا ملك مصر العليا كلها من أقصى الجنوب إلى رأس

الدلتا . ولمـــا وصل إلى رأس الدلتا أحتك فى مناوشات مع ملك الدلتا ذى التاج الأحمر ولكنه مات وترك للملك الذى سيخلفه مهمة هذه المناوشات .

يأتى بعد العقرب الملك نارمار الذى حكم من سنة ٣٤٢٥ إلى سنة ٣٤٠٧ ووجدت مقبرته فى طينة بالقرب من مقبرتى رو وكت وفى عهد هذا الملك تم توحيد الوجهين البحرى والقبلى نهائياً . كما تدل على ذلك اللوحة المشهورة المسماة بلوحة نارمار التى وجدت فى نخن (هيراكونپوليس بالقرب من جرجا) وهى محفوظة بالمتحف المصرى . نجد على أحد وجهيها اسم نارمار بين رأس بقرة تمثل الألهة حاحور . وتحت هذا نرى الملك لابسا التاج الأبيض وهو تاج الوجه القبلى وهذا يدل على أنه حاكم الوجه القبلى وخلفه حامل نعليه ويمسك بيده صولجانا على شكل الكمثرى ويضرب عدوه الراكع أمامه والمقبوض عليه من شعره . هذا العدو هو ملك الوجه البحرى بدليل أن فوق رأس هذا الملك كتب اسم الوجه البحرى . (تاح) وعلى الجانب الآخر من اللوحة نجد الملك نارمار منتصراً يلبس التاج الأحمر تاج ملوك النحلة الذين كانوا يحكمون فى سايس فى الدلتا مما يدل على أن الملك نارمار انتصر نهائيا على الوجه البحرى وأصبح ملك القطرين من البحر الأبيض شمالا ألى أسوان والشلال الأول جنوبا . وتدل بعض الآثار التى وجدت فى مقبرة نارمار ، على أنه اشتبك فى حرب مع بلاد النوبة وانتصر عليها كما اشتبك فى حرب مع الليبيين وانتصر عليهم . وأذا قبل أن يموت نارمار كانت مصر كلها موحدة وكان الملك يجمع فى يديه ملك طينة ونخن من جهة وملك اهناسية من جهة ثانية ثم ملك الدلتا من جهة ثالثة وقد سلم هذه الأجزاء موحدة ألى ابنه الملك الصغير مينا وبذلك تبدأ الأسره الأولى على رأى المؤرخ مانيتو . وأن كان المؤرخون فى الوقت الحالى توحيد يجعلون العقرب ونارمار من ملوك الأسرة الأولى قبل الملك مينا ويتفقون على أن المملكة تم فى عهد نارمار قبل مينا وعلى أن عمل مينا اقتصر على تنظيم هذه المملكة المتحدة بحيث أصبحت ذات مدنية واحدة تسود القطر كله لا فرق بين جزء وآخر .

تم بحمد الله

المصادر

أولا : المصادر العربية

١ — مصطفى عامر . حفائر الجامعة المصرية فى المعادى . بعض نتائج الحفر فى المواسم الخمسة الأولى من سنة ١٩٣٠ ألى سنة ١٩٣٥ . القاهرة ١٩٣٦ .

٢ — مصطفى عامر ومنجين . التقارير السنوية لحفائر المعادى من سنة ١٩٣٠ ألى سنة ١٩٣٣ . فى محفوظات كلية الآداب بجامعة فؤاد

٣ — مصطفى عامر . التقارير السنوية لحفائر المعادى من سنة ١٩٣٤ ألى سنة ١٩٤٧ فى محفوظات كلية الآداب بجامعة فؤاد

ثانياً : المصادر الأجنبية

4 — Ayrton (Edward R.)
Pre - dynastic Cemetry of El Mahasna '. London 1911

5 — Ball (John) : Contributions to the geography of Egypt . Cairo 1939 .

6 — Baumgartel (Elise J.) : The Cultures of Prehistoric Egypt . 1947

7 — Blanckenhorn , Die Steinzeit Palastina - Syriens und Nordafri- - kas . Leipsig 1921

8 — „ : Geschichte des Nil - Storms . Zeitschrift des gesellschaft fiir Erdkiinde , Berlin 1902 .

9 — Bovier - Lapierre (Paul) ,
Une Nouvelle Station Neolithique (El 0 mari) au nord d ' Helwan . Compte Rendu du Congrés intern . Le Caire 1925

10 — Bovier - Lapierre (Paul) ,
Stations Prehistoriques des Environs du Caire , Compte Rendu du Congrés Intern . de Geog . Le Caire , 1925 .

11 — » " Le paléolithique stratifié des environs du Caire . Paris 1925 (L ' Anthropologie) Tome 35 .

12 — » » , Les gisements paleolithiques de la plaine de L'Abbassieh, Bull . de L'Institut d,Egypte Tome 8 1925.

13 — " " L ' Egypte Prehistorique Dans Precis de L ' Histoire d 'Egypte t . 1 . Le Caire 1932

14 — Brooks (C . E . P .) Evolution of Climate

15 — Brunton (G) :
The Badarian Civilization & Predynastic Remains near Badari , London , 1918 .

16 — " , Mostagedda and the Tasian Culture ' London 1937

17 — " Deir Tasa , in Antiquity t . 3 , 1929 .

18 — Burkitt, Our early Ancestors

19 — , The Old Stone Age

20 — Caton - Thompson (G) . & Gardner .(E . w.)
The Prehistoric geography of kharga Oasis , Reprinted from The Geographical Journal , Vol . 80 no . 5 , November 1932 .

21 — Caton - Thompson (G .) & Gardner .(E . w .)
The Desert Fayum , Gloucester , Britain , 1934 .

22 — Childe (. V . G .) , New Light on the most Ancient East . London 1935 .

23 — " " , L ' Orient Prehistorique , Paris 1935 .

24 — " " , The Dawn of European Civilization London 1927

25 — Coleman . Ice Ages Recent and Ancient . London 1924 .

26 — Debono (Fernand)
Fouilles du Service des Antiquités . Helouan , El Omari . Dans Chronique d ' Egypte , Janvier 1946 .

27 — De FilipPl. Review of Himalayan Glaciation . in Geog . Jour . vol . 63 , 1924 .

28 — Firth (C . m .)
The Archœlcgical Survey cf Nubia : Report for 1908 - 1909.Cairo 1912 Volume 1,2.

29 — „
The Archœological Survey of Nubia Report for 1909 - 1910 Cairo 1915

30 — Frankfcrt (Henri)
Archeolcgy & The Sumerian Problem . Chicago 1932

31 — „
Iraq Excavations of the Oriental Institute 1932 - 1933

32 — „
Tell Asmar . khafaje and khorsabad . Chiccgo 1933

33 — „
Oriental institute Discoveries in Jraq . 1933 - 34

34 — Gabra (S) :
Fouilles du Services des antiquitès a Deir Tasa , in Ann . Serv . t 30 .

35 — Garstang (John)
Mahasna and Bét khallaf .
London 1903

36 — Huntington (Ellsworth) ,
The Pulse of Asia New York 1907

37 — Huzayyin (S . A) :
Some New light on the Beginnings of Egyptian Civilization Cairo 1939

38 — „ „
The Place of Egyt in Prehistory Cairo 1941

39 — „ „ The Flint Industry of the pre-Dynastic Settlement of Arment , in Cemetries of Arment 1 by Sir Robet Mond & Myers (O . H) London 1937

40 — Junker (Hermann) & Delaporte (L.) Die Volker des Antiken Orients Freiburg 1933

41 — Junker (Hermann) :
Vorlaufiger Bericht uber die Grabung... auf der neolitischen Siedlung von Merimde - Benisalama in Arz . phil . - hist . kl . Akad . Wiss . Wien , Jahr . 1929 , 1930 , 1932 , 1933 , 1934 .

42 — Kœppel ;
Maadi und Ghassul , dans Biblica t.8 , 1927

43 — Le Chanoine (J,B.)
Un Gisement aurignacienne , Les Vachons (Charente) dans L . AnthroPologie 1948 .

44 — Macalister (R.A.S)
Text — book of European Archaeology Cambridge 1921

45 — Mac Curdy (George Grant) .
Human Origins , London, 1924
2 Volumes .

46 — Maciver (Randall,) & Mace (A.C.)
El Amrah& Abydos . London1902

47 — Menghin (Oswald) & Mustafa Amér .
The excavations of the Egyptian University in fhe Neolithic site at Maadi . First Preliminary Report , Cairo 1932.

48 — » » Sscond Preliminary . Report , Cairs 1936

49 — Miller (A . A) , Climatology . London 1944

50 — Moret (A) :
The Nile and Egyptian Civilization , London 1927

51 — Morgan(Jacques Jann mari de) :
Recherches sur Les Origines de L ' Egypte , L , age de la piérre et les metaux Paris 1896 .

52 — " " ,Ethnographie prehistorique et tombeau royales de Negadah , Paris 1897 .

53 — " " , L ' Humanité Prehistorique . Paris 1924

54 — Nasrallah (J) :
Une Station ghassoulienne du Hauran ; dans Revue Biblique,Janvier 1948 .

55 — Obermaier (H .) : Fossil men in Spain , Oxford 1925

56 — Passemard (E) :
Le Chalossien en France , en Egypte et en Syrie , dans Syria . t , 8 , 1927 .

57 — " " : La Station Chelléenne de khillalé prés de Lattakia , dans Syria t . 8 , 1927

58 — Peake (H) & Fleure (H . J .)
Apes & Men London 1927

59 — " " Hunters & Artists " "

60 — " " Peasants & Potters " "

61 — Pendlebury (J.Q.S.)
Aegyptiaca , a Catalogue of Egyptian Objects in The Aegean Area , Camdridge , 1929 .

62 — Petrie (w,m.F.) :
Naga da - Ballas London 1895 .
63 — „ „ The Royal Tombs of the First Qynasty
64 — „ „ Diospolis Parva ,
The Cemetries of Abadiyeh & Hu . London 1901
65 — „ „ : Amulets, London 1914
66 — „ „ : Tools & weapons. London 1917
67 — „ ,I : Prehistoric Egypt,London 1920
68 — „ „ ; Corpus of Prehistoric Pottery and Palettes London 1921
69 — Quibell (J.E). Ballas . London 1896
70 — Reisner (george A.)
The ArcaeoLogicaL Survey of Nubia .Reports for 1907 - 1908 Cairo 1910
71 — Sandford (K.S.) and Arkell (w.J):
: First Report of the Prehistoric Survey Expedition . Chicago 1928
72 — „ „
Palaeolithic man & the Nile Valley in Nubia asd Upper Egypt. 1933
73 — .. Palaeolithic man in Upper & Middle Egypt 1934
74 — „ Palaeolithic man and the Nile Valley in Lower Egypt . 1939
75 — Smith (Y, Elliot) and Jones (F.wood) The Archœological Suvey of Nubia . Report for 1907 1908 Cairo 1908
76 — Sollas (w.J) . Arcient Hunters , London 1924
77 — Union géograghique Internationale : Reqort of the Commission of Pliocene & Pleistocene Terraces , 1928
78 — Vignard (Ed.) Une nouvelle industrie lithique :
le Sebilien, dans Bulletin de L' Institut Francais d'Archeologie Otientale t. 22 Le Caire 1923

- 8 MAR 2007